وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ

اليوم الآخر

تقديم فضيلة الشيخ

صلاح الدين مقبول أحمد

تأليف

أم عبد العزيز الفرج

خرج أحاديثه

محمد صباح المنصور

غراس

للنشر والتوزيع والدعاية والإعلان

وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ

اليوم الآخر

الطبعـــة الأولى

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧م

الكويت - شارع الصحافة - مقابل مطابع الرأي العام التجارية
هاتف: ٤٨١٩٠٣٧ فاكس ٤٨٣٨٤٩٥
الكويت - الخالدية: ص. ب: ١٧٠١٢ - الرمز البريدي: ٧٢٤٥١
Website: www. gheras. com
E-Mail: info@ gheras.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم بقلم فضيلة الشيخ/ صلاح الدين مقبول أحمد

الحمد للَّه رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن الإيمان باليوم الآخر وما فيه من مواقف ومشاعر وأحوال وأهوال: يحث المسلم على الاستمرار بمراجعة حسابه مع اللَّه العزيز الغفار سبحانه وتعالى، ويسهّل عليه العمل للحصول على رضاه في الدنيا والآخرة، ويساعده على ترك المنكرات وفعل الطاعات قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥ - ٤٦].

وقد بين النبي ﷺ سرعة فناء هذا العمر فيما صح عنه، فقال: «مالي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها».

فمهما طال عمر الإنسان مصيره الموت، ثم الحساب والجزاء قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

هو الموت لا منجى من الموت والذي نحاذر بعد الموت أدهى وأفظع

الذي يستعد لهذا اليوم العظيم هو الكيس العاقل الفطن كما جاء في حديث صحيح سُئل النبي ﷺ: «. . . فأي المؤمنين أكيس؟ قال: أكثرهم ذكراً للموت وأحسنهم لما بعده استعداداً. أولئك الأكياس».

وهذا الكتاب يحتوي على بيان مشاهد هذا اليوم العظيم: يوم القيامة في

ضوء الكتاب والسنة، مع نصائح غالية، ومواعظ بليغة، ووقائع مفيدة، وعظات وعبر كثيرة لمن يتذكر.

أما مؤلفة الكتاب - جزاها الله خيرا، وكثر من أمثالها - فقد وفقت في اختيار الصحاح من الأحاديث فيما ذهبت إليه من تقرير مشاهد اليوم الآخر، وتحرير مسائله، وإثبات عذابه ونعيمه، وبذلت جهداً مشكوراً في تأليفه وترتيبه وجمعه وتبويبه.

ولا ريب أن المجتمع الإسلامي في هذه الفترة الدقيقة من الزمن، التي عمت فيها الغفلة في جميع مجالات الحياة الإنسانية، هي أشد حاجة إلى مثل هذه الكتابات المفيدة النافعة التي تشجع الطائعين، وتنبه الغافلين وتذكر الناسين، وتنهض همم المتكاسلين.

فجزى اللّه مؤلفته خيراً على ما قامت به من تأليف هذا الكتاب المبارك، ويوفقها للمزيد من الأعمال العلمية الهادفة، ويبارك لها فيها، ويثيبها عليها.

وما ذلك على الله بعزيز.

والحمد للّه رب العالمين

كتبه

صلاح الدين مقبول أحمد

الجهراء - الكويت

١٨/١٠/١٤٢٧هـ - ٩/١١/٢٠٠٦م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد للَّه الواحد القهار، الذي كتب على عباده الموت والفناء في هذه الدار، وجعل لهم الخلود في دار القرار، إما في الجنة وإما في النار، وجعل بين الدنيا والآخرة برزخا فيه نعيم وعذاب فالقبر إما روضة من رياض الجنة وإما حفرة من حفر النار.

وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله النبي المختار ﷺ وعلى آله وصحبه الأخيار.

أما بعد:

فإن الإيمان باليوم الآخر أصل من الأصول لا يتم الإيمان إلا به، فهو أحد أركان الإيمان الستة قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال رسول اللَّه ﷺ عندما سأله جبريل عن الإيمان: «أن تؤمن باللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»[(١)].

وقد تكرر كثيراً ذكره في القرآن الكريم مقترناً بالإيمان باللَّه تعالى وذلك لأهميته وقد كان آخر توجيه تلقته البشرية من ربها تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠] إذ إن هذه الآية آخر ما نزل من السماء على رسول اللَّه ﷺ، وقد عاش بعدها تسع ليال ثم مات ﷺ لليلتين خلتا من ربيع الأول[(٢)]. وفي الآية وجوب اتقاء هذا اليوم، وأن

---

(١) قطعه من حديث رواه مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه - كتاب الإيمان- باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان برقم (١).

(٢) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (١/ ٢٤٠).

العلم بجزيئات اليوم الآخر وما يحصل فيه من أهوال وأمور عظام- على مقتضى النصوص الصحيحة- يورث اليقين به. وهذا أمر ينبغي أن يبذل المرء جهده في تحصيله لأن اليقين هو العلم التام الذي ليس فيه أدنى شك والموجب للعمل، لذا كان اليقين باليوم الآخر من صفات المتقين المفلحين المهتدين قال تعالى: ﴿وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤].

وعلى قدر اليقين باليوم الآخر يكون الاستعداد والعمل له. لأن القلب إذا أيقن انبعثت الجوارح كلها للقاء اللّه بالأعمال الصالحة قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «من اتقى اللّه لم يشف غيظه، ومن خاف اللّه لم يفعل ما يريد ولولا القيامة لكان غير ما ترون»[1] والإيمان باليوم الآخر يشمل: «الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت، أي من الموت فيما بعده: دار البرزخ ثم الدار الأخرى ومن هنا تتبين أهمية هذا البحث في عرض تفاصيل ذلك اليوم: «والإعلام بجزيئاته ليكون القارئ على بصيرة فيخلص نفسه من ذلك الهول لأن في معرفة جزيئات الشيء قبل وقوعه رياضة النفس وحملها على ما فيه خلاصها بخلاف مجيء الأمر بغتة»[2].

وإن غفلة الكثيرين عن العلم بهذا الركن العظيم وتفاصيله كان له آثاره السيئة على الأفراد والمجتمعات حيث عم الفساد وامتلأت القلوب بالشبهات والشهوات، وطغت المادة، وانحطت الأخلاق وضاعت القيم، وخسرت الأمة السعادة والاستقرار والطمأنينة.

وقد كان ما سبق كله دافعاً لي إلى الكتابه في هذا الموضوع لأرفع الجهل عن نفسي وعن إخواني المسلمين، ولنقطف ثمرات هذا العلم العظيم، وقد قمت بالاطلاع على جهود من سبقني من العلماء الجهابذة في هذا الباب ونهلت من

---

(١) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (ص ١٨٢).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١١/ ٤٥٦) بتصرف يسير.

معينهم، وحذوت حذوهم في الأخذ بنصوص الكتاب والسنة الصحيحة، والتي تعطي صورة مفصلة لكثير من الأمور التي تكون بعد الموت وفي المعاد. وأعرضت عما لم يصح إسناده إلى رسول الله ﷺ، واتبعت نهج سلفنا الصالح في فهم النصوص من غير تأويل ولا تحريف ولا تحكيم للعقل ومقاييسه كما فعلت بعض الفرق، حيث حكمت العقل في النصوص الصحيحة مما أدى إلى تكذيبهم ببعض ما يجري في الآخرة من أمور.

ولو أنهم فهموا النصوص كما ينبغي لتبين لهم أن أمور الآخرة ليس للعقل فيها مجال ولا يعترض عليها بعقل ولا قياس ولا عادة إنما تؤخذ بالقبول، وتدخل تحت الإيمان بالغيب، ومن توقف في ذلك دل على خسرانه وحرمانه.

وقد جمعت في هذا المؤلف بين المنهجية والرقائق وبين التأصيل العلمي والأسلوب الوعظي وعرضت فيه صورا من حياة الرسول ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم والتابعين لهم بإحسان وأحوالهم وأخلاقهم وأقوالهم من منطلق اعتقادهم باليوم الآخر ويقينهم به واستعدادهم له ليقتدي بهم السالك.

وراعيت فيه سهولة العبارة والاختصار غير المخل، فإن الهمم في هذا الزمان قد تقاصرت عن قراءة الشروح الطويلة وعزفت عنها إلا من رحم ربي.

والله المسؤول وحده أن يجعله خالصا لوجهه الكريم محققا للهدف المرجو منه وأن يكون علما ينتفع به يصلني أجره في قبري ويوم فاقتي وفقري.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أماخطة البحث فقد جاءت بعد هذه المقدمة مشتملة على ثلاثة أبواب وخاتمة، وذلك كما يلي:

الباب الأول: القيامة الصغرى.

الفصل الأول: الموت.

المبحث الأول: تعريف القيامة الصغرى والقيامة الكبرى.

المبحث الثاني: المراد بموت النفوس.

المبحث الثالث: الاحتضار وسكرات الموت وحضور ملائكة الموت.

المبحث الرابع: تكريم روح المؤمن بعد نزعها أما روح الكافر فبنقيض ذلك.

الفصل الثاني: ماذا أعددت للموت.

المبحث الأول: خطر الساعة الأخيرة.

المبحث الثاني: سوء الخاتمة.

المبحث الثالث: الإكثار من ذكر الموت.

المبحث الرابع: آثار الإكثار من ذكر الموت.

المبحث الخامس: عظات وعبر.

المبحث السادس: ماذا يفعل إذا استشعر حضور أجله.

الباب الثاني: القبر.

الفصل الأول: القبر أول منازل الآخرة.

المبحث الأول: فظاعة منظر القبر.

المبحث الثاني: ضمة القبر.

المبحث الثالث: فتنة القبر.

الفصل الثاني: عذاب القبر ونعيمه.

المبحث الأول: المراد بعذاب القبر وثبوته في الكتاب والسنة.

المبحث الثاني: استمرارية عرض مقعد المرء عليه من الجنة أو النار في القبر.

المبحث الثالث: سماع رسول الله ﷺ أصوات المعذبين وكذلك البهائم.

المبحث الرابع: النعيم والعذاب على الروح والبدن في الحياة البرزخية.
المبحث الخامس: صفة نعيم القبر وعذابه.
المبحث السادس: أسباب عذاب القبر.
الباب الثالث: القيامة الكبرى.
الفصل الأول: النفخ في الصور.
المبحث الأول: المراد بالصور.
المبحث الثاني: اليوم الذي يكون فيه النفخة.
المبحث الثالث: عدد المرات التي ينفخ فيها في الصور.
المبحث الرابع: سرعة هلاك العباد حين تقوم الساعة.
المبحث الخامس: الذين استثناهم اللّه من الفزع والصعق.
المبحث السادس: ما بين النفختين أربعون.
الفصل الثاني: البعث والحشر وأهوال القيامة وأحوال الناس فيها.
المبحث الأول: إنبات الإجساد.
المبحث الثاني: يبعث العبد على ما مات عليه.
المبحث الثالث: الحشر إلى الموقف.
المبحث الرابع: أرض المحشر.
المبحث الخامس: صفة حشر العباد وجمعهم إلى أرض الموقف.
الفصل الثالث: أهوال يوم القيامة.
المبحث الأول: دمار هذا العالم الدنيوي وخرابه.
المبحث الثاني: أسماء يوم القيامة وأوصافه تدل على هول ذلك اليوم.
المبحث الثالث: بعض أحوال الناس التي تدل على هول يوم القيامة.
المبحث الرابع: تفاوت أحوال الناس يوم القيامة.
المبحث الخامس: من الأمور العظيمة يوم القيامة مجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء.
الفصل الرابع: الشفاعة.

الباب الأول
القيامة الصغرى

الفصل الأول: الموت
المبحث الأول: تعريف القيامة الصغرى والقيامة الكبرى

القيامة الصغرى هي موت الإنسان، فكل من مات فقد قامت قيامته، عن هشام عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قال: «كان رجال من الأعراب جفاة يأتون النبي ﷺ فيسألونه: متى الساعة؟ فكان ينظر إلى أصغرهم فيقول: إن يعش هذا لا يدركه الهرم حتى تقوم عليكم ساعتكم»[1] قال هشام: يعني موتهم. والقيامة الكبرى هي بعث الناس للمحاسبة.

قال ابن تيمية: «وهو سبحانه يذكر القيامة الكبرى والصغرى كما في سورة الواقعة فإنه ذكر في أولها القيامة الكبرى، وأن الناس يكونون أزواجاً ثلاثة، كما قال تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ [الواقعة: ١- ٧] ثم إنه في آخرها ذكر القيامة الصغرى بالموت، وأنهم ثلاثة أصناف بعد الموت، فقال: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝٨٣ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۝٨٤ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝٨٥ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝٨٦ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٨٧ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩١ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٣- ٩٦][2].

فالموت هو المرحلة الأولى في الرحلة إلى الدار الآخرة.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب سكرات الموت (/١٥٩٩) (٦٥١٠).

(٢) مجموع فتاوي ابن تيمية (٤/ ٢٦٣).

المبحث الثاني
المراد بموت النفوس

١- عندما يقال: فلان مات، فهل المعني بذلك موت روحه أم الموت للبدن وحده؟

قال ابن القيم: «اختلف الناس في هذا، فقالت طائفة تموت الروح وتذوق الموت لأنها نفس، وكل نفس ذائقة الموت»

قالوا: وقد دلت الأدلة على أنه لا يبقى إلا اللّه وحده، قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] قالوا: «وإذا كانت الملائكة تموت فالنفوس البشرية أولى بالموت....».

قال آخرون: «لا تموت الأرواح، فإنها خلقت للبقاء، وإنما تموت الأبدان».

قالوا: «وقد دلت على هذه الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها اللّه في أجسادها ولو ماتت الأرواح لانقطع عنها النعيم والعذاب...».

والصواب أن يقال: «موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها، فإن أريد بموتها هذا القدر فهي ذائقة الموت، وإن أريد بها أنها تعدم وتضمحل وتصير عدما محضا فهي لا تموت بهذا الاعتبار بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو في عذاب كما سيأتي إن شاء اللّه تعالى»(١) وهذا ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية أن موت الأرواح هو مفارقتها الأبدان وعند النفخة الثانية تعاد الأرواح إلى

---

(١) الروح ٤٩ .

الأبدان»[1]. قال القرطبي: قال العلماء: «الموت ليس بعدم محض ولا فناء صرف إنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته وحيلولته بينهما، وتبدل حال وانتقال من دار إلى دار»[2].

٢- هل النفس والروح متغايران أو مسماهما واحد؟

قال ابن القيم: «أما الروح التي تتوفى وتقبض فهي روح واحدة وهي النفس»[3].

وقال شارح الطحاوية: «فالنفس تطلق على الروح ولكن غالب ما تسمى نفسا إذا كانت متصلة بالبدن، وأما إذا أخذت مجردة، فتسمية الروح أغلب عليها»[4]. والنصوص تدل على ذلك قال اللّه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧- ٣٠].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢]، فهذه النفس التي يتوفاها اللّه تعالى وتقبضها الملائكة هي الروح.

٣- هل الروح مخلوقة؟

باتفاق الروح مخلوقة مربوبة مصنوعة مدبرة وحكى ابن تيمية في ذلك الإجماع قال: «روح الأدمي مخلوقة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة، وقد حكى إجماع العلماء على أنها مخلوقة غير واحد من أئمة المسلمين مثل:

---

(١) مجموع فتاوي ابن تيمية (٤/ ٢٧٩).

(٢) التذكرة ص ٤ .

(٣) الروح ٢٩٣ .

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ٥٦٧ .

«محمد بن نصر المروزي وأبو محمد ابن قتيبة»[1] ثم إنه ظهر بعد ذلك من قصر فهمه في الكتاب والسنة فزعم أنها قديمة غير مخلوقة واحتج بأنها من أمر اللَّه، وأمره غير مخلوق، وبأن اللَّه تعالى أضافها إليه كما أضاف إليه علمه وكتابه وقدرته وسمعه وبصره ويده بقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] وتوقف آخرون، واتفق أهل السنة والجماعة على أنها مخلوقة.

ومن الأدلة على أن الروح مخلوقة:

قول اللَّه تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] فهذا اللفظ عام لا تخصيص فيه بوجه ما، ومنها قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان ١] فلو كانت روحه قديمة لكان الإنسان لم يزل شيئا مذكورا فإنه هو إنسان بروحه لا ببدنه فقط وقوله تعالى لزكريا: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩] وهذا الخطاب لروحه وبدنه ليس لبدنه فقط، فإن البدن وحده لا يفهم ولا يخاطب ولا يعقل، وإنما الذي يفهم ويعقل ويخاطب هو الروح.

وأما احتجاجهم بقوله: ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] فمعلوم قطعا أنه ليس المراد ها هنا بالأمر الطلب الذي هو أحد أنواع الكلام فيكون المراد أن الروح كلامه الذي يأمر به، وإنما المراد بالأمر ها هنا المأمور، وهو عرف مستعمل في لغة العرب، وفي القرآن منه كثير كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١] أي مأموره الذي قدره وقضاه.

وأما استدلالهم بإضافتها إليه سبحانه بقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] فينبغي أن يعلم أن المضاف إلى اللَّه سبحانه نوعان:

١- صفات لا تقوم بأنفسها: كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر، فهذه إضافة صفة إلى الموصوف بها فعلمه وكلامه وقدرته وحياته صفات له، وكذلك

---

(١) مجموع فتاوي ابن تيمية (٤/٢١٦).

وجهه ويده سبحانه.

٢- إضافة أعيان منفصلة عنه كالبيت والناقة والعبد والرسول والروح، فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه، لكنها إضافة تقتضي تخصيصا وتشريفا يتميز به المضاف عن غيره[١].

المبحث الثالث: الاحتضار وسكرات الموت وحضور ملائكة الموت:

إذا قضى المرء في هذه الحياة الدنيا ما قدر له من عمر حتى إذا نفدت أيامه ولياليه حضرته ملائكة الموت تقبض روحه قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

وللموت سكرات يلاقيها الإنسان حين الاحتضار قال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩]

وسكرات الموت: جمع سكرة وهي اسم لما يعتري الإنسان من ألم واختلال في المزاج يحد من إدراك العقل، فيختل الإدراك ويعتري العقل غيبوبة، وهو مشتق من السكر وهو الغلق لأنه يغلق العقل، ومنه جاء وصف السكران[٢].

وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ: «أنه كان بين يديه ركوة أو علبة فيها ماء، فجعل يدخل يده في الماء فيمسح بها وجهه ويقول: لا إله إلا الله، إن للموت سكرات»[٣] وإن لملك الموت أعوانا من الملائكة يخرجون الروح من الجسد فيقبضها ملك الموت إذا انتهت إلى الحلقوم، وهذه الملائكة تأتي المؤمن في صورة حسنة جميلة وتأتي الكافر والمنافق في صورة مخيفة كما في حديث البراء ابن عازب أن الرسول ﷺ قال: «إن العبد إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال على

---

(١) انظر كتاب الروح (من ص ١٩٣ إلى ٢١٠) واختصره شارح الطحاوية ص ٥٦٢- ٥٦٤ .

(٢) أيسر التفاسير (١/ ١٤٤).

(٣) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب سكرات الموت (/ ١٥٩٩) (٦٥١٠) من رواية عائشة رضي الله عنها .

الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء، بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط (ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة) من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد بصره، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام، حتى يجيء عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة (وفي رواية المطمئنة) اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من السقاء، وإن العبد الكافر (وفي رواية الفاجر) إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة (غلاظ شداد) سود الوجوه، معهم المسوح (جمع مسح، هو ما يلبس من نسيج الشعر على البدن تقشفا وقهرا للبدن) (من النار) فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال فتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السفود (الكثير الشعب) من الصوف المبلول (فتقطع معها العروق والعصب) »[1].

فملك الموت يبشر العبد المؤمن بالمغفرة ورضوان من الله تعالى ويبشر الكافر أو الفاجر بسخط الله وغضبه، وهذا قد صرحت به نصوص كثيرة من القرآن الكريم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾ [فصلت: ٣٠- ٣٢].

وتنزل الملائكة كما قال مجاهد وغيره «يعني عند الموت» قائلين: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ قال مجاهد وعكرمة وزيد بن أسلم: «أي مما تقدمون عليه من أمر

---

(١) جزء من حديث البراء بن عازب الطويل، وقد جمع الشيخ ناصر الدين الألباني جميع روايات هذا الحديث وساقه سياقا واحدا ضاما إليه جميع الزوائد والفوائد التي وردت في جميع طرقه الثابته في كتابه (أحكام الجنائز) ص ٢٠٢ وقال: أخرجه أبو داود (٢/ ٢٨١) والحاكم (١/ ٣٧- ٤٠) والطيالسي (٤/ ٢٨٧- ٢٨٨- ٢٩٥- ٢٩٦) والسياق له، والآجري في الشريعة (٣٦٧- ٣٧٠).

الآخرة ولا تحزنوا على ما خلفتموه من أمر الدنيا»[1].

ولا شك أن الإنسان في هذا الموقف الرهيب، موقف الاحتضار وقد بدأت تتكشف أمامه بعض معالم الآخرة وأصبح الغيب فيها حاضرا ومشاهدا فها هو يرى الملائكة أمامه روحه تنزع من بين جنبيه فتأتي الملائكة المؤمن لتطمئنه وتؤمنه مما يخاف ويحزن فتقول له: لا تخف مما أنت مقدم عليه من البرزخ والآخرة، ولا تحزن على ما خلفت من أهل وولد وتبشره بالجنة: ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فإنها قد وجبت لكم وثبتت وكان وعد اللّه مفعولا.

ويقولون لهم أيضا مثبتين لهم ومبشرين: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ يحثونهم في الدنيا على الخير ويزينونه لهم ويرهبونهم عن الشر ويقبحونه في قلوبهم ويدعون اللّه لهم، ويثبتونهم عند المصائب والمخاوف خصوصا عند الموت وشدته والقبر وظلمته وفي القيامة وأهوالها وعلى الصراط[2].

وما دام العبد قد تولى اللّه وحده فإن اللّه يتولاه دائما وخاصة في المواقف الصعبة ومن أشدها هذا الموقف وانظر أخي إلى عطف اللّه على وليه المؤمن ولطفه به وشفقته عليه قبيل قبض روحه من تردد اللّه الرحيم الودود: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن اللّه تعالى قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي عليها، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذ بي لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته»[3].

---

(١) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٤- ١٠٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص ٧٤٨).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق باب التواضع (ص١٥٩٧) (٦٥٠٢).

ولا تعني كراهة العبد للموت أن المؤمن يكره لقاء اللّه بل يحب لقاءه ويفرح به، عن أنس بن مالك عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «من أحب لقاء اللّه أحب اللّه لقاءه ومن كره لقاء اللّه كره اللّه لقاءه قالت عائشة أو بعض أزواجه إنا لنكره الموت، قال ليس كذلك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان اللّه وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء اللّه وأحب اللّه لقاءه وإن الكافر إذا حضره الموت بشر بعذاب اللّه وعقوبته فليس شيء أكره إليه مما أمامه فكره لقاء اللّه وكره اللّه لقاءه»(١) وفي رواية مسلم عن شريح بن هانئ لما سمع الحديث السابق من أبي هريرة قال: «فأتيت عائشة، فقلت: يا أم المؤمنين! سمعت أبا هريرة يذكر عن رسول الله ﷺ حديثا إن كان كذلك فقد هلكنا، فقالت: إن الهالك من هلك بقول رسول اللّه ﷺ وما ذاك؟ قال: قال رسول اللّه ﷺ: من أحب لقاء اللّه أحب اللّه لقاءه، ومن كره لقاء اللّه كره اللّه لقاءه، وليس منا أحد إلا وهو يكره الموت، فقالت: قد قاله رسول اللّه ﷺ وليس بالذي تذهب إليه، ولكن إذا شخص البصر، وحشرج الصدر، واقشعر الجلد، وتشجنت الأصابع، فعند ذلك، من أحب لقاء اللّه أحب اللّه لقاءه ومن كره لقاء اللّه كره اللّه لقاءه»(٢) قال النووي: «معنى الحديث أن المحبة والكراهة التي تعتبر شرعا هي التي تقع عند النزع في الحالة التي لا تقبل فيها التوبة حيث ينكشف الحال للمحتضر ويظهر ما هو صائر إليه وفي الحديث أن المحتضر إذا ظهرت عليه علامات السرور كان ذلك دليلًا على أنه بشر بالخير وكذا بالعكس»(٣). وينبغي لنا أن نستعد ونحن في حالة الصحة والعافية للقاء اللّه تعالى حتى إذا حضرنا الموت لا نكرهه. ولكراهية الموت في حالة الصحة تفصيل:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق باب من أحب لقاء اللّه أحب اللّه لقاءه (ص١٥٩٨) (٦٥٠٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الذكر والدعاء- باب من أحب لقاء اللّه برقم (٢٦٨٥).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتاب الرقاق- باب من أحب لقاء اللّه أحب اللّه لقاءه (١١/ ٤٣٧).

فمن كرهه إيثاراً للحياة على ما بعد الموت من نعيم الآخرة كان مذموما ومن كرهه خشية أن يفضي إلى المؤاخذة كأن يكون مقصرا في العمل لم يستعد له بالأهبة بأن يتخلص من التبعات ويقوم بأمر الله كما يجب فهو معذور لكن ينبغي لمن وجد ذلك أن يبادر إلى أخذ الأهبة حتى إذا حضره الموت لا يكرهه بل يحبه لما يرجو بعده من لقاء اللّه تعالى[١]. وهذا أدعى إلى أن يحسن العبد الظن بربه عند موته عن جابر رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن باللّه عز وجل»[٢].

أما الكفرة الفجرة فالملائكة تتنزل عليهم بنقيض ذلك وقد وصف لنا القرآن الكريم الشدة التي يعاني منها الكفرة قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [النساء: ٩٧].

فإن الملائكة تقرع هؤلاء في حال الاحتضار وتوبخهم وتبشرهم بالنار.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣] وهذا الذي وصفته الآيات يحدث كما يقول، ابن كثير: إذا بشر ملائكة العذاب الكافر بالعذاب والنكال والأغلال والسلاسل والجحيم، فتتفرق روحه في جسده وتعصي وتأبى الخروج فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٩٣] وقد فسر ابن كثير بسط اليد بالضرب[٣]. وقد أخبر اللّه تعالى بالأحوال الثلاثة التي يكون عليها

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب الرقاق باب ٤١ (١١/٤٣٨).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٨١، ٢٨٧٧).

(٣) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (١/١٤١).

الناس عند احتضارهم قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٨٢- ٩٦] فأما إن كان المحتضر ﴿مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات وبعض المباحات ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ تبشرهم الملائكة بالروح والريحان أي الرحمه والرزق والفرح والسرور والجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ المحتضر من أصحاب اليمين، وهم الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات وإن حصل منهم التقصير في بعض الحقوق التي لا تخل بتوحيدهم وإيمانهم يقال لأحدهم ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي أخوانك من أصحاب اليمين يسلمون عليك ويحيونك أو يقال: سلام لك من الآفات والبليات والعذاب، وأما إن كان (المحتضر) من ﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ عن الهدى ﴿فَنُزُلٌ﴾ أي فضيافته من ﴿حَمِيمٍ﴾ وهو المذاب يصهر به ما في بطونهم والجلود ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ أي وتقرير له في النار التي تغمره من جميع جهاته(١) ويخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين أو المفرطين في أمر اللَّه وقيله وندمه في تلك الحال إذا رأى مآله وشاهد قبيح أعماله وسؤاله الرجعة إلى الدنيا ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته لا للتمتع بلذاتها واقتطاف شهواتها، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا

---

(١) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٤/ ٣٠٠) تيسير الكريم الرحمن ص ٨٣٦ باختصار وتصرف.

(٢) نفس المرجع السابق (٣/ ٢٤٩) تيسير الكريم الرحمن ص ٥٥٩ بتصرف يسير.

﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩- ١٠٠][1] ولكن اللّه تعالى لا يجيبه إلى ما طلب ولا يقبل منه.

كان العلاء بن زياد يقول: «لينزلن أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت فاستقال ربه فأقاله، فليعمل بطاعة اللّه تعالى، وقال قتادة: «واللّه ما تمنى إلا أن يرجع فيعمل بطاعة اللّه، فانظروا أمنية الكافر المفرط فاعملوا بها ولا قوة إلا باللّه».

وفي قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ كما قال تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُۖ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي يستمر به العذاب إلى يوم البعث[2].

فالإيمان لا يقبل إذا حضر الموت وكذلك التوبة لا تقبل إذا غرغر العبد ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٧- ١٨].

---

(١) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٣/ ٢٤٩).

المبحث الرابع
تكريم روح المؤمن بعد نزعها أما روح الكافر فبنقيض ذلك

ففي حديث البراء بن عازب عن رسول اللّه ﷺ قال: «حتى إذا خرجت روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماء وفتحت له أبواب السماء ليس من أهل باب إلا وهم يدعون اللّه ان يعرج بروحه من قبلهم، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، فذلك قوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١] ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، قال: فيصعدون بها فلا يمرون-يعني- بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان -بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا. حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح لهم فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي به إلى السماء السابعة، فيقول اللّه عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، ثم يقال: أعيدوه إلى الأرض فإني [وعدتهم أني] منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى...»(١).

وذكر رسول اللّه ﷺ ما يحصل لروح العبد الكافر بعد نزعها فقال: «فيلعنه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماء وتغلق أبواب السماء ليس من أهل باب إلا وهم يدعون اللّه ألا تعرج روحه من قبلهم فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منا كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من

(١) حديث صحيح سبق تخريجه.

الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟: فيقولون فلان ابن فلان بأقبح اسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا، فيستفتح له فلا يفتح له، ثم قرأ رسول اللّه ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ فيقول اللّه عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى» ثم يقال: (أعيدوا عبدي إلى الأرض فإني وعدتهم أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى) فتطرح روحه (من السماء إلى الأرض طرحا) [حتى تقع في جسده].

ثم قرأ: « ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ فتعاد روحه إلى جسده...»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن إذا قبض أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون: «اخرجي إلى روح اللّه، فتخرج كأطيب ريح المسك حتى إنه ليناوله بعضهم بعضا فيشمونه حتى يأتون به باب السماء، فيقولون: ما هذه الريح الطيبة التي جاء ت من الأرض؟ ولا يأتون أهل سماء إلا قالوا مثل ذلك حتى يأتون به أرواح المؤمنين، فلهم أشد فرحا من أهل الغائب بغائبهم، فيقولون: ما فعل فلان؟ فيقولون:

دعوه حتى يستريح فإنه كان في غم الدنيا، فيقول: قد مات، أما أتاكم؟ فيقولون: ذهب به إلى أمه الهاوية. وأما الكافر فتأتيه ملائكة العذاب بمسح. فيقولون: اخرجي إلى غضب اللّه، فتخرج كأنتن ريح جيفة فيذهب به إلى باب الأرض»(٢) وقد أخبرنا النبي ﷺ بأن روح العبد الصالح تطالب حامليه بالإسراع به إلى القبر شوقا منه إلى النعيم، بينما العبد الطالح ينادي بالويل من المصير الذاهب

---

(١) حديث صحيح سبق تخريجه.

(٢) أخرجه النسائي (٤/٨-٩) وابن حبان (٧/ ٣٠١٤) والحاكم (١/ ٣٥٣) وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣/ ٣٥٥٩).

إليه، ففي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وضعت الجنازة فاحتملها الرجال على أعناقهم فإن كانت صالحة قالت: قدموني، وإن كانت غير صالحة قالت لأهلها يا ويلها أين تذهبون بها، يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان ولو سمعه صعق»[1].

* * *

(١) أخرجه البخاري في صحيحه- كتاب الجنائز- باب: حمل الرجال الجنازة دون النساء (ص ٣٧١ (١٣١٦).

الفصل الثاني
ماذا أعددت للموت؟!
المبحث الأول
خطر الساعة الأخيرة

١- الموت أجل من أن يوصف:

ساعة الاحتضار ساعة رهيبة، إنها ساعة مواجهة الموت وتجرع غصصه وكرباته، ومعالجة سكراته، إنها الساعة التي عانى فيها الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام شدة السكرات حتى قالت ابنته فاطمة رضي الله عنها: «واكرب أبتاه!!».

تقول عائشة رضي الله عنها: «إن رسول اللّه ﷺ كان بين يديه ركوة أو علبة فيها ماء فجعل يدخل يده في الماء فيمسح بها وجهه ويقول: «لا إله إلا اللّه: إن للموت سكرات»[١] وبعد ما عاينت عائشة شدة السكرات على رسول اللّه ﷺ قالت: «مات رسول اللّه ﷺ وهو بين حاقنتي وذاقنتي»[٢] فلا أكره شدة الموت لأحد أبدا بعد ما رأيت رسول اللّه ﷺ»[٣] قال الذهبي في السير: عن عوانة بن الحكم قال: قال عمرو بن العاص: «عجبا لمن نزل به الموت وعقله معه كيف لا يصفه؟ فلما نزل به الموت ذكره ابنه بقوله، وقال: صفه، قال: يابني الموت أجل من أن يوصف ولكني سأصف لك، أجدني كأن جبال رضوى على عنقي أو كأن في جوفي الشوك وأجدني كأن نفسي يخرج من إبره»[٤].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق باب سكرات الموت (ص ١٥٩٩).

(٢) الحاقنة ما بين الترقوتين والحلق، والذاقنة ما يلامس الصدر من الذقن «صحيح سنن النسائي: (٢/ ٣٩٤)».

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المغازي- باب: مرض الرسول ﷺ ووفاته (ص١١٠٣).

(٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ٧٥).

والموت اسم لا يكشف اسمه مسماه بل مسماه فوق لفظه ونحن لم نذقه بعد فلا نعرف ألمه وشدته إلا حين يقع!! قال القرطبي: «أجمعت الأمة على أن الموت ليس له سن معلوم، ولا زمن معلوم، ولا مرض معلوم، وذلك ليكون المرء على أهبة من ذلك، مستعدا لذلك»[(١)].

٢- انتظار البشرى إما بالجنة وإما بالنار:

ومما يزيد في خطر تلك الساعة ما ينكشف للمحتضر من بعضُ أمور الآخرة، وما ينتظره من بشرى بالمغفرة والرضوان أو العذاب والغضب والنكال، قيل إن إبراهيم النخعي لما احتضر جزع جزعاً شديداً فقيل له في ذلك فقال: «وأي خطر أعظم مما أنا فيه؟! أتوقع رسولا يرد علي من ربي إما بالجنة وإما بالنار والله لوددت أنها تلجلج في حلقي إلى يوم القيامة»[(٢)] دخل المزني على الشافعي في علته التي مات فيها فقال: «كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت من الدنيا راحلا ولإخواني مفارقا ولكأس المنية شاربا ولسوء أعمالي ملاقيا وعلى الله تعالى واردا فلا أدري روحي تصير إلى الجنة فأهنيها أو إلى النار فأعزيها؟ ثم بكى وانشأ يقول:

ولما قسى قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلت الرجا مني لعفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما
وما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل ... تجود وتعفو منة وتكرما[(٣)].

---

(١) التذكرة (١/ ٢٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٢٨).

(٣) صفة الصفوة (٢/ ١٧١).

المبحث الثاني
سوء الخاتمة

اعلم أن لسوء الخاتمة- أعاذنا اللّه منها- أسبابا ولها طرق وأبواب:

١- أعمها الانكباب على الدنيا، والإعراض عن الآخرة والإقدام والجرأة على معاصي اللّه عز وجل والإصرار عليها وعدم التوبة النصوح منها، فيتعلق القلب بها ويألفها، وما يألفه المرء في حياته يحضره ذكره عند احتضاره وربما غلبت الشهوة والمعصية على قلبه حين نزول الموت به فاستغرقت قلبه وصارت حجابا بينه وبين اللّه تعالى، وسببا لشقاوته فربما تعذر عليه النطق بالشهادة كما شاهد الناس من المحتضرين مَنْ أصابهم ذلك، حتى قيل لبعضهم: قل: «لا إله إلا اللّه» قال: آه آه، لا أستطيع أقولها، وقيل لآخر: قل: «لا إله إلا اللّه» فقال: يا رب قائله يوما وقد تعبت كيف الطريق إلى حمام منجاب؟ (وكان قلبه قد علق بحبها) ثم قضي، وقيل لآخر: قل لا إله إلا اللّه، فجعل يهذي بالغناء، حتى قضى وقيل لآخر ذلك فقال: ما ينفعني ذلك ولم أدع معصية إلا ركبتها، ثم قضى ولم يقلها وقيل لآخر ذلك فقال وما يغني عني وما أعرف أني صليت للّه صلاة؟ ولم يقلها، وقيل لآخر ذلك فقال كلما أردت أن أقولها ولساني يمسك عنها، واحتضر بعض الشحاذين فجعل يقول عند موته: للّه فلس، فلس للّه، حتى قضى، واحتضر أحد التجار وجعلوا يلقنونه «لا إله إلا اللّه» وهو يقول: هذه القطعة رخيصة، هذا مشتري جيد، هذه كذا، حتى قضى(١) قال عبد العزيز بن أبي دواد: «حضرت رجلا عند الموت يلقن لا إله إلا اللّه، فقال في آخر ما قال: «هو كافر بما تقول، ومات على ذلك، قال: فسألت عنه فإذا هو مدمن خمر،

---

(١) الجواب الكافي ص (١٠٢) بتصرف سير.

فكان عبد العزيز يقول: اتقوا الذنوب فإنها هي التي أوقعته[1] قال الذهبي في الكبائر: قال مجاهد: «ما من ميت يموت إلا مثل له جلساؤه الذين كان يجالسهم فاحتضر رجل ممن كان يلعب بالشطرنج فقيل له قل: لا إله إلا اللّه فقال: شاهك ثم مات، فغلب على لسانه ما كان يعتاده حال حياته في اللعب، فقال عوض كلمة الإخلاص شاهك وهذا كما جاء في إنسان آخر ممن كان يجالس شراب الخمر أنه حين حضره الموت فجاءه إنسان يلقنه الشهادة فقاله له: اشرب واسقني ثم مات فلا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم[2].

قال ابن القيم: «سبحان اللّه؟ كم شاهد الناس من هذاعبرا؟ والذي يخفى عليهم من أحوال المحتضرين أعظم وأعظم، فإذا كان العبد في حال حضور ذهنه وقوته وكمال إدراكه قد تمكن منه الشيطان، واستعمله فيما يريده من معاصي اللّه، فكيف الظن به في حاله الاحتضار عند سقوط قواه، واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم النزع؟ وقد جمع الشيطان له كل قوته وهمته لينال منه فرصته، فإن ذلك آخر العمل!! فأقوى ما يكون عليه شيطانه في ذلك الوقت وأضعف ما يكون هو في تلك الحال، فمن ترى يسلم على ذلك؟! فهناك ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧] فكيف يوفق بحسن الخاتمة من غفل قلبه وغفل لسانه عن ذكر اللّه تعالى واتبع هواه وكان أسير شهواته؟![3] عندما حضرت الإمام أحمد الوفاة جعل يعرق ثم يفيق ثم يفتح عينيه ويقول بيده هكذا: لا بعد، لا بعد، ففعل هذا مرة وثانية فلما كان في الثالثة قال له ابنه: يا أبتي، أي شيء هذا قد لهجت به في هذا الوقت؟ تعرق حتى تقول قد قضيت ثم تعود فتقول: لا بعد، لا بعد، فقال: يا بني، ما تدري ما قلت: قال: لا، فقال: إبليس لعنه اللّه قائم حذائي

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ١٧٣).

(٢) الكبائر (ص٩١).

(٣) الجواب الكافي ص ١٠٢ باختصار وتصرف سير.

عاض على أنامله يقول لي: يا أحمد فتني، فأقول: لا بعد لا بعد حتى أموت[1] أراد أن يظفر من الإمام أحمد بإلقاء العجب في قلبه في اللحظات الأخيرة حتى يهلكه، ولكن اللّه تعالى ثبته ولم يظفر منه عدو اللّه بشيء.

٢- دسائس السوء الخفية توجب سوء الخاتمة:

روى البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد أن رجلا من أعظم المسلمين غناء عن المسلمين في غزوة غزاها مع النبي ﷺ، فنظر النبي صلى اللّه إليه وسلم فقال: «من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذان، فاتبعه رجل من القوم وهو على تلك الحال من أشد الناس على المشركين حتى جرح فاستعجل الموت، فجعل ذبابة سيفه بين ثدييه حتى خرج من بين كتفيه، فأقبل الرجل إلى النبي ﷺ مسرعا فقال: أشهد أنك رسول اللّه فقال: وما ذاك؟ قال: قلت لفلان: من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إليه، وكان من أعظمنا غناء عن المسلمين فعرفت أنه لا يموت على ذلك، فلما جرح استعجل الموت فقتل نفسه، فقال النبي ﷺ عند ذلك: إن العبد ليعمل عمل أهل النار وإنه من أهل الجنة، ويعمل عمل أهل الجنة وإنه من أهل النار، وإنما الأعمال بالخواتيم»[2] وفي رواية عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال رسول اللّه ﷺ: «وإن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة»[3] قال ابن رجب: «وقوله (فيما يبدو للناس) إشارة إلى أن باطن الأمر يكون بخلاف ذلك وأن خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنه لا يطلع عليها الناس، أما من جهة عمل سيء ونحو ذلك، فتلك الخصلة الخفية توجب سوء الخاتمة عند الموت»[4].

---

(١) صفة الصفوة (٢/ ٢٣٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب القدر- باب العمل بالخواتيم (ص١٦١٧) (٦٦٠٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الجهاد والسير وباب لا يقال فلان شهيد (ص٧٤٨) (٢٨٩٨).

(٤) جامع العلوم والحكم (١/ ١٧٣).

قال ابن القيم: «إن هذا عمل أهل الجنة فيما يظهر للناس، ولو كان عملا صالحا مقبولا للجنة قد أحبه الله ورضيه لم يبطله عليه، بل كان في عمله آفة كامنة خذل بها في آخر عمره فخانته تلك الآفة والداهية الباطنة في وقت الحاجة فرجع إلى موجبها وعملت عملها، ولو لم يكن هناك غش وآفة لم يقلب الله إيمانه، والله يعلم من سرائر العباد ما لا يعلم بعضهم من بعض»(١) قال ابن رجب: «ومن هنا كان الصحابة ومن بعدهم من السلف يخافون على أنفسهم من النفاق ويشتد قلقهم وجزعهم منه، فالمؤمن يخاف على نفسه النفاق الأصغر ويخاف أن يغلب ذلك عليه عند الخاتمة، فيخرجه إلى النفاق الأكبر كما تقدم أن دسائس السوء الخفية توجب سوء الخاتمة»(٢) وهذا من أعظم الفقه أنهم يخافون أن يخذلهم الله بذنوبهم وخطاياهم فيصيرون إلى الشقاء. فإن الله يعلم من ذنوبهم وعيوبهم ما لا يعلمونه من أنفسهم، فمن هذا خاف السلف من الذنوب أن تكون حجابا بينهم وبين الخاتمة الحسنة قال ابن الجوزي: «لقد سمعت بعض من كنت أظن فيه كثرة الخير وهو يقول في ليالي موته: «ربي هو ذا يظلمني»(٣).

فانتبه أخي لذنوب غفلت عنها قد تكون كسلا عن أداء بعض العبادات، وقد تكون بغضا لعباد الله الصالحين من الدعاة والمصلحين وقد تكون حقدا وحسدا للمسلمين وقد تكون غير ذلك لم تفطن لها، ولكنها آفة تفتك بك وتشقى بسببها على أبواب البرزخ!!

---

(١) الفوائد ص ٢١٣ باختصار.

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ١٧٤).

(٣) صيد الخاطر ص ١٩١ .

المبحث الثالث
الإكثار من ذكر الموت

لما كان حب الدنيا والانكباب عليها يزين للعبد مواقعة الذنوب والمعاصي ويغفل قلبه عن الآخرة كان الإكثار من ذكر الموت هو أعظم علاج لتنقيص تلك اللذات والانقطاع عن الركون إلى الدنيا الفانية والإقبال على الله تعالى وبذلك أوصى الرسول ﷺ أمته فقال: «أكثروا من ذكر هادم اللذات»(١) وما أعظمها من وصية لمن فقهها وعمل بها لذلك ترى المنهمك في الدنيا المنشغل بشهواته ولذاته يكره تذكر الموت لأنه سبب مفارقة الدنيا ولأن فيه خراب ذاته وانقطاع لذاته، وإذا خطر له الموت على بال صرفه بالتسويف وطول الأمل، وإذا سمع من يذكره بالموت أعرض عنه وكره مجالسته واتهمه بالتشاؤم وتنقيص حياة الآخرين فهو كما قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: ٩٦] لأن ذكر الموت يكدر عليه حياته ويعكر صفو نعيمه وهنائه.

ثم إن من الناس من لا يكره ذكر الموت بل إذا عرض له موقف أو سمع موعظة تذكره به تذكر وتأثر ورأى حقارة الدنيا وتجافي قلبه عنها واجتهد في الطاعة والعبادة، ويكون هذا حاله برهة من الزمن ثم ينسى ويعود لما كان عليه من الغفلة والانشغال بأمور دنياه ومثل هذا على خطر عظيم فقد يفجؤه ملك الموت وهو في غفلته عن الاستعداد للقائه فذكر الموت بقلة لا يكاد ينفع العبد ولا يخرجه عن غفلته، وإن الذي ينفع هو الإكثار من ذكر الموت لأنه يدفع العبد إلى

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٢- ٢٩٣) والنسائي (٤/ ٤) والترمذي (٢٣٠٧) وابن ماجه (٤٢٥٨) وابن حبان (٧/ ٢٩٩٢) والقضاعي (٦٦٩) والبغدادي (٩/ ٤٧٠) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٢١٠).

الاستعداد لما بعده وهذه صفة الأكياس الأذكياء النبهاء، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنت مع رسول الله ﷺ فجاءه رجل من الأنصار، فسلم على النبي ﷺ ثم قال: يا رسول الله أي المؤمنين أفضل؟ قال: «أحسنهم خلقا» قال: فأي المؤمنين أكيس؟ قال: «أكثرهم ذكرا للموت وأحسنهم لما بعده استعدادا أولئك الأكياس»[1] ولقد عمل السلف بوصية رسول الله ﷺ وأكثروا من ذكر هادم اللذات... الموت، فكان لهم أعظم واعظ، نقش عمر بن الخطاب رضي الله عنه خاتمة «كفى بالموت واعظا»[2] وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ويبكون[3]، كل ليلة!! ليس يوما في الأسبوع أو الشهر!! ويتفكر في حال الميت... خطب يوما فقال: «والله إن عبدا ليس بينه وبين آدم أب إلا قد مات لمعرق له في الموت»[4] ويتخيل الميت في قبره ويتفكر في حاله وقد ثبتت العينان على الوجنتين، وخرج الصديد والدود من منخره، وتمزقت أوصاله، وتفرقت أعضاؤه[5]، وكذلك كان سفيان الثوري: قال قبيصة: «ما جلست مع سفيان مجلسا إلا ذكر الموت ما رأيت أحدا كان أكثر ذكرا للموت منه»[6] وليس هذا تكلفا منه بل أمر قد امتلأ قلبه به لشدة فكره فيه فجرى على لسانه، قال يوسف بن أسباط: «قال لي سفيان بعد العشاء: ناولني المطهرة أتوضأ فناولته فأخذها بيمينه ووضع يساره على خده، فبقي مفكرا، ونمت ثم قمت وقت الفجر، فإذا المطهرة في يده كما هي، فقلت: هذا الفجر قد طلع! فقال: لم أزل منذ ناولتني المطهرة أتفكر في الآخرة حتى الساعة»[7] كان الإمام أحمد لا يذكر

---

(١) صحيح سنن ابن ماجه باب ذكر الموت والاستعداد له (٢/ ٤١٩) (٣٤٣٥- ٤٢٥٩).

(٢) تاريخ الخلافة الراشدة ص ١١٠ .

(٣) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٣٨).

(٤) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٢٨).

(٥) أهوال القبور (٢٤٠- ٢٤١) باختصار وتصرف.

(٦) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٤٠).

(٧) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٤٠).

الدنيا في مجالسه لغلبة الآخرة على قلبه كما قال عنه أبو داود السجستاني: «كانت مجالسة الإمام أحمد مجالسة الآخرة، لا يذكر فيها شيء من أمر الدنيا ويقول: ما رأيت أحمد بن حنبل ذكر الدنيا قط»[(١)].

أخي الحبيب....

إن من أكثر ذكر الموت بقلب حي حاضر لا يغلب عليه حب الدنيا وشهواتها لابد أن يرى لذلك أثرا عظيما على قلبه وجوارحه وإلا فهناك من يذكر الموت وقد حجب قلبه بالشهوات وحب الدنيا فعمي عن الاتعاظ بالموت، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] فقلوبهم لا تعتبر لأن بصائرهم قد عميت والعياذ بالله، وكما أنشد البعض:

أذكر الموت ولا أرهبه إن قلبي لغليظ كالحجر

أطلب الدنيا كأني خالد ووراثي الموت يقفو الأثر

وكفى بالموت فاعلم واعظا لمن الموت عليه قد قدر

والمنايا حوله ترصده ليس ينجي المرء منهن المفر[(٢)]

نسمع في زماننا عمن يحملون الجنازة على أكتافهم وينزلونها في القبر وهم ينظرون للميت بأعينهم وتطيب قلوبهم بالحديث في أمور الدنيا، وربما عقد بعضهم صفقات تجارية وتهنأ نفوسهم بالمشروبات الغازية الباردة، ويعودون ولا كأنهم دفنوا ميتا ولا قبروا!! ونسمع عن شرطي يقف أمام الميت في حادث انقلاب سيارة ويرى رأسه قد فصلت عن جسده ويستمر في تعاطي سيجارته ولا يعتبر!! إن القلوب إذا ماتت بالشهوات وحب الدنيا لم يعد فيها متسع لغيرها إلا

---

(١) صفوة الصفوة (٢/ ٢٢٤).

(٢) التذكرة ص ١٩ .

أن يتدارك اللّه العبد بلطفه ورحمته وكرمه، فإذا أردت أخي أن تتعظ بذكر الموت، فاستعن باللّه تعالى وتضرع إليه ألا يجعل الدنيا أكبر همك ولا مبلغ علمك، ومتى سكنت نفسك إلى شيء من الدنيا فأَزعجها عنه بالتفكر في المآل وأنه لا بد لك من مفارقتك له وأكثر من ذكر الموت محتسبا العمل بوصية المصطفى عليه الصلاة والسلام وتفكر في حقارة الدنيا وخداعها وغرورها وأنك ضيف مرتحل عنها وكن فيها كما قال رسول اللّه ﷺ: «مالي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»[1] وجاهد نفسك على أن يكون حالك فيها كما قال رسول اللّه ﷺ: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»[2] فينبغي أن يكون حالك فيها أحد حالين:

أحدهما: أن تكون كأنك غريب مقيم في بلد غربة قلبك غير متعلق بها، همك التزود للرجوع إلى وطنك، لا تنافس أهل البلد الذي أنت غريب بينهم في عزهم، ولا تجزع من الذل عندهم قال الحسن: المؤمن في الدنيا كالغريب لا يجزع من ذلها، ولا ينافس في عزها.

الحال الثاني:

أن تكون في الدنيا كعابر السبيل أو قاصدا لبلد شاسع وبينك وبينها أودية مرديه ومفاوز مهلكة وقطاع طريق فإن من هذا شأنه أن لا يقيم لحظة ولا يسكن لمحة فهمته تحصيل الزاد للسفر وليس همه الاستكثار من متاع الدنيا وهذا غربته أشد لأن الغريب قد يسكن في بلد الغربة[3].

---

(١) صحيح سنن الترمذي أبواب الزهد (٢/ ٢٨٠) (١٩٣٦- ٢٤٩٦) من رواية عبد اللّه وقال الألباني: صحيح.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق- باب ما جاء في الرقاق وأن العيش عيش الآخرة (ص١٥٨٠) (٦٤١٦).

(٣) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٧٨- ٣٨٢) باختصار وتصرف- فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب الرقاق (١١/ ٢٨١- ٣٨١) باختصار وتصرف.

ولا يخفى عليك حقيقة هذين الحالين، وانظر نفسك كيف يكون عيشك فيهما!!

وهذا حال الزهد في الدنيا ويعين على ذلك قصر الأمل «لأن من قصر أمله زهد»[١].

وهذه ثمار يجنيها من عمل بوصية رسول اللَّه ﷺ فأكثر من ذكر هادم اللذات وللإكثار من ذكر الموت آثار طيبة سنذكرها في المبحث التالي بإذن اللَّه تعالى.

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب الرقاق (١١/ ٢٨٥).

المبحث الرابع
آثار الإكثار من ذكر الموت

١- **قصر الأمل**: كان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك» وصية ابن عمر متضمنه نهاية قصر الأمل، إذا أمسى لا ينتظر الصباح وإذا أصبح لا ينتظر المساء بل يظن أن أجله يدركه قبل ذلك. سئل عطوان بن عمر التميمي: ما قصر الأمل؟ قال: ما بين تردد النفس، فحدث بذلك الفضيل بن عياض فبكى وقال: «يقول يتنفس فيخاف أن يموت قبل أن ينقطع نفسه» «لقد كان عطوان من الموت على حذر»[(١)].

أخي،،، ترى كم تؤمل أن تعيش في هذه الدنيا؟!

يقول داوود الطائي: «لو أملت أن أعيش شهرا، لرأيتني قد أتيت عظيما! وكيف أؤمل ذلك وأرى الفجائع تغشى الخلق في ساعات الليل والنهار»[(٢)] وكان حبيب أبو محمد يقول لزوجته إن مت اليوم فأرسلي إلى فلان يغسلني وافعلي كذا واصنعي كذا فقيل لامرأته: أرأى رؤيا؟ قالت: هذا يقوله كل يوم[(٣)].

وذكر هشام بن يحيى الغساني عن أبيه أنه قال: ما نمت يوما قط فحدثت نفسي أني استيقظ منه![(٤)] وكان محمد بن واسع إذا أراد أن ينام قال لأهله: «أستودعكم الله فلعلها أن تكون منيتي التي لا أقوم منها، فكان هذا دأبه إذا أراد النوم»[(٥)].

---

(١) جامع العلوم والحكم (٣/ ٣٨٤- ٣٨٥).
(٢) قصر الأمل ص ٤٧ .
(٣) صفة الصفوة (٣/ ٢١٦).
(٤) قصر الأمل ص ٤٥ .
(٥) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٨٥).

أخي،،، إلى متى نقول غدا، أفعل كذا، وبعد غد أَفعل كذا، وإذا أفطرت فعلت كذا، وإذا قدمت من سفري فعلت كذا؟

أغفلت سفرك البعيد ونسيت ملك الموت؟ أما علمت أن دون غد ليلة تخترم فيها أنفس كثيرة؟[1].

أيها المغتر بطول صحته أما رأيت ميتا قط من غير سقم؟!

أيها المغتر بطول المهلة أما رايت مأخوذا قط من غير عدة؟

أبالصحة تغترون؟ أم بطول العافية تمرحون؟ أم للموت تأمنون؟ أم على ملك الموت تجترئون؟!

إن ملك الموت إذا جاء لم يمنعه منك ثروة مالك، ولا كثرة احتشادك أما علمت أن ساعة الموت ذات كرب وغصص وندامة على التفريط[2].

أخي الحبيب إذا كنت تأمل أن تعيش لغد فما أَنزلت الموت حق منزلته!

قال عون بن عبد الله بن عتبة: «ما أنزل الموت كنه منزلته من عد غدا من أجله! كم من مستقبل يوما له يستكمله! كم من مؤمل لغد لا يدركه! إنكم لو رأيتم الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره![3] طالت آمالنا، فجددنا منازلنا من الدنيا وطيبنا منها معايشنا، وتلذذنا فيها بطيب الطعام ولين اللباس كأننا للدنيا خلقنا»[4] في حين مر الرسول ﷺ على عبد الله بن عمرو وهم يعالجون خصًا لهم وليس قصرا من رخام ولا بيتا من طوب ولبن فقال: «ما هذا؟ فقالوا: قد وهى فنحن

---

(١) من كلام يزيد الرقاشي ذكره ابن أبي الدنيا في كتاب قصر الأمل ص ٧٢ .

(٢) ذكره ابن أبي الدنيا عن عبيد الله بن شميط عن أبيه في كتابه قصر الأمل ص ٦١ .

(٣) قصر الأمل ص ٥٦ .

(٤) ذكره ابن أبي الدنيا عن عبيد الله بن شميط عن أبيه في كتاب قصر الأمل ص ٥٨ بتصرف.

نصلحه فقال: «ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك»[1] أخي الحبيب لا تظنن قصر الأمل فيه شقاء للعبد بل فيه راحة ونعيم لأن قصير الأمل لا تزعجه هموم الدنيا ولأوائها لأنه يعلم قرب رحيله عنها.

قال عبد اللّه بن زبيد الأيامي: التقى رجلان من الحكماء فتذاكرا الموت فقال أحدهما: ما أكدر عيش من قصر أمله! فقال الآخر: لا أقول ما قلت، قال: فماذا تقول؟ قال: أقول: ما أصفى عيش من كان كذلك!

قال: أي أخي! وكيف ذلك؟

قال: قد استراح في عاجل الأمر إلا مما يقوم به رمق النفس![2] فاليسير من الدنيا يرضيه، كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض إخوانه: «أما بعد فإنه من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير»[3] وكتب يوما إلى رجل: «إنك إن استشعرت ذكر الموت في ليلك ونهارك بغض إليك كل فان وحبب إليك كل باق والسلام»[4] ومن رضي من الدنيا باليسير أصبح غني النفس وهذا يكون قانعا بما رزقه اللّه كأنه واجد أبد، معرض عن الحرص والطلب لغير حاجه، فهو في راحة وغيره يتقلب على الفراش قد حرم النوم وهو يعد فلوسه ويفكر كيف ينميها وماذا يفعل فيها... واللّه المستعان.

وهو في راحة من حسد الآخرين على ما آتاهم اللّه من فضله، قال أبو الدرداء ﷺ: «إن من أكثر ذكر الموت قل حسده وبغيه»[5] وكان الفضيل بن

---

(١) صحيح سنن الترمذي- أبواب الزهد- باب ما جاء في قصر الأمل (٢/ ٢٧٢) (١٩٠٤- ٢٤٥٢) من رواية عبد اللّه بن عمرو رضي الله عنهما، قال الألباني صحيح.

(٢) قصر الأمل ٧٤ .

(٣) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٣٣).

(٤) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٣٨).

(٥) سير أعلام النبلاء (٤/ ٨٤).

عياض ممن يكثرون ذكر الموت فانظر ماذا قال: «إن من الشقاء طول الأمل، وإن من النعيم قصر الأمل»[1].

٢- الزهد في الدنيا:

إن ذكر الموت والإكثار منه يورث العبد قصر الأمل ومن ثم يزعج قلبه عن الركون إلى هذه الدنيا الفانية والتعلق بها وينزع من قلبه حبها فيزهد فيها ويؤثر الأخرى عليها[2] رغبة عنها وإيثارا للأخرى، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «نظرت في هذا الأمر فجعلت إذا أردت الدنيا أضررت بالآخرة وإذا أردت الآخرة أضررت بالدنيا فإذا كان الأمر هكذا فأضروا بالفانية»[3] ولقد كان هذا هو دأب الصالحين وحالهم في كل زمان ومكان اتخذوا الدنيا معبراً للآخرة وعلموا أنها ليست بدار قرار قال تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩] وإنك إذا ذكرت الموت وأنت في عيش رغيد ونعيم وهناء وسرور وحبور تكدرت حياتك وهانت عليك الدنيا، وصغر عظيمها في عينيك، وتبدل فرحك حزنا وسعادتك كدرا كان الحسن يقول: «فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي لب فرحا»[4] ووالله لو كان أهل الجنة ينتظرون فيها موتا لم يتم فرحهم بنعيم لم تر عين مثله قط ولم تسمع أُذن بمثله قط ولا خطر على قلب بشر، فمما يطيب به عشيهم أنه لا موت فيها وأنهم فيها خالدون، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالموت يوم القيامة فيوضع على الصراط، فيقال: يا أهل الجنة! فيتطلعون خائفين وجلين أن يخرجوا من مكانهم الذي هم فيه ثم يقال: يا أهل النار فيتطلعون مستبشرين فرحين أن يخرجوا من مكانهم الذي هم

(١) قصر الأمل ص ٧٦ .
(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٣٤).
(٣) الزهد ص١٨٤ .
(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٨٥).

فيه، فيقال: هل تعرفون هذا؟ قالوا: نعم، هذا الموت، قال: فيؤمر به فيذبح على الصراط، ثم يقال للفريقين كلاهما: خلود فيما تجدون لا موت فيها أبداً»[1] قال مطرف بن الشخير: «أفسد الموت على أهل النعيم نعيمهم فاطلبوا نعيما لاموت فيه»[2] ولو فتح اللّه للعبد بصيرته فأيقن بالأهوال التي تقع عند النزع والموت وفي القبر ويوم القيامة لكثر بكاؤه وقل ضحكه قال رسول اللّه ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا وبكيتم كثيرا»[3] قال الحسن: «من علم أن الموت مورده والوقوف بين يديه تعالى مشهده فحقه أن يطول في الدنيا حزنه»[4] منعهم التفكر في الموت وسكراته وأهوال القيامة من حب الدنيا والركون إليها والفرح بشيء فيها. كان عون بن عبد اللّه يقول في بكائه: «ويحي كيف أنسى الموت ولا ينساني ويحي إن حجبت يوم القيامة عن ربي، ويحي كيف أغفل ولا يغفل عني، أم كيف تهناني معيشتي واليوم الثقيل ورائي؟ أم كيف يشتد حبي لدار ليست بداري؟ أم كيف أجمع بها وفي غيرها قراري؟ أم كيف يشتد إعجابي بما يزايلني وينقطع عني؟![5] نظر ابن مطيع يوما إلى داره، فأعجبه حسنها فبكى وقال: واللّه لولا الموت لكنت بك مسرورا، ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور لقرت بالدنيا أعيننا» ثم بكى بكاء شديدا حتى ارتفع صوته[6] دفعوا الدنيا بأيديهم وزهدوا فيها بقلوبهم ولم يزينوا البيوت ولم يزخرفوها لئلا تذكرهم بالدنيا، عن عائشة قالت: كان لنا قرام ستر فيه تماثيل على بابي، فرآه رسول

---

(١) صحيح سنن ابن ماجه كتاب الرقاق (٢/ ٣٨٨) (٣٤٩٣- ٤٣٢٧) قال الألباني صحيح.

(٢) الزهد ص ٣٤١ .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه- كتاب الرقاق باب: قول النبي ﷺ: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً (ص١٥٩٤) (٦٤٨٦).

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب الرقاق (١١/ ٣٨٨).

(٥) صفة الصفوة (٣/ ٦٦) باختصار.

(٦) (قصر الأمل ص١٧٧).

اللّه ﷺ فقال: «انزعيه فإنه يذكرني بالدنيا»(١) وكانوا يتقللون من الدنيا لئلا يرغبوا فيها ويحبوها ويركنوا إليها.

قال عليه الصلاة والسلام: «لا تتخذوا الضيعة فترغبوا في الدنيا»(٢) ولا يبقون في أيديهم ما يشغل قلوبهم عن الآخرة.. باع ابن عمر رضي الله عنهما جملا فقيل: لو أمسكته فقال: «لقد كان موافقا ولكنه أذهب شعبة من قلبي فكرهت أن أَشغل قلبي بشيء»(٣). ولما اشترى الغيض بن إسحاق دارا ذكره الفضيل بالموت لئلا ينشغل قلبه بها قال الغيض: «اشتريت دارا وكتبت كتابا وأشهدت عدولا فبلغ ذلك الفضيل بن عياض فأرسل إلى يدعوني فلم أذهب ثم أرسل إلى فمررت إليه، فلما رآني قال: يا ابن يزيد بلغني أنك اشتريت دارا وكتبت كتاباً وأشهدت عدولا، قلت: قد كان ذلك، قال: فإنه يأتيك من لا ينظر في كتابك ولا يسأل عن بيتك حتى يخرجك منها شاخصا يسلمك إلى قبرك خالصا، ولو كنت حين اشتريت كتبت على هذه النسخة هذا ما اشترى عبد ذليل من ميت قد أزعج بالرحيل، اشترى منه دارا تعرف بدار الغرور يشهد بذلك العقل إذا خرج من أسر الهوى، ونظر بالعينين إلى زوال الدنيا وسمع صارخ الزهد في عرصاتها، ما أبين الرحيل لذي عينين!! إن الرحيل أحد اليومين فبادروا بصالح الأعمال، فقد دنا النقلة والزوال»(٤).

زهدوا في المتاع حتى إن اللص ليدخل بيت أحدهم ما يجد شيئا يسرقه!! دخل لص على مالك بن دينار فما وجد ما يأخذ فناداه مالك: «لم تجد شيئا من الدنيا فترغب في شيء من الآخرة؟ قال: نعم قال: توضأ، صل ركعتين، ففعل ثم

---

(١) صحيح سنن الترمذي أبواب صفة القيامة (٢/ ٣٠٠) (٢٠٠٧- ٢٥٩٨) قال الألباني صحيح.

(٢) صحيح سنن الترمذي باب ما جاء في هم الدنيا وحبها (٢/ ٢٧١) (١٨٩٧- ٢٤٤٤) من رواية عبد اللّه، قال الألباني صحيح.

(٣) صفة الصفوة (١/ ٢٩٤).

(٤) حلية الأولياء (٨- ١٠٢).

جلس وخرج إلى المسجد، فسئل من ذا؟ قال: جاء ليسرق فسرقناه»[١].

دخل رجل على أبي ذر فجعل يقلب بصره في بيته، فقال: يا أبا ذر أين متاعكم؟ قال: إن لنا بيتا نوجه إليه قال: إنه لابدلك من متاع ما دمت هنا، قال: إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه.

ودخلوا على بعض الصالحين فقلبوا بصرهم في بيته، فقالوا له: إنا نرى بيتك بيت رجل مرتحل، فقال: أمرتحل؟ لا، ولكن أطرد طردا.[٢]

أخي،،،، من قصر أمله زهد في دنيا يعلم يقينا قرب رحيله عنها فلم ينبسط في ملاذها ولم يتوسع في طيباتها ورضي منها باليسير وقنع منها بالبلغة والكفاف وتزود منها زاد الراكب ولقد كان دعاء رسول الله ﷺ «اللّهم ارزق آل محمد قوتا»[٣].

قال ابن بطال: فيه دليل على فضل الكفاف، وأخذ البلغة من الدنيا والزهد فيما فوق ذلك رغبة في توفر نعيم الحياة وإيثارا لما يبقى على ما يفنى، فينبغي أن يقتدي به أُمتة في ذلك[٤]. وكان عليه الصلاة والسلام يوصي أصحابه أن يكتفوا من الدنيا بمثل زاد الراكب، وكانوا يخافون أن يتعدوا ذلك.

عن أنس قال: اشتكى سلمان فعاده سعد فرآه يبكي، فقال له سعد: ما يبكيك يا أخي؟ أليس قد صحبت رسول الله ﷺ؟ أليس؟ أليس؟

قال سلمان: «ما أبكي واحدة من اثنتين: ما أبكي حبا للدنيا ولا كراهية للآخرة ولكن رسول الله ﷺ عهد إلي عهدا فما أراني إلا قد تعديت، قال وما عهد إليك؟ قال: عهد إلى أنه يكفي أحدكم مثل زاد الراكب ولا أراني إلا قد تعديت...».

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٦٣).

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٧٧- ٣٧٨).

(٣) أخرجه البخاري (ص١٥٨٩) (٦٤٦٠) من رواية أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب الرقاق، (١١/ ٣٥٥).

قال ثابت: «بلغني أنه ما ترك إلا بضعة وعشرون درهما من نفقة كانت عنده»[١]، ، ولما مر جابر بن عبد الله معلقا لحما على عمر رضي الله عنه فقال: «ما هذا يا جابر؟ قال: هذا لحم اشتريته اشتهيته» قال: «أوكلما اشتهيت شيئا اشتريته؟! أما تخشى أن تكون من أهل هذه الآية: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠][٢] يقول عمر ذلك تأسيا واقتداء برسول الله ﷺ فقد ترك رسول الله ﷺ الأكل على الخوان ولم يأكل الخبز المرقق دفعا لطيبات الدنيا واختيارا لطيبات الحياة الدائمة، فهل لنا به أسوة؟!

عن أنس رضي الله عنه قال: «لم يأكل النبي ﷺ على خوان حتى مات وما أكل خبزا مرققا حتى مات»[٣] ومن هذا الباب ما أخرجه البخاري عن عائشة رضي الله عنها: «ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام بر ثلاث ليال تباعا حتى قبض»[٤] وقالت رضي الله عنها: « ما أكل آل محمد ﷺ أكلتين في يوم إلا إحداهما تمر»[٥].

وقالت رضي الله عنها: «كان فراشه ﷺ من أدم وحشوة ليف»[٦] عن عمر بن الخطاب قال: «دخلت على رسول الله ﷺ، وهو على حصير قال: فجلست فإذا عليه إزار، وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، وإذا بقبضة من شعير، نحو الصاع، وقرظ في ناحية الغرفة، وإذا إهاب معلق، فابتدرت عيناي، فقال: «ما يبكيك يابن الخطاب!» فقلت: يا نبي الله! ومالي لا أبكي؟ وهذا الحصير قد

---

(١) صحيح سنن ابن ماجه باب الزهد في الدنيا وحبها (٢/ ٢٧٠) (١٨٩٥- ٣٤٤٢) قال الألباني: صحيح.

(٢) الزهد ص ١٨١ .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب الرقاق- باب فضل الفقر (ص ١٥٥٧) (٦٤٥٠).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق- باب كيف كان يعيش النبي ﷺ وأصحابه وتخليهم عن الدنيا (ص١٥٨٨) (٦٤٥٤).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق- باب كيف كان يعيش النبي ﷺ وأصحابه وتخليهم عن الدنيا (ص١٥٨٨) (٦٤٥٥).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق- باب كيف كان يعيش النبي ﷺ وأصحابه وتخليهم عن الدنيا (ص ١٥٨٨) (٦٤٥٦).

أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذلك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار، وأنت نبي اللّه وصفوته، وهذه خزانتك، قال: «يابن الخطاب! ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا» قلت: بلى[1].

مات أبو بكر فما ترك ديناراً ولا درهما وكان قد أخذ قبل ذلك ماله فألقاه في بيت المال[2] وأما عمر بن الخطاب رضي الله عنه فإن الدنيا أرادته وفتحت عليه من كنوزها ولكنه لم يردها ولما جيء بسواري كسرى قال: «اللّهم إنك منعت هذا رسولك ونبيك، وكان أحب إليك مني وأكرم عليك مني، ومنعته أبا بكر وكان أحب إليك مني، وأكرم عليك مني، وأعطيتنيه فأعوذ بك أن تكون أعطيتنيه لتمكر بي» ثم بكى حتى رحمه من كان عنده، ثم قال لعبد الرحمن بن عوف: أقسمت عليك لما بعته ثم قسمته قبل أن تمشي[3].

لم يعد عمر رضي الله عنه انفتاح الدنيا عليه كرامة خصه اللّه تعالى بها بل خاف منها وكذلك كان الصحابة رضوان اللّه تعالى عليهم، وأنت أخي ينبغي أن تخاف مما خاف القوم منه، كيف لا وقد قال رسول اللّه ﷺ: «فواللّه مالفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتلهيكم كما ألهتهم»[4].

ينبه عليه السلام إلى أن الإستقامة على الدين لا تكون غالبا مع حياة الترف لأن هذا النوع من الحياة يورث القلوب قسوة وجفاء، وقل من يشكر عند الرخاء، كيف وقد أخبرنا اللّه تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

---

(١) صحيح سنن ابن ماجة كتاب الزهد- باب ضجاع آل محمد ﷺ (٢/ ٤٠١) (٣٣٥٠/ ٤١٥٣) قال الألباني: حسن.

(٢) الزهد ص ١٦٦ .

(٣) تاريخ الخلافة الراشدة ص١٨٢ .

(٤) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب ما نجد من زهرة الحياة الدنيا والتنافس فيها (ص١٥٨٢) (٦٤٢٥) من رواية عمرو بن عوف.

أخي . . . أما لك بهم أسوة؟!!!

لا أطلب إليك أن تعيش على بساط ولا أن تنام على بلاط، ولكن يكفيك ما كفاهم اكتفي من الدنيا بالبلغة. . . فراش دون فراش. . . ولباس دون لباس. . . وطعام دون طعام وتمضي الدنيا دون أن تركن إليها وتتعلق بها بل وتنجو من تبعاتها، خذ من الدنيا بقدر حاجتك، وأرصد بقية مالك في ميزان حسناتك يوم القيامة، وقد أخبرنا النبي ﷺ أنه: «يتبع الميت ثلاث فيرجع اثنان ويبقى واحد يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله»(١) أتريد ألا يرجع مالك مع أهلك؟! اجعله في سبيل اللَّه إن المكثرين من حطام الدنيا والمنهمكين في جمعها هم المقلون من الحسنات يوم القيامة إلا من جعل ما جمع في سبيل اللَّه وعمل فيه خيرا.

قال رسول اللَّه ﷺ: «إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة إلا من أعطاه اللَّه خيرا فنفح فيه يمينه وشماله، وبين يديه ووراءه وعمل فيه خيرا»(٢).

فهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه جهز جيش العسرة بثلاث مائة بعير بأقتابها وأحلاسها وجاء يومئذ بألف دينار فصبها في حجر رسول اللَّه ﷺ(٣).

وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها بعث ابن الزبير إليها بمال في غرارتين، يكون مائة ألف، فدعت بطبق، فجعلت تقسم في الناس فلما أمست، قالت: هاتي يا جارية فطوري فقالت أم ذرة: يا أم المؤمنين أما استطعت أن تشتري لنا لحما بدرهم؟ قالت: لا تعنفيني، لو ذكرتيني لفعلت!!(٤) نسيت متاع نفسها من الدنيا

---

(١) صحيح سنن الترمذي أبواب الزهد (٢/ ٢٨٠) (١٩٣٨- ٢٤٩٨) من رواية أنس بن مالك قال الألباني صحيح.

(٢) أخرجه البخاري في صحيح كتاب الرقاق باب المكثرون هم المقلون (ص١٥٨٥) (٦٤٤٣) جزء من حديث رواه أبو ذر رضي الله عنه.

(٣) تاريخ الخلافة الراشدة ص ٢٤٦.

(٤) سير أعلام النبلاء (٢/ ١٨٧).

لأن ذكر الآخرة قد غلب على قلبها لم تفكر بترميم البيت وتوسعته ولا تجديد أثاثه بأفخر منه، ولا تغيير مركوبها بأحدث منه ولا شراء الذهب والحلي. . . لم تفكر إلا بما ينفعها بعد الموت ولا يقدر على فعل ذلك إلا من كان همه ذلك.

وأبو ذر ﷺ يخاف المال ويعيش وأهله حياة تقشف وزهد ولما عاتبته أم ذر في معيشتها قال لها: «يا أم ذر إن بين أيدينا عقبة كؤود وإن المخف فيها أهون من المثقل»(١) ومن طالع سيرة القوم وأخبارهم وجد من ذلك الكثير. . . والله المستعان.

٣- أخذ الأهبة والاستعداد للقاء الموت:

قال الحسن: «ما أكثر عبد ذكر الموت إلا رأى ذلك في عمله ولا طال أمل عبد قط إلا أساء العمل»(٢) وقال علي بن أبي طالب ﷺ: «إن طول الأمل ينسي الآخرة»(٣) إذ يتولد من طول الأمل الكسل عن الطاعة والتسويف بالتوبة والرغبة في الدنيا والنسيان للآخرة والقسوة في القلب، لأن رقته وصفاءه إنما يقع بتذكير الموت والقبر والثواب والعقاب وأهوال القيامة، قال تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦](٤) نشكو قسوة قلوبنا في هذا الزمان إلا من رحم الله فلنذبها بتذكر الموت وكان من السلف الصالح من يكثر زيارة المقابر يذكر نفسه بالموت، ذكر محمد بن صالح التمار أن صفوان بن سليم كان يأتي البقيع فيمر به يقول: فاتبعته ذات يوم وقلت: لأنظرن ما يصنع، فقنع رأسه وجلس إلى قبر منها، فلم يزل يبكي حتى رحمته، وظننت أنه قبر بعض أهله، ومر بي مرة أخرى فاتبعته، فقعد إلى جنب قبر غيره، ففعل مثل ذلك، فذكرت ذلك لمحمد

---

(١) الزهد: ٢١٥ .

(٢) الزهد ٣٨١ .

(٣) تاريخ الخلافة الراشدة ص ٣٣٦ .

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب الرقاق (١١/ ٢٨٥).

بن المنكدر وقلت: إنما ظننت أنه قبر بعض أهله: فقال محمد: كلهم أهله وإخوانه، إنما هو رجل يحرك قلبه بذكر الأموات كلما عرضت له قسوة[1].

كان الربيع يكثر من ذكر الموت ويرى أثر ذلك في صلاح قلبه، قيل له: لو جالستنا، فقال: «لو فارق قلبي ذكر الموت ساعة فسد علي»[2] وقد قيل: «من قصر أمله قل همه وتنور قلبه» لأنه إذا استحضر الموت اجتهد في الطاعة وقل همه ورضي بالقليل[3] وكان عون بن عبد الله يقول: «إن من أنفع أيام المؤمن له ما ظن أنه لا يدرك آخرة»[4] فإنه إذا ظن ذلك اجتهد في الطاعة وبذل وسعه «كانت امرأة متعبدة بمكة إذا أمست قالت: «يا نفس الليلة ليلتك ولا ليلة لك غيرها، فاجتهدت فإذا اصحبت قالت: يا نفس، اليوم يومك، لا يوم لك غيره، فاجتهدت»[5].

فليكن أخي ذكرك للموت دافعا لإصلاح نفسك وقلبك وجدك واجتهادك في الأعمال الصالحة وليس سببا في الحزن والتأسف على مفارقة الدنيا وملاذها..

قال الحسن: «كان رجل من المسلمين يبلغه موت أخ له من إخوانه فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون كدت والله أن أكون أنا السواد المختطف فيزيده الله بذلك جدا واجتهادا، فيلبث بذلك ما شاء الله ثم يبلغه موت الأخ من أخوانه فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون كدت والله أن أكون أنا السواد المختطف فيزيده الله بذلك جدا واجتهادا فردد الحسن هذا الكلام غير مره فوالله ما زال كذلك حتى مات موتا كيسا»[6].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٦٦).

(٢) صفة الصفوة (٣/ ٤١).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب الرقاق (١١/ ٢٨٥).

(٤) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٨٥).

(٥) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٨٦).

(٦) الزهد ٣٨١ .

إن اليقين بلقاء اللّه بالموت، والحشر إليه يوم القيامة للعرض والحساب والجزاء يسهل على العبد فعل الطاعات ومشقتها وشدتها وثقلها ولا سيما الصلاة وترك المنكرات قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥- ٤٦] عن أبي أيوب قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يارسول اللّه! علمني وأوجز، قال: إذا قمت إلى الصلاة، فصل صلاة مودع، ولا تكلم بكلام تعتذر منه وأجمع اليأس مما في أيدي الناس»[١]. قال بكر بن عبد اللّه المزني: «إذا أردت أن تنفعك صلاتك فقل لعلي لا أصلي غيرها»[٢] وكابد الصاحون الليل فقل نومهم وطال قيامهم يبادرون ملك الموت، قال تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ٧].

وأنشد أبو عبد اللّه أحمد بن ايوب:

اغتنم في الفراغ فضل ركوع   فعسى أن يكون موتك بغته
كم صحيح رأيت من غير سقم   ذهبت نفسه الصحيحة فلته![٣]

نزل روح بن زنباع منزلا بين مكة والمدينة في حر شديد، فانقض عليه راع من جبل، فقال له: يا راعي هلم إلى الغداء، فقال إني صائم، قال إنك لتصوم في هذا الحر الشديد، قال أفأدع أيامي تذهب باطلا؟ فقال روح: لقد ضننت بأيامك يا راعي إذ جاد بها روح بن زنباع![٤] وصام مسروق في يوم صائف فغشي عليه، فقالت له ابنته: «يا أبتاه أفطر واشرب قال ما أردت بي يا بنية؟ قالت: الرفق، قال: يا بنيه إنما طلبت الرفق لنفسي في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة»[٥].

---

(١) صحيح سنن ابن ماجة- كتاب االزهد- باب الحكمة (٢/ ٤٠٥) (٣٣٦٣- ٤١٧١) قال الألباني حسن.
(٢) قصر الأمل ص ٨٢ .
(٣) قصر الأمل ص ١٤٦ .
(٤) قصر الأمل ص ١٢٨ .
(٥) سير أعلام النبلاء (٤/ ٦٨).

روى الأعمش عن إبراهيم عن علقمة قال: أتي عبد اللّه بشراب فقال: أعط علقمة. أعط مسروقا، فكلهم قال: إني صائم، فقال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [النور: ٣٧][(١)].

وقد بلغ الإجتهاد ببعضهم أقصاه فإذا توجه إليه ملك الموت أو قيل له غدا القيامة ما كان عنده مزيد على ما هو عليه من العبادة كما ذكر ذلك عن صفوان بن سليم[(٢)]، وإبراهيم بن يزيد[(٣)]، وحماد بن سلمة[(٤)].

كان صفوان بن سليم يصلي في الشتاء في السطح، وفي الصيف في بطن البيت، يتيقظ بالحر والبرد حتى يصبح!! ثم يقول: «هذا الجهدمن صفوان وأنت أعلم، وأنه لترم رجلاه يعود كالسقط من قيام الليل، ويظهر فيه عروق خضر»[(٥)].

ومن كان له الموت على بال لايكاد يجد وقتا فارغا إلا وملأه بالعباده والطاعة، قال حبيب «لا تقعدوا فراغا فإن الموت يطلبكم»[(٦)].

ومن كان هذا حاله فكيف يقول: لدي وقت فراغ ألهو به وألعب؟!

كان صلة بن أشيم العدوي يعظ شبابا يمرون عليه وهو يتعبد وهم يلهون ويلعبون، فيقول لهم: أخبروني عن قوم أرادوا سفرا فحادوا النهار عن الطريق وباتوا بالليل، متى يقطعون سفرهم؟[(٧)].

حتى النوم لا تقر به عين من علم أن الموت يطلبه!!

قدم معاوية بن خديج المدينة في الظهيرة وكان قد بعثه عمرو بن العاص إلى

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٧٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٦٦).

(٣) سير أعلام النبلاء (٥/ ٦٢).

(٤) صفة الصفوة (٤/ ٦٨).

(٥) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٦٥- ٣٦٦).

(٦) صفة الصفوة (٣/ ٢١٤).

(٧) صفة الصفوة (٣/ ١٤٢).

عمر بن الخطاب رضي الله عنه بفتح الإسكندرية، فلما دخل المسجد إذ خرجت جارية من منزل عمر فرأته ساحبا على ثياب السفر فانصرفت فقالت: أجب أمير المؤمنين وقدم له عمر خبزا وزيتا وتمرا ثم قال له: ماذا قلت يا معاوية حين أتيت المسجد؟ قال: قلت: إن أمير المؤمنين قائل: قال: «بئس ماظننت!! لئن نمت النهار لأضيعن الرعية ولئن نمت الليل لأضيعن نفسي فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية؟!»[1] كان ابن عمر يقوم في الليل فيتوضأ ويصلي، ثم يغفي إغفاء الطير ثم يقوم فيتوضأ ويصلي ثم يغفي إغفاء الطير ثم يقوم يصلي، يفعل ذلك مرارا[2]. لما سئل سفيان الثوري كيف يصنع في كل ليلة، قال: «لها عندي أول الليل نومة تنام ما شاءت لا أمنعها فإذا استيقظت لا أقيلها والله».

وكان عبد الرحمن بن مهدي يقول: «ما عاشرت في الناس أرق من سفيان الثوري، وكنت أرمقه الليلة بعد الليلة فما كان ينام إلا أول الليل ثم ينتفض مرعوبا ينادي: النار، النار شغلني ذكر النار عن النوم والشهوات.

ثم يتوضأ ويقول على إثر وضوئه: اللهم إنك عالم بحاجتي غير معلم، وما أطلب إلا فكاك رقبتي من النار، ، إلهي: إن الجزع قد أرقني وذلك من نعمتك السابغة علي، إلهي لو كان لي عذر في التخلي ما أقمت مع الناس طرفة عين ثم يقبل على صلاته وكان البكاء يمنعه من القراءة حتى إن كنت لا أستطيع سماع قراءته من كثرة بكائه»[3] والوقت ثمين جدا لمن علم أن أيام عمره هي رأس ماله إذا ضاع منها شيء في غير ما قربة، علم أنه مغبون، فهو يضن بوقته أن يضيع هباء أشد من بخل البخيل بماله... دخل جسر على يونس بن عبيد، فقال: «منذ دخلت علينا قد مضى من آجالنا»[4] يذكره بأنه لا وقت لديه لحديث دنيا!! جلس

---

(١) الزهد ص١٨٠ بتصرف.

(٢) مختصر منهاج القاصدين ص ٣٦٩ .

(٣) صفة الصفوة (٣/ ٩٨).

(٤) صفة الصفوة (٣/ ٣٠٦).

سحيم مولى بني تميم إلى عبد اللّه بن عبداللّه، فأوجز في صلاته ثم أقبل عليه وقال: أَرحني بحاجتك فإني أبادر، فقال: «وما تبادر؟ قال: ملك الموت» وكان يصلي كل يوم ألف ركعة[1].

أخي،،،أخبرني عن حالك التي أنت عليها، أترضاها للموت؟

إذا كنت لا ترضاها،،، فهل أزمعت التحويل إلى حال ترضاها للموت؟

فإن قلت: لا والله ما تاقت نفسي إلى ذلك بعد!

قلت لك: فهل بعد الموت دار فيها عمل؟!

فإن قلت: لا قلت لك: فهل تأمن أن يأتيك الموت وأنت على حالك هذه

فإن قلت: لا

قلت لك: أترى عاقلا يرضى بمثل هذه الحال!![2]

أخي،،، إلى متى تسوف؟! ألا تعلم أن التسويف جند من جنود إبليس عظيم، طالما خدع به! سوف أتوب غدا، وسوف أترك الربا غدا، سوف أترك مطالعة الحرام غدا، ولا تدري يا عبد اللّه ما اسمك غدا؟!

إذا مت من يتقرب عنك لربك؟!

كان يزيد الرقاشي يبكي ويقول: «ويحك يا يزيد؟ من يترضى عنك ربك؟ ومن يصوم لك؟ أو يصلي لك؟ يا يزيد من يضرع لك إلى ربك بعدك ومن يدعو؟»[3]

***

(١) مختصر منهاج القاصدين ص ٣٦٩ .

(٢) مقتبسة من كلام لعبد الرحمن بن يزيد ذكره ابن أبي الدنيا في كتابه قصر الأمل ص ٧٠ .

(٣) صفة الصفوة (٣/ ١٩٥).

المبحث الخامس
عظات وعبر

مواقف وأقوال للسلف لحظة مواجهة الموت يعتبر بها من كان له قلب حي عرف خطر الموت وأنزله حق منزلته وعلم أنه ملاقيه لا مناص له عن ذلك، ،

لما احتضر أبو بكر الصديق رضي الله عنه تمثلت عائشة رضي الله عنها بهذا البيت:

أعاذل ما يغني الحذار عن الفتى   إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فقال أبو بكر رضي الله عنه ليس كذلك يا بنيه ولكن قولي: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩] فقال: «انظروا ثوبي هذين فاغسلوهما ثم كفنوني فيهما فإن الحي أحوج إلى الجديد من الميت»[١].

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه صاحب رسول الله ﷺ الفاروق الخليفة الراشد والمبشر بالجنة كان في وجهه خطان أسودان من البكاء وكان يمر بالآية في ورده فتخنقه فيبقى في البيت أياما يعاد يحسبونه مريضا[٢]. رآه علي بن أبي طالب وهو يعدو إلى ظاهر المدينة، فقال له: إلى أين يا أمير المؤمنين؟ فقال: قد فر بعير من إبل الصدقة فأنا أطلبه فقال: قد أتعبت الخلفاء من بعدك!![٣] كان في سياق الموت وقد وضع رأسه في حجر ابنه عبد الله، فقال له ضع خدي بالأرض قال: فهل فخذي والأرض إلا سواء؟ قال ضع خدي بالأرض لا أم لك، في الثانية أو الثالثة، وقال: ويلي وويل أمي إن لم تغفر لي، حتى فاضت روحه[٤].

وعائشة رضي الله عنها أم المؤمنين وزوجة النبي ﷺ دخل عليها ابن عباس وهي في

---

(١) الزهد ١٦٣ .

(٢) الزهد ١٧٦ .

(٣) تاريخ الخلفاء الراشدين ١١٣ .

(٤) صفة الصفوة (١/ ١٥٢).

الموت فقال لها: أبشري فواللّه ما بينك وبين أن تفارقي كل نصب، وتلقي محمداً ﷺ والأحبة إلا أن روحك تفارق جسدك قالت: إيهاً يا ابن عباس! قال: كنت أحب نساء الرسول ﷺ يعني إليه - ولم يكن يحب إلا طيبا، سقطت قلادتك ليلة الأبواء وأصبح رسول الله ﷺ ليلقطها. فأصبح الناس ليس معهم ماء، فأنزل اللّه: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: ٤٢] فكان ذلك من سببك، وما أنزل اللّه بهذه الأمة من الرخصة. ثم أنزل اللّه تعالى برائتك من فوق سبع سماوات، فأصبح ليس مسجد من مساجد يذكر فيها اللّه إلا براءتك تتلى فيه آناء الليل والنهار قالت دعني عنك يا ابن عباسن، فواللّه لوددت أني كنت نسيا منسيا(١).

ومعاذ بن جبل أعلم أمة محمد ﷺ بالحلال والحرام كان شهد طاعون عمواس وسأل اللّه تعالى أن يقسم لآل معاذ منه حظه فطعن فلما حضره الموت استعاذ باللّه من النار قال: أعوذ باللّه من ليلة صباحها إلى النار ثم قال مرحبا بالموت مرحبا، زائر مغب حبيب جاء على فاقة، اللّهم إني كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك، إنك لتعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكري النهار ولا لغرس الأشجار ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر. وقال حين اشتد به نزع الموت فنزع نزعا لم ينزعه أحد وكان كلما أفاق من غمرة فتح عينيه ثم قال: رب اخنقني خنقك، فوعزتك إنك لتعلم أن قلبي يحبك(٢).

وسلمان الفارسي رضي الله عنه بكى لما حضرته الوفاة فقيل له ما يبكيك؟ قال: عهد عهده إلينا رسول اللّه ﷺ قال: «ليكن بلاغ أحدكم كزاد الراكب» فلما مات نظروا في بيته فلم يجدوا في بيته إلا إكافا ووطاء ومتاعا قوم نحو من عشرين درهما(٣). قال المغيرة بن حكيم: قلت لفاطمة بنت عبد الملك: كنت أسمع

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ١٨٠).

(٢) صفة الصفوة (١/ ٢٥٩).

(٣) صفة الصفوة (١/ ٢٨٣).

عمربن عبدالعزيز في مرضه يقول: اللّهم أخف عليهم أمري ولو ساعة، قالت: قلت له: ألا أخرج عنك، فإنك لم تنم، فخرجت، فجعلت أسمعه يقول: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] مرارا، ثم أطرق فلبثت طويلا لا نسمع له حس فقلت لوصيف: ويحك! انظر، فلما دخل، صاح فدخلت فوجدته ميتا، قد أقبل بوجهه على القبلة، ووضع إحدى يديه على فيه، والأخرى على عينيه[(١)].

وذكر عبد الواحد بن زيد أن حبيبا أبا محمد الفارسي جزع جزعا شديدا عند الموت فجعل يقول بالفارسية: أريد أن أسافر سفرا ما سافرته قط، أريد أن أشرف على أهوال ما شاهدت مثلها قط أريد أن أدخل تحت التراب فأبقى تحته إلى يوم القيامة ثم أوقف بين يدي اللّه فأخاف أن يقول لي: يا حبيب هات تسبيحة واحدة سبحتني في ستين سنة لم يظفر بك الشيطان فيها بشيء فماذا أقول وليس لي حيلة أقول: يا رب هو ذا قد أتيتك مقبوض اليدين إلى عنقي. قال عبد الواحد: هذا عبد اللّه ستين سنة مشتغلا به ولم يشتغل من الدنيا بشيء قط، فأي شيء حالنا؟ واغوثاه باللّه[(٢)].

* * *

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٤١).

(٢) صفة الصفوة (٣/ ٢١٦).

المبحث السادس
ما يفعل إذا استشعر حضور أجله

هناك أمور ينبغي على المؤمن أن يحرص على فعلها عند حضور أجله مستعينا بالله تعالى مستغيثاً به:

١- يصبر ويحتسب عند الله تعالى ثواب هذه المصيبة ولا يتسخط ويجزع ويسوء خلقه، قال رسول الله ﷺ: «ما مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط الله سيئاته، كما تحط الشجرة ورقها»[١].

قال عمر بن عبد العزيز: «ما أحب أن يهون علي سكرات الموت إنه لآخر ما يكفر به عن المؤمن»[٢].

ويحمد الله عز وجل:

قال رسول الله ﷺ: «المؤمن بخير على كل حال، تنزع نفسه من بين جنبيه وهو يحمد الله عز وجل»[٣].

*** فائدة:**

مما يعين على الصبر في هذه الشدة بعد الاستغاثة بالله تعالى أن يكون المرء قد عود نفسه ومرنها على الصبر على المصائب والابتلاءات، والعلم بأن تقدير الله له خير من اختياره لنفسه، ولا يكون ممن يطيب قلبه إذا تواصلت لديه النعم فإذا انعكس عليه أمر عاد إلى القدر بالتسخط، فهذا بعيد ثباته ولا بد من لقاء البلاء

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة والآداب- باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها برقم (٤٥، ٢٥٧١) من رواية عبد الله.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتاب الرقاق (١١/ ٤٤٤).

(٣) صحيح سنن النسائي- كتاب الجنائز باب في البكاء على الميت (٢/ ٣٩٧) (١٧٢٩) قال الألباني: صحيح.

ولو لم يكن إلا عند صرعة الموت، فإنها إن نزلت والعياذ باللّه فلم تجد معرفة توجب الرضى أو الصبر أخرجت إلى الكفر.

يقول ابن الجوزي: «ولقد سمعت بعض من كنت أظن فيه كثرة الخير، وهو يقول لياليَ موته: ربي هو ذا يظلمني، فلم أزل منزعجا مهتما بتحصيل عدة ألقى بها ذلك اليوم»[(١)].

٢- يحسن الظن باللّه تعالى، ويؤمل منه كل الخير، ويطمع في عفوه ورحمته:

عن جابر رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن باللّه عز وجل»[(٢)].

وعن حيان أبي النضر قال: خرجت عائدا ليزيد بن الأسود فلقيت واثلة بن الأسقع وهو يريد عيادته فدخلنا عليه، فلما رأى واثلة بسط يده وجعل يشير إليه فأقبل واثلة حتى جلس، فأخذ يزيد بكفي واثلة فجعلهما على وجهه، فقال له واثلة: كيف ظنك باللّه؟ قال: ظني باللّه واللّه حسن، قال: فأبشر، فإني سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «قال اللّه جل وعلا: أنا عند ظن عبدي بي، إن ظن خيرا فله، وإن ظن شرا فله»[(٣)] وعن أنس رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو بالموت، فقال: «كيف تجدك؟ قال: «واللّه يا رسول اللّه إني أرجو اللّه وإني أخاف ذنوبي» فقال رسول اللّه ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه اللّه ما يرجو وأمنه مما يخاف»[(٤)].

---

(١) صيد الخاطر ص١٩٢ .

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩١) والحاكم (٤/ ٢٤٠) والدارمي (٢/ ٣٠٥) وابن حبان (٧١٧- موارد) وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٣٠٦) وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٤/ ١٦٦٣).

(٤) صحيح سنن الترمذي أبواب الجنائز (١- ٢٨٩) (٧٨٥- ٩٩٤) قال الألباني: حسن.

وإذا ابتلي بمرض وشعر أنه سيفضي به إلى الموت فليحسن الظن باللَّه عز وجل أنه ابتلاه ليطهره من ذنوبه ويبلغه منزلة عالية روى أبو داود في سننه عن إبراهيم بن مهدي السلمي عن أبيه عن جده وكانت له صحبة من رسول اللَّه ﷺ قال: «سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «إن العبد إذا سبقت له من اللَّه منزلة لم يبلغها بعمله ابتلاه اللَّه في جسده أو في ماله أو في ولده ثم صبره على ذلك حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له من اللَّه تعالى»(١).

٣- يكثر ذكر اللَّه عز وجل: قال رسول اللَّه ﷺ: «خير العمل أن تفارق الدنيا ولسانك رطب بذكر اللَّه»(٢).

ومن الأذكار التي يتأكد الاهتمام بها في هذا الموطن:

لا إله إلا اللَّه، واللَّه أكبر

لا إله إلا اللَّه وحده

لا إلا اللَّه وحده لا شريك له

لا إله إلا اللَّه له الملك وله الحمد

لا إله إلا اللَّه ولا حول ولا قوة إلا باللَّه

عن الأعز أبي مسلم قال: أشهد على أبي سعيد وأبي هريره أنهما شهدا على رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «من قال لا إله إلا اللَّه واللَّه أكبر صدقه ربه وقال: لا إله إلا أنا وأنا أكبر وإذا قال: لا إله إلا اللَّه وحده قال: يقول اللَّه: لا إله إلا أنا وأنا وحدي. وإذا قال: لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له قال اللَّه: لا إله إلا أنا وحدي لا شريك بي و إذا قال: لا إله إلا اللَّه له الملك وله الحمد قال اللَّه: لا إله إلا أنا لي الملك ولي الحمد وإذا قال: لا إله إلا اللَّه ولا حول ولا قوة إلا باللَّه قال اللَّه:

---

(١) صحيح سنن أبي داود- كتاب الجنائز- باب الأمراض مكفرات للذنوب (ص٥٩٧) (٢٦٤٩-٣٠٩٠) قال الألباني: صحيح.

(٢) أخرجه/ أبو داود (٣١١٦) والحاكم (١/ ٣٥١) وحسنه الألباني في «الإرواء» (٣/ ١٤٩).

لا إله إلا أنا ولا حول ولا قوة إلا بي» وكان يقول: «من قالها في مرضه ثم مات لم تطعمه النار»[1] وفي سنن ابن ماجه: «من رزقهن عند موته لم تمسه النار»[2].

٤- يكثر من قول لا إله إلا الله «ليكون آخر كلامه أو يلقنه إياها برفق من حضره عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»[3].

٥- أن يوصي أهله بالوصية الشرعية وسداد ما عليه من ديون للآخرين وحقوق وأن يوصيهم بتوحيد الله عز وجل والبراءة من الشرك والثبات على الإسلام إلى الممات وبذلك أوصى إبراهيم ويعقوب عليهما السلام بنيهم عند الموت قال الله عز وجل: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٣٢] وأن يوصيهم بتقوى الله والصبر على مصيبتهم به وينهاهم عما يتوقع حدوثه من منكر أو بدعه إذا أحس منهم ذلك ويوصيهم بترك البكاء عليه ويخبرهم بحديث الرسول ﷺ: «إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه»[4].

* * *

---

(١) صحيح سنن الترمذي- أبواب الدعوات- باب ما يقول العبد إذا مرض (٣/ ١٥٢) (٢٧٢٧- ٣٦٧٠).

(٢) صحيح سنن ابن ماجه- كتاب الأدب- باب فضل لا إله إلا الله (٢/ ٣١٧) (٣٠٦١- ٣٧٩٤).

(٣) صحيح سنن أبي داود- كتاب الجنائز- باب في التلقين (٢/ ٦٠٢) (٢٦٧٣- ٣١١٦) قال الألباني صحيح.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الجنائز- باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه برقم (٢٣- ٩٢٨).

الباب الثاني
(القبر)

خرجت من الدنيا وقامت قيامتي غداة أقل الحاملون جنازتي
وعجل أهلي حفر قبري وصيروا خروجي وتعجيلي إليه كرامتي
كأنهم لم يعرفوا قط صورتي غداة أتى يومي علي وليلتي

الفصل الأول
القبر أول منازل الآخرة
المبحث الأول: فظاعة منظر القبر

كان حديثنا عن الموت وما يحصل فيه من أمور هو المرحلة الأولى من الرحلة إلى الدار الآخرة وتعقبها المرحلة الثانية عندما يقبر الميت وبذلك ينتقل إلى الدار التي تعقب الموت وهي دار البرزخ قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

قال مجاهد: «البرزخ الحاجز ما بين الدنيا والآخرة»(١).

فالقبر ليس هو المثوى الأخير للإنسان ولو اعتقد الإنسان ذلك لصار كافراً بالبعث والكفر بالعبث ردة عن الإسلام قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١، ٢] يذكر عن بعض الأعراب أنه سمع قارئا يقرأ هذه الآيات فقال: «والله ما الزائر بمقيم والله لنبعثن» واستدل عمر بن عبد العزيز رحمه الله بهذه الآيات على: «أن القبور ليست بدار إقامة وأن الزائر لا بد أن يرجع إلى وطنه»(٢).

إنك إذا زرت القبور وأحضرت قلبك وأعملت فكرك لرأيت أمامك واعظا صامتا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «زار النبي ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال: «استأذنت ربي في أن استغفر لها فلم يأذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي فزوروا القبور فإنها تذكر الموت»(٣) وفي رواية «فإن فيها عبرة» وفي رواية أخرى «فإنها تذكرة الآخرة»(٤).

---

(١) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٣/ ٢٤٩).

(٢) تفسير جزء عم للشيخ ابن عثيمين ص ٣٠٣ بتصرف يسير.

(٣) أخرجه مسلم (٣/ ٦٥).

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٣٨- ٦٣) (٥/ ٣٥٠) والحاكم (١/ ٣٧٤- ٣٧٥- ٣٧٦) وحسنه الألباني في أحكام الجنائز (ص ٢٢٨- ٢٢٩).

وقال ﷺ: «ما رأيت منظرا إلا القبر أفظع منه»(١).

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في جنازة فجلس على شفير القبر فبكى حتى بل الثرى، ثم قال: «يا أخواني لمثل هذا فأعدوا»(٢) دخل مالك بن دينار المقابر ذات يوم فإذا رجل يدفن فجاء حتى وقف على القبر فجعل ينظر إلى الرجل وهو يدفن فجعل يقول مالك غدا هكذا يصير وليس له شيء يتوسده في قبره، فلم يزل يقول: غدا مالك هكذا يصير حتى خر مغشيا عليه في جوف القبر فحملوه وانطلقوا به إلى منزله مغشيا عليه»(٣).

وكان الحسن بن عثمان بن أبي العاص في جنازة فرأى قبرا خاسفا، فقال لرجل من أهله: يا فلان تعالى انظر إلى بيتك الذي هو بيتك قال: أراه ضيقا يابسا مظلما ليس فيه طعام ولا شراب ولا زوجة وقد نزلت بيتا فيه طعام وشراب وزوجة قال: والله بيتك، قال: صدقت، أما والله لو قد رجعت نقلت من ذلك إلى هذا»(٤).

وقال أبو محرز الطفاوي: «كفتك القبور مواعظ الأمم السالفة»(٥) وإذا تفكرت أخي كم للتراب في جسد ابن آدم من مأكل وكم للدود فيه من طريق مخترق».

دخل رجل فقيه على عمر بن عبد العزيز، فقال: سبحان الله، كأنه تعجب من أمره الذي هو عليه وقال له: تغيرت بعدنا! فقال له وتبينت ذلك فعلا؟ فقال له الأمر أعظم من ذلك يا فلان فكيف لو رأيتني بعد ثلاث وقد دخلت قبري، وقد

---

(١) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٨/ ٢٢٩) والترمذي (٢٣٠٨) وابن ماجه (٤٢٦٧) والحاكم (٤/ ٣٣٠- ٣٣١) وحسنه الألباني في «تخريج مشكاة المصابيح» (١/ ١٢٨- هداية الرواة).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٩٤) وابن ماجه (٤١٩٥) وحسنه الألباني في «الصحيحه» (٤/ ١٧٥١).

(٣) صفة الصفوة (٣/ ١٨٨).

(٤) أهوال القبور لابن رجب الحنبلي ص (٢٢٥- ٢٢٧).

(٥) أهوال القبور لابن رجب الحنبلي ص (٢٢٥- ٢٢٧).

خرجت الحدقتان فسالت على الخدين، وتقلصت الشفتان عن الأسنان، وانفتح الفم ونتأ البطن فعلا الصدر وخرج الصديد من الدبر[1] وشيع عمر بن عبد العزيز جنازة، فلما انصرفوا تأخر عمر وأصحابه ناحية عن الجنازة فقال له أصحابه: يا أمير المؤمنين جنازة أنت وليها تأخرت عنها وتركتها؟ فقال: نعم، ناداني القبر من خلفي: يا عمر بن عبدالعزيز ألا تسألني ما صنعت بالأحبة؟: قلت بلى، قال خرقت الأكفان، ومزقت الأبدان ومصصت الدم وأكلت اللحم، ألا تسألني ما صنعت بالأوصال؟ قلت: بلى، قال: نزعت الكفين من الذراعين، والذراعين من العضدين والعضدين من الكتفين، والوركين من الفخذين، والفخذين من الركبتين، والركبتين من الساقين، والساقين من القدمين، ثم بكى عمر[2].

هذا ما نراه أخي الحبيب بأعيننا في القبر، ، بيت الوحشة والدود، تجول فيه الهوام ويجري فيه الصديد، وتبلى فيه الأجساد، ، وأهوال ما وراء ذلك أعظم، فهو أول منازل الأخرة عن هانئ مولى عثمان بن عفان قال: كان عثمان رضي الله عنه إذا وقف على القبر بكى حتى يبل لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي وتبكي من هذا؟ فقال إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشد»[3].

ذلك أن المجازاة التامة تكون يوم القيامة، وأما ما دون ذلك فيكون في البرزخ قال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

فعلم من ذلك أن عذاب البرزخ ونعيمه دون عذاب يوم القيامة ونعيمة وهذا نظير قول النبي ﷺ في المؤمن عندما يفتح له باب إلى الجنة وهو في قبره «فيأتيه

(١) أهوال القبور لابن رجب الحنبلي ص ٢٤١ .

(٢) حلية الأولياء (٢/ ١٦١).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٠٨) وحسنه الألباني في (صحيح سنن الترمذي) ٢/ ٥٢٧).

من روحها وطيبها»[1].

ولم يقل روحها وطيبها، وكذلك الكافر قال: «فيأتيه من حرها وسمومها»[2] ولم يقل حرها وسمومها، فإن الذي وصل إليه بعض ذلك وبقي له أكثره[3] لذلك فإن المؤمن الذي ينجو من عذاب القبر إذا رأى ما أعد اللّه له من النعيم في الجنة قال: «رب عجل قيام الساعة كيما أرجع إلى أهلي ومالي»[4] لأن النعيم في القيامة أعم وأكمل، والكافر على الرغم مما يراه من عذاب في قبره إلا أنه إذا رأى ما أعد اللّه له من العذاب في النار قال: «رب لا تقم الساعة»[5] لأن عذاب البرزخ دون عذاب القيامة فالآتي أشد وأفظع.

* * *

---

(١) سبق تخريج الحديث.

(٢) سبق تخريج الحديث.

(٣) الروح ١٠٦ .

(٤) جزء من حديث البراء بن عازب وقد سبق تخريجه.

(٥) جزء من حديث البراء بن عازب وقد سبق تخريجه.

المبحث الثاني
ضمة القبر

إذا وضع الميت في قبره فإنه ينزل منزلا لم يألفه من قبل، قال مطرف بن عبد اللّٰه بن الشخير: القبرمنزل بين الدنيا والآخرة فمن نزله بزاد وارتحل به إلى الآخرة، إن خيرا فخير وإن شرا فشر(١).

عن الحسن قال: «يومان وليلتان لم تسمع الخلائق بمثلهن قط ليلة تبيت مع أهل القبور ولم تبت ليلة قبلهاوليلة صبيحتها يوم القيامة، ويوم يأتيك البشير من اللّٰه تعالى، إما إلى جنة أو النار ويوم تعطى كتابك إما بيمينك أو بشمالك»(٢).

فإذا نزل الميت قبره، وهذا أول منازل الآخرة، استقبله القبر بضمة لا ينجو منها أحد مؤمنا كان أو كافرا صغيرا أو كبيرا رجلا أو امرأة، ، فقد أخبرنا رسول اللّٰه ﷺ أن القبر ضم سعد بن معاذ على رغم ما أكرمه اللّٰه تعالى به عند موته من كرامات، عن ابن عمر عن رسول اللّٰه ﷺ قال: «هذا الذي تحرك له العرش، وفتحت له أبواب السماء، وشهده سبعون ألفا من الملائكة لقد ضم ضمة، ثم فرج عنه»(٣).

وقال ﷺ: «لو أفلت أحد من ضمة القبر لنجا هذا الصبي»(٤).

* * *

(١) أهوال القبور ص ٢٤٤- ٢٤٥ .

(٢) أهوال القبور ص ٢٤٤- ٢٤٥ .

(٣) أخرجه النسائي (٢٠٥٤) وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٦٩٥).

(٤) أخرجه الطبراني (١/ ١٩٣/ ١) وأخرجه الألباني في «الصحيحة» (٢١٦٤).

المبحث الثالث
فتنة القبر

عن أسماء بنت أبي بكر قالت: قام رسول اللّه ﷺ فذكر الفتنة التي يفتن بها المرء في قبره، فلما ذكر ذلك، ضج المسلمون ضجة، حالت بيني وبين أن أفهم كلام رسول اللّه ﷺ فلما سكنت ضجتهم قلت لرجل قريب مني: أي بارك الله لك ماذا قال رسول الله ﷺ آخر قوله؟ قال: «قد أوحي إلي أنكم تفتنون في القبور، قريبا من فتنة الدجال»(١).

١- ما معنى الفتنة؟

والفتنة هي الاختبار والابتلاء والامتحان.

٢- كيف تكون الفتنة؟

تكون بمجيء ملكين خاصين هما المنكر والنكير يسألان المرء عن ربه ودينه ونبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «إذا قبر الميت أو قال أحدكم أتاه ملكان أسودان أزرقان* يقال لأحدهما المنكر والنكير، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟»(٢) وجاء في الحديث الذي رواه البراء بن عازب عن الرسول ﷺ: «فيأتيه ملكان شديدا الأنتهار فينتهرانه ويجلسانه فيقولان له (من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟)»(٣)

---

(١) صحيح سنن النسائي- كتاب الجنائز- باب ضمة القبر وضغطته (٢/ ٤٤١) (١٩٤٢) قال الألباني صحيح.

* عيونهما زرقاء لما لهذه الصفة من الهول على المقبور.

(٢) أخرجه الترمذي (١٠٨٣) وحسنه الألباني.

(٣) جزء من حديث البراء بن عازب وقد سبق تخريجه.

٣- متى تكون الفتنة؟

تكون بعد الفراغ من الدفن!!

يأتياه الملكان في قبره ويجلسانه ويسألانه حتى إنه ليسمع قرع نعال المنصرفين عنه وهما يسألانه ففي رواية البراء بن عازب عن الرسول ﷺ: «أنه يسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين، حين يقال له: يا هذا؟ من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟»[١] ولهذا كان هدي النبي ﷺ أنه إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال: «استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل»[٢].

٤- تثبيت المؤمن الذي عرف التوحيد بالحجة والبرهان عند السؤال وعدم هداية المنافق إلى ذلك:

جاء في الحديث الذي يرويه البراء بن عازب عن رسول اللّه ﷺ في العبد المؤمن: «فيأتيه ملكان شديدا الانتهار فينتهرانه ويجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول ربي اللّه، فيقول ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له من هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول اللّه ﷺ، فيقولان له وما عملك فيقول قرأت كتاب اللّه فآمنت به وصدقت فينتهره فيقول: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن، ذلك حين يقول اللّه عزو وجل: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فيقول: ربي اللّه، وديني الإسلام ونبي محمد ﷺ، فينادي مناد في السماء أن صدق عبدي...

وقال في العبد الكافر وفي رواية الفاجر «ويأتيه ملكان شديدا الانتهار فينتهرانه ويجلسانه فيقولان: ما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فلا يهتدي لاسمه، فيقال: محمد! فيقول: هاه هاه لا أدري، سمعت الناس يقولون ذاك!

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٥٣) وصححه الألباني.

(٢) أحكام الجنائز وبدعها للألباني قال: أخرجه أبو داود (٢/ ٧٠) والحاكم (١/ ٣٧) والبيهقي (٤/ ٥٦) وعبد اللّه بن أحمد في زوائد الزهد (ص١٢٩) وقال الحاكم: «صحيح الإسناد» وهو كما قالا وقال النووي (٥/ ٢٩٢) بإسناد جيد.

قال: فيقال: لا دريت ولا تلوت[1]، فينادي مناد من السماء أن كذب. . .[2]
يقول الشيخ ابن عثيمين: ما أعظمها من فتنة لأن الإنسان يتلقى فيها السؤال الذي لا يمكن الجواب عليه إلا على أساس متين من العقيدة والعمل الصالح[3].

وفي الحديث ذم التقليد في الاعتقادات لمعاقبة من قال: كنت أسمع الناس يقولون شيئا فقلته[4].

وفي رواية بعد ما يجيب العبد المؤمن على أسئلة الملكين «فيقولون له: «ما يدريك؟ فيقول: «قرأت كتاب الله وآمنت وصدقت»[5] وقد تفكرت السيدة عائشة رضي الله عنها في هول الأمر وكونها امرأة ضعيفة قالت: «يا رسول الله أتبتلى هذه الأمة في قبورها فكيف بي وأنا امرأة ضعيفة؟ قال: «يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة»[6] أما المنافق والكافر فإنه لا يهتدي إلى الإجابة فيضرب بمطرقة من حديد كما جاء في رواية أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «ثم يضرب بمطرقة من حديد بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين»[7] ورواه أحمد بإسناد صحيح من حديث أبي سعيد الخدري بنحو الرواية الأولى وزاد في آخرة: فقال بعض القوم: يا رسول الله ما أحد يقوم عليه ملك في يده مطراق إلا هيل[8] فقال رسول الله ﷺ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾[9] [إبراهيم: ٢٧].

---

(١) تلوت أي لا فهمت ولا قرأت القرآن والمعنى لا دريت ولا أتيت من يدري « وإنما قالها بالياء لمؤاخاة دريت». فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتاب الجنائز باب ٨٦ (٣/ ٣٠٤).

(٢) من حديث البراء بن عازب وسبق تخريجه.

(٣) المحاضرات السنية في شرح العقيدة الواسطية (٢/ ٥٣٠).

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب الجنائز باب ٨٦ (٣/ ٣٠٥).

(٥) أخرجه أبو داود (٤٧٥٣) وصححه الألباني.

(٦) أخرجه البزار كما في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣/ ٣٩٣) وقال الألباني (صحيح لغيره).

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه- كتاب الجنائز- باب ما جاء في عذاب القبر (ص٣٨٤) (١٣٧٤).

(٨) فقد عقله.

(٩) رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في السنة (٢/ ٦١٣) وأحمد في مسنده (٣/ ٣) واللفظ لعبد الله بن أحمد.

الفصل الثاني
عذاب القبر ونعيمه
المبحث الأول: المراد بعذاب القبر وثبوته في الكتاب والسنة

مر أبو الدرداء بين القبور فقال: ما أسكن ظواهركن وفي داخلك الدواهي.

ومر الحسن على مقبرة فقال: يا لهم من عسكر ما أسكنهم وكم فيهم من مكروب[1]

قال ابن القيم: ومما ينبغي أن يعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه قبر أو لم يقبر، أكلته السباع أو احترق حتى صار رمادا، أو نسف في الهواء أو صلب أوغرق في البحر وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل المقبور[2] وقال: وقد تواترت الأخبار عن رسول اللّه ﷺ[3] في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلا، وسؤال الملكين، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به ولا نتكلم في كيفيته لكونه لا عهد لنا به في هذا الدار، والشرع لا يأتي بما تحيله العقول ولكنه قد يأتي بما تحار فيه العقول فإن عود الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا، بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا[4].

وقد ورد في القرآن الكريم ما يدل على عذاب القبر قال تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١].

---

(١) الروح ص ٩٧ .

(٢) الروح ص ٨١ .

(٣) وسنورد طائفه منها في بحثنا هذا بإذن اللّه تعالى.

(٤) تقريب وترتيب شرح العقيدة الطحاوية (٢/ ٩٩٠).

وفي رواية عن مجاهد قال في قوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ الجوع وعذاب القبر.

وقال السدي عن أبي مالك عن أبي عباس قال: «قام رسول الله ﷺ خطيبا يوم الجمعة، فقال: «اخرج يا فلان فإنك منافق، واخرج يا فلان فإنك منافق»، فأخرج من المسجد ناسا منهم فضحهم قال ابن عباس: «فهذا العذاب الأول، حين أخرجهم من المسجد والعذاب الثاني عذاب القبر. ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ أي عذاب الأخرة وهو الخلود في النار والعياذ بالله[1]. قال الطبري: «والأغلب من إحدى المرتين أنها في القبر»[2] وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

وهذا قبل قيام الساعة يعرضون عليها غدوا وعشيا وهذا يكون في قبورهم.

المبحث الثاني: استمرارية عرض مقعد المرء عليه من الجنة أو النار في القبر:

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة[3] والعشي»[4] إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة[5].

* * *

---

(١) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٣/ ٣٦٩) وهو أيضا في فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب الجنائز باب ٨٦ (٣/ ٢٩٦).

(٢) جامع البيان في تأويل (٦/ ٤٥٩).

(٣) أي ما بين الفجر وشروق الشمس.

(٤) أي ما بين الظهر والمغرب.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي (ص٣٨٥) (١٣٧٩) برواية ابن عمر رضي الله عنهما.

المبحث الثالث

١- سماع رسول الله ﷺ أصوات المعذبين وكذلك البهائم:

روى مسلم في صحيحه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: «بينما النبي ﷺ في حائط لبني النجار على بغلة له ونحن معه إذا حادت به[1] بغلة له فكادت أن تلقيه وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة، فقال: من يعرف أصحابه هذه الأقبر؟ فقال رجل: أنا قال: فمتى مات هؤلاء: قال: ماتوا في الإشراك. فقال: «إن هذه الأمة تبتلي في قبورها فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه»[2].

وعن أبي أيوب رضي الله عنه قال: «خرج رسول الله ﷺ بعد ما غربت الشمس فسمع صوتا فقال: «يهود تعذب في قبورها»[3].

وعن أنس أن النبي ﷺ سمع صوتا في قبر فقال: «متى مات هذا؟ قالوا: مات في الجاهلية، فسر بذلك وقال: «لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم عذاب القبر»[4] وعن ابن عباس قال: مر رسول الله ﷺ بحائط من حيطان مكة أو المدينة، سمع صوت إنسانين يعذبان في قبورهما فقال رسول الله ﷺ: «يعذبان وما يعذبان في كبير» ثم قال: بلى! كان أحدهما لا يستبرئ من بوله وكان الآخر يمشي بالنميمة»[5].

وعن عائشة رضي الله عنها دخلت يهودية عليها فاستوهبتها شيئا فوهبت لها عائشة

---

(١) أي مالت عن الطريق ونفرت.

(٢) صحيح مسلم (٢٨٦٧).

(٣) صحيح مسلم (٢٨٦٩).

(٤) أخرجه النسائي (١٩٤٥) وقال الألباني: صحيح.

(٥) أخرجه النسائي (١٩٥٥) وقال الألباني: صحيح.

فقالت: أجارك الله من عذاب القبر، قالت: عائشة: فوقع في نفسي من ذلك حتى جاء رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فقال: «إنهم ليعذبون في قبورهم عذابا تسمعه البهائم»(١).

عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « إن الموتى ليعذبون في قبورهم، حتى إن البهائم لتسمع أصواتهم»(٢).

وفي الحديث الصحيح الذي رواه أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ: «ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين»(٣) وقال بعض أهل العلم: «ولهذا السبب يذهب الناس بدوابهم إذا مغلت(٤) إلى قبور اليهود والنصارى والمنافقين كالإسماعيلية والنصيرية والقرامطة من بني عبيد وغيرهم الذين بأرض مصر والشام فإن أصحاب الخيل يقصدون قبورهم لذلك كما يقصدون قبور اليهود والنصاري فإذا سمعت الخيل عذاب القبر أحدث ذلك لها فزعا وحرارة تذهب بالمغل(٥).

٢- الحكمة من عدم سماعنا أصوات المعذبين:

١- ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم عذاب القبر».

٢- أن في إخفاء ذلك سترا على الميت.

---

(١) أخرجه النسائي (١٩٥٣) وقال الألباني: صحيح.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٣/ ٧٨/ ٢) كما في «الصحيحة» (٣/ ٣٦٦) وقال الألباني: إسناده لا بأس به في المتابعات (الصحيحة/ ٣/ ٣٦٦) وذكره في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٣٩١/ رقم ٣٥٤٨).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) المغل: مغص البطن يصيب الدواب إذا أكلت التراب مع البقل.

(٥) الروح ص٧٥ .

٣- أن فيه عدم إزعاج لأهله، لأن أهله إذا سمعوا ميتهم يعذب ويصيح لم يقر لهم قرار.

٤- عدم تخجيل أهله، لأن الناس يقولون هذا ولدكم، هذا أبوكم، هذا أخوكم وما أشبه ذلك.

٥- أننا قد نهلك، لأنها صيحة ليست هينة بل صيحة توجب أن تسقط القلوب من معاليقها فيموت الإنسان أو يغشى عليه.

٦- لو سمع الناس صراخ هؤلاء المعذبين لكان الإيمان بعذاب القبر من باب الإيمان بالشهادة لا من باب الإيمان بالغيب، وحينئذ تفوت مصلحة الامتحان، لأن الناس سوف يؤمنون بما شاهدوه قطعا، لكن إذا كان غائبا عنهم ولم يعلموا به إلا عن طريق الخبر صار من باب الإيمان بالغيب[١].

٧- وهذا من رحمة اللّه تعالى بالناس لأنهم لا يطيقون سماع أصوات المعذبين، فقد يصعق أو يغشى عليه وقد لا ينتفع بالعيش زمنا.

* * *

---

(١) المحاضرات السنيه في شرح العقيدة الواسطية الواسطية (٢/ ٥٣٧- ٥٣٨).

المبحث الرابع
النعيم والعذاب هل هو على الروح أو يكون على البدن والروح جميعا في الحياة البرزخية؟!

قال ابن القيم: سئل شيخ الإسلام عن هذه المسألة ونحن نذكر لفظ جوابه فقال: «بل العذاب والنعيم على النفس (الروح) والبدن جميعاً باتفاق أهل السنة والجماعة، تنعم النفس (الروح) وتعذب منفردة عن البدن، وتنعم متصلة بالبدن والبدن متصل بها، فيكون النعيم والعذاب عليهما في هذه الحال مجتمعين كما تكون على الروح منفردة عن البدن»[١]

* * *

(١) الروح ص٧٢٠ .

المبحث الخامس
صفة نعيم القبر وعذابه

١/ في البرزخ جزاء دون الجزاء يوم القيامة:

في القبر يجازي الإنسان على عمله فيعذب أو ينعم ولكن توفية الجزاء يكون يوم القيامة[١] قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] قال السعدي: في هذه الآية إشارة لطيفة إلى نعيم البرزخ وعذابه، وإن العاملين يجزون فيه بعض الجزاء، مما عملوه ويقدم لهم أنموذج مما أسلفوه يفهم هذا من قوله: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ﴾ أي توفية الأعمال التامة، إنما يكن يوم القيامة، وإما دون ذلك فيكون في البرزخ[٢].

صفة نعيم المؤمن في قبره:

ينعم المؤمن في قبره بأنواع من النعيم، وردت بها الأخبار الصحيحة عن رسول الله ﷺ فمن ذلك أنه يفسح له في قبره، وينور له فيه، وينام أطيب نومة وجاء في حديث أبي هريرة الذي رواه عن رسول الله ﷺ «ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا ثم ينور له فيه ثم يقال له: نم، فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم؟ فيقولان: نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه، حتى يبعثه الله من مضجعه»[٣]

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن في قبره لفي

(١) الروح ص ١٠٤ .

(٢) تيسر الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ١٦٠ .

(٣) أخرجه الترمذي (١٠٧١) وحسنه الألباني.

روضة خضراء فيرحب له في قبره سبعين ذراعا وينور له كالقمر ليلة البدر»[1].

ويرى المؤمن في قبره النار التي وقاه اللّه تعالى منها ليزداد فرحه وسروره ونعيمه ويرى مقعده من الجنة ففي حديث أبي هريرة ﷺ عن رسول اللّه ﷺ: «ثم يفتح له باب من أبواب الجنة فيقال له: هذا مقعدك منها، وما أعد اللّه لك فيها، فيزداد غبطة وسرورا، ثم يفتح له باب من أبواب النار فيقال له: هذا مقعدك وما أعد اللّه لك فيها لو عصيته، فيزداد غبطة وسروراً»[2] وفي حديث عائشة ﷺ عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «فيفرج له فرجة قبل النار، فينظر إليها يحطم بعضها بعضا، فيقال: «انظر إلى ما وقاك اللّه، ثم يفرج له فرجة إلى الجنة، فينظر إلى زهرتها وما فيها، فيقال: هذا مقعدك منها، ويقال: على اليقين كنت وعليه مت، وعليه تبعث إن شاء اللّه»[3] ويأتيه من روح الجنة وطيبها ويفرش له من فراش الجنة ويلبس من لباسها ويستأنس بعمله الصالح ففي حديث البراء بن عازب عن رسول اللّه ﷺ: «فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة قال: فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره، قال: «ويأتيه (وفي رواية يمثل له) رجل حسن الوجه، حسن الثياب طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك أبشر برضوان من اللّه وجنات فيها نعيم مقيم هذا يومك الذين كنت توعد فيقول له: وأنت فبشرك اللّه بخير من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير فيقول: أنا عملك الصالح، فواللّه ما علمتك إلا كنت سريعا في طاعة اللّه بطيئا في معصية اللّه، فجزاك اللّه خيرا ثم يفتح له باب من الجنة وباب من النار فيقال: هذا منزلك

---

(١) أخرجه ابن حبان (٣١٢٢) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٩٢/ ٣).

(٢) أخرجه ابن حبان (٣١١٣) والحاكم (١/ ٣٧٩- ٣٨٠) والبيهقي في «الاعتقاد» (ص٢٢٠- ٢٢٢) وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣/ ٤٠٣).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦/ ١٣٩- ٢٥١٣٣) وأخرجه ابن ماجه في سننه (٢١/ ١٤٢٦) وصححه الألباني انظر صحيح سنن ابن ماجه (٣/ ٣٨٨- ٤٣٤٤).

لو عصيت اللّه أبدلك اللّه به ، فإذا رأى ما في الجنة قال: رب عجل قيام الساعة، كيما أرجع إلى أهلي ومالي. فيقال له: اسكن»[1] ».

٣- أما الصنف الآخر المعذب في قبره والعياذ باللّه تعالى فإنه يعذب بأصناف من العذاب فيفرش قبره بفراش من النار، ويصل إليه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره ويسوؤه عمله السيء ويضرب بمرزبة من حديد، جاء في حديث البراء بن عازب عن رسول اللّه ﷺ : «فينادي مناد من السماء أن كذب عبدي، فافرشوا له من النار، وافتحوا له بابا إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه (وفي رواية: ويمثل له) رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: وأنت فبشرك اللّه بالشر، من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر، فيقول أناعملك الخبيث، فواللّه ما علمتك إلا كنت بطيئا عن طاعة اللّه، سريعا إلى معصية اللّه، فجزاك اللّه شرا ثم يقيض أعمى أصم أبكم في يده مرزبة! لو ضرب بها جبل كان ترابا، فيضربه ضربة حتى يصير بها ترابا، ثم يعيده كما كان، فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلين[2]، ثم يفتح له باب من النار ويمهد من فرش النار فيقول: رب لا تقم الساعة[3]» ويرى في قبره مقعده من النار كما يرى مقعده من الجنة الذي حرم منه ليزداد تحسره وألمه وعذابه ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «. . . ثم يفتح له باب من أبواب النار فيقال له: هذا مقعدك من النار، وما أعد اللّه لك فيها، فيزداد حسرة وثبورا، ثم يفتح له باب من أبواب الجنة فيقال له:

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٢٨٧) وأبوداوود في سننه (٤/ ٢٣٩) (٤٧٥٣) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣/ ٩٠١) (٣٩٧٩).

(٢) الثقلين: الإنس والجن، قيل ذلك لأنهما كالثقل على وجه الأرض (فتح الباري كتاب الجنائز باب (٣/ ٣٠٤).

(٣) سبق تخريجه.

هذا مقعدك منها، وما أعد الله لك فيها لو أطعته، فيزداد حسرة وثبورا، ثم يضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، فتلك المعيشة الضنكة التي قال الله: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[1] وجاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي رواه عن رسول الله ﷺ «أتدرون فيم هذه الآية: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ قال: «أتدرون ما المعيشة الضنك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: «عذاب الكافر في قبره، والذي نفسي بيده إنه يسلط عليه تسعة وتسعون تنينا «أتدرون ما التنين؟ تسعون حية لكل حية سبع روؤس يلسعونه ويخدشونه إلى يوم القيامة»[2].

٤- العذاب في القبردائم أم ينقطع؟

العذاب في القبر نوعان:

أ) عذاب دائم لا ينقطع كما في عذاب الكفار قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

وكذا في حديث البراء بن عازب في قصة الكافر: ثم يفتح له باب إلى النار فينظر إلى مقعده فيها حتى تقوم الساعة»[3].

ب) عذاب إلى أمد ثم ينقطع وهو عذاب العصاة الموحدين الذين خفت جرائمهم، فيعذب بحسب جرمه، ثم يخفف عنه، ذلك أن عذاب القبر أحد الممحصات العشر[4] إذا مات العبد ولم يطهر من ذنوبه في الدنيا. ويأتي الكلام عليها إن شاء الله.

وقد ينقطع عنهم العذاب بدعاء أوصدقة أو استغفار أو ثواب حج يصل إليه

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) صحيح سنن ابن ماجه (٢/٤١٧) (٣٤٢٦-٤٢٤٨) قال الألباني (حسن صحيح).

(٣) أخرجه أحمد (٤/٢٩٥- ٢٩٦) وغيره وهو صحيح.

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٨٢ بتصرف يسير جدا.

من بعض أقربائه وغيرهم فينبغي للإنسان أن يجتهد ويحرص على إهداء ما تيسر من ذلك خصوصا لأبويه[1].

الممحصات العشر:

وجدير بنا أن نذكر هذه الممحصات ليكون العبد على علم بما يطهره من الذنوب في الدنيا والآخرة فيحرص على الاستفادة مما يطهره في دنياه، وهذه الممحصات هي عبارة عن عشرة اسباب تسقط عن فاعل السيئات عقوبة جهنم، عرفت بالاستقراء من الكتاب والسنة:

١) **التوبة**: وهي مقبولة من كل الذنوب لا يختص بها ذنب دون ذنب قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ﴾ [النساء: ١٧] وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ [مريم: ٦٠/ الفرقان: ٧٠] وكون التوبة سببا لغفران الذنوب وعدم المؤاخذة بها، مما لا خلاف فيه بين الأمة، وليس شيء يكون سببا لغفران جميع الذنوب إلا التوبة، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] وهذا لمن تاب ولهذا قال بعدها ﴿لَا تَقْنَطُواْ﴾ وقال بعدها ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ الآية [الزمر: ٥٤].

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء ثم تبتم لتاب الله عليكم»[2].

٢)-**الاستغفار**: «قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] لكن الاستغفار تارة يذكر وحده، وتارة يقرن بالتوبة فإذا ذكر وحده دخل معه التوبة، كما إذا ذكرت التوبة وحدها شملت الاستغفار، فالتوبة تتضمن الاستغفار، والاستغفار يتضمن التوبة، وكل واحد منهما يدخل في مسمى الآخر

---

(١) الكواشف الجليه ص ٥٥١ .

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٣٢٤) وحسنه الألباني كما في «الصحيحة» (٢/رقم ٩٠٣).

عند الإطلاق، وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى، فالاستغفار طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله»[1].

٣)- **الحسنات الماحية**: قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: ١١٤] وقال تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [التغابن: ٩] وعن أبي ذر ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما عن رسول اللّه ﷺ قال: «اتق اللّه حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن»[2] وعن معاذ رضي الله عنه قال: يا رسول اللّه أوصني: قال: «اعبد اللّه كأنك تراه، واعدد نفسك في الموتى، واذكر اللّه عند كل حجر وعند كل شجر، وإذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة، السر بالسر، والعلانية بالعلانية»[3] وإن الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها، فالويل لمن غلبت آحاده أعشاره!!

٤)- **الابتلاءات والمصائب المكفرة**:

عن مصعب بن سعد عن أبيه رضي الله عنه قال: يا رسول اللّه أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على قدر دينه فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلاه اللّه على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»[4] وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٥٢ .

(٢) أخرجه الترمذي (١٩٨٧) وقال الألباني: حسن.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير وقال الألباني حسن لغيره كما في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٢٢٥) وخرجه في «السلسلة الصحيحة» (٣/رقم ١٤٧٥).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٠٩٥) وقال الألباني حسن لغيره.

ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر اللّه بها من خطاياه»[1] وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى وما عليه خطيئة»[2] فالمصائب نفسها مكفرة، وبالصبر عليها يثاب العبد، وبالتسخط يأثم، فالصبر والتسخط أمر آخر غير المصيبة، فالمصيبة، من فعل اللّه لا من فعل العبد، وهي جزاء من اللّه للعبد على ذنبه، ويكفر بها ذنبه، وإنما يثاب المرء ويأثم على فعله، والصبر والسخط من فعله، وإن كان الثواب والأجر قد يحصل بغير عمل من العبد، بل هدية من الغير، أو فضل من اللّه من غير سبب، قال تعالى: ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠] فنفس المرض جزاء وكفارة لما تقدم، وكثيرا ما يفهم من الأجر غفران الذنوب وليس ذلك مدلوله، وإنما يكون من لازمه»[3].

٥)- عذاب القبر ليس خاصا بالكفار والمنافقين:

وعذاب القبر ليس مختصا بالكافر والمنافق بل من أغضب اللّه أو أسخطه في هذه الدار من الكفار والمنافقين ثم لم يتب ومات على ذلك كان له من عذاب البرزخ بقدر غضب اللّه وسخطه عليه فمستقل ومستكثر، وسبق ذكر العصاة الذين خفت جرائمهم.

٦- دعاء المؤمنين واستغفارهم في الحياة وبعد الممات.

٧- ما يهدي إليه بعد الموت من ثواب صدقة أو قراءة أو حج، ونحو ذلك.

٨) أهوال يوم القيامة وشدائده.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه- كتاب المرضى- باب ما جاء في كفارة المرض (ص١٤٣١) (٥٦٤١- ٥٦٤٢).

(٢) صحيح سنن الترمذي - أبواب الزهد - باب الصبر على البلاء (٢/ ٢٨٦) (١٩٥٧ - ٢٥٢٣) قال الألباني: حسن صحيح.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص٤٥٤ .

٩) ما ثبت في الصحيحين: أن المؤمنين إذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض، فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة(١).

١٠) شفاعة الشافعين كما تقدم عند ذكر الشفاعة وأقسامها.

١١) عفو أرحم الراحمين من غير شفاعة، كماقال تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء ٤٨/ ١١٦] فإن كان ممن لم يشأ اللّه أن يغفر له لعظم جرمه، فلا بد من دخوله إلى الكير، ليخلص طيب إيمانه من خبث معاصيه، فلا يبقى في النار من في قلبه أدنى، أدنى، أدنى، مثقال ذرة من إيمان، بل من قال: لا إله إلا اللّه، كما تقدم من حديث أنس رضي الله عنه(٢).

***

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب في المظالم والغصب- باب قصاص المظالم (ص٦٢٩) (٢٤٤٠) وكتاب الرقاق باب القصاص يوم القيامة (ص١٦٠٣) (٦٥٣٥).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية من ص ٤٥١- ٤٥٦ بتصرف- هكذا ذكر شارح الطحاوية أحد عشر سببا مع أنه قال إن «الممحصات نحو عشرة أسباب».

المبحث السادس
أسباب عذاب القبر

على قسمين: (مجمل ومفصل)

أما المجمل: فإنه يعذبون على جهلهم بالله وإضاعتهم لأمره وارتكابهم لمعاصيه.

وأما المفصل: فقد أخبرنا النبي ﷺ بأنواع من الذنوب التي يعذب أصحابها في البرزخ وسنذكر ما اطلعنا عليه منها:

١- عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ مما يكثر أن يقول لأصحابه: «هل رأى أحد منكم من رؤيا؟ فيقص عليه من شاء الله أن يقص، وأنه قال لنا ذات غداة: «أنه أتاني الليلة آتيان، وأنهما قالا لي: انطلق، وأني انطلقت معهما، وأنَّا أتينا على رجل مضطجع، وإذا آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوى بالصخرة لرأسه، فيثلغ[1]، رأسه فيتهدهد[2] الحجر ها هنا فيتبع الحجر فيأخذه فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان، ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل المرة الأولى» قال: قلت لهما: سبحان الله. ما هذان؟ قالا لي: انطلق انطلق. فانطلقنا، فأتينا على رجل مستلق لقفاه، وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد، وإذا هو يأتي أحد شقي، وجهه فيشرشر[3] شدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه ثم يتحول إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان، ثم يعود عليه. فيفعل مثلما فعل في المرة الأولى، قال قلت: سبحان الله! ما هذان؟ قالا لي: انطلق

(١) أي يشدخه ويشقه.

(٢) أي يتدحرج.

(٣) يقطع.

انطلق، فانطلقنا فأتينا على مثل التنور ، فأحسب أنه قال: فإذا فيه لغط وأصوات، فاطلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عراة ، وإذا هم يأتهيم لهب من أسفل منهم، فإذا أتاهم ذلك اللّهب ضوضوا»[١]

قلت: ما هؤلاء؟ قالا لي: انطلق انطلق، فانطلقنا فأتينا على نهر حسبت أنه كان يقول أحمر مثل الدم، وإذا في النهر رجل سابح يسبح، وإذاعلى شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة وإذا ذلك السابح يسبح ما سبح ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عند الحجارة فيفغر[٢] له فاه فيلقمه حجرا فينطلق فيسبح، ثم يرجع إليه كلما رجع إليه فغر له فاه فألقمه حجرا قلت لهما: ما هذان؟ قالا لي: انطلق انطلق، فانطلقنا فأتينا على رجل كريه المرآة[٣]، أو كأكره ما أنت راء رجلا مرأى، فإذا هو عنده نار يحشها[٤] ويسعى حولها. قلت لهما ما هذا؟ قالا لي انطلق انطلق، فانطلقنا فأتينا على روضة معتمة[٥] فيها من كل نور[٦] الربيع وإذا بين ظهري الروضة رجل طويل، لا أكاد أرى رأسه طولا في السماء وإذا حول الرجل من أكثر ولدان ما رأيتهم قط، قلت: ما هذا؟ ما هؤلاء؟ قالا لي: انطلق ، انطلق، فانطلقنا، فأتينا إلى روضة عظيمة[٧] لم أر دوحة قط أعظم منها ولا أحسن. قالا لي: أرق فيها، فارتقينا فيها إلى مدينة مبنية بلبن[٨] ذهب ولبن فضه، فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففتح لنا فدخلناها، فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أن ترى وشطرمنهم أقبح ما أن ترى. قالا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك

(١) صاحوا.

(٢) يفتح.

(٣) المنظر.

(٤) يوقدها.

(٥) وافية النبات طويلته.

(٦) الزهر.

(٧) الشجرة الكبيرة.

(٨) بفتح فكسر، اسم جنس، واحده لبنه وأصله ما يبنى من طين بالمكان الذي أقام به.

النهر، وإذا هو نهر معترض يجري كأن ماؤه المحض[1] في البياض. فذهبوا فوقعوا فيه: ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا في أحسن صورة، قال: قالا لي هذه جنة عدن[2] وهذاك منزلك، فسمى بصري[3] صعدا، فإذا قصر مثل الربابة[4] البيضاء. قالا لي: هذاك منزلك، قلت لهما: بارك اللّه فيكما، فذراني فأدخله. قالا: أما الآن فلا وأنت داخله. قلت لهما: فإني رأيت منذ الليلة عجبا؟ فما هذا الذي رأيت؟ قالا لي: أما إنا سنخبرك: أما الرجل الأول الذي أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر، فإنه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه، وينام عن الصلاة المكتوبة، وأما الرجل الذي أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، فأنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق[5]، وأما الرجال والنساء العراة الذين هم في مثل بناء التنور، فإنهم الزناة والزواني، وأما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر ويلقم الحجارة فإنه آكل الربا، وأما الرجل الكريه المرآة الذي عند النار يحضها ويسع حولها فإنه مالك خازن جهنم، وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم. وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة، وفي رواية البرقاني: «ولدوا على الفطرة»، فقال بعض المسلمين: يا رسول اللّه: وأولاد المشركين فقال رسول اللّه ﷺ: «وأولاد المشركين، وأما القوم الذين كانوا شطرا منهم حسن وشطرا منهم قبيح، فإنهم قوم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا تجاوز اللّه عنهم»[6] وفي رواية له «رأيت الليلة رجلين أتياني فأخرجاني إلى أرض مقدسة، ثم ذكره وقال: فانطلقنا إلى نقب مثل التنور، أعلاه ضيق وأسفله واسع يتوقد تحته نارا فإذا ارتفعت ارتفعوا حتى كادوا

---

(١) اللبن.

(٢) عدن بالمكان الذي أقام فيه.

(٣) ارتفع.

(٤) السحابة.

(٥) جمع أفق: وهو الناحية.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه- كتاب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح (ص١٧٤) (٧٠٤٧).

أن يخرجوا، وأُخمدت رجعوا فيها، وفيها رجال ونساء عراة»، «وفيها حتى أتينا على نهر من دم»، ولم يشك فيه رجل قائم على وسط النهر، وعلى شط النهر رجل، وبين يديه حجارة فأقبل الرجل الذي في النهر، فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر في فيه فرده حيث كان، فجعل كلما جاء ليخرج جعل يرمي في فيه بحجر، فيرجع كما كان». وفيها: فصعدا بي الشجرة فأدخلاني دارا لم أر قط أحسن منها، فيها رجال شيوخ وشباب، وفيها: «الذي رأيته يشق شدقه فكذاب يحدث بالكذب، فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق، فيفعل به إلى يوم القيامة» وفيها: «الذي رأيته يشدخ رأسه فرجل علمه الله القرآن فنام عنه بالليل ولم يعمل فيه بالنهار فيفعل به إلى يوم القيامة، والدار الأولى التي دخلت دار عامة المؤمنين، وأما هذه الدار فدار الشهداء، وأنا جبريل وهذا ميكائيل، فارع رأسك، فرعت رأسي فإذا قومي مثل السحاب، قالا: ذاك منزلك قلت: دعاني أدخل منزلي، قال: إنه بقي لك عمر لم تستكمله، فلو استكملته أتيت منزلك»(١) قال ابن حجر: «قال أبي هبيرة: رفض القرآن بعد حفظه جناية عظيمة لأنه يوهم أنه رأى فيه ما يوجب رفضه، فلما رفض أشرف الأشياء عوقب في أشرف أعضائه وهو الرأس قوله: «وينام عن الصلاة المكتوبة» هذا أوضح من رواية جرير بن حازم بلفظ: «علمه الله القرآن فنام عنه بالليل ولم يعمل فيه بالنهار» فإن ظاهره أنه يعذب على ترك قراءة القرآن بالليل بخلاف رواية عوف فإنه على تركه الصلاة المكتوبة، ويحتمل أن يكون التعذيب على مجموع الأمرين ترك القراءة وترك العمل»(٢).

وفيه أيضا عذاب من ينام عن الصلاة المكتوبة:

يشدخ رأسه ويكسره لأن النوم موضعه الرأس إلى يوم القيامة وفيه عذاب الكذب: فينقطع جانب فمه ويشق بحديدة معوجة الرأس حتى يبلغ قفاه ثم يفعل ذلك بجانب فمه الآخر إلى يوم القيامة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب الجنائز - باب ٩٣ (ص٣٨٦) (١٣٨٦).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب التعبير (٥٥٦/١٢).

وفيه أيضا عذاب الزناة والزواني:

يكونون عراة في تنور أعلاه ضيق وأسفله واسع يوقد تحته نار إذا اقتربت ارتفعوا حتى كادوا أن يخرجوا وصاحوا فإذا خمدت رجعوا».

وفيه عذاب آكل الربا:

يسبح في نهر من دم ويأتي رجلا على شاطيء النهر يلقم ذلك السابح حجرا فيعود يسبح ثم يرجع إليه فيلقمه حجرا آخر وهكذا.

٢- عن ابن عباس رضي الله عنهما: «مر النبي ﷺ على قبرين فقال: إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، ثم قال: بلى أما أحدهما فكان يسعى بالنميمة، وأما الأخر فكان لا يستتر من بوله»[١]

وفي الحديث عذاب من يمشي بالنميمة بين الناس وكذلك من يترك الاستبراء من البول، فهذا ترك الطهارة الواجبة، وذلك أرتكب السبب الموقع للعداوة بين الناس بلسانه وإن كان صادقا[٢].

تعذيب الميت ببكاء أهله عليه:

عن عبد اللّه بن عبيد اللّه بن أبي مليكه قال: «توفيت ابنة لقمان رضي الله عنهما بمكه وجئنا لنشهدها، وحضرها ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم وإني لجالس بينهما، أو قال: جلست إلى أحدهما ثم جاء الآخر فجلس إلى جنبي فقال عبد اللّه بن عمر رضي الله عنهما لعمر بن عثمان: ألا تنهى عن البكاء! فإن رسول اللّه ﷺ قال: «إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه»[٣] عن المغيرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه- كتاب الجنائز- باب عذاب القبر من الغيبة والنميمة (ص٣٨٥) (١٣٧٨).

(٢) الروح ص١٠٨ .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب الجنائز- باب قول النبي ﷺ: «يعذب الميت ببعض بكاء أهله» إذا كان النوح من سنته (ص٣٦٤) (١٢٨٦).

ينح عليه يعذب بما نيح عليه»[1] وفي هذا الحديث بيان أن البكاء المذكور في الحديث الذي قبله ليس المراد به مطلق البكاء بل بكاء خاص وهو النياحة، يؤيد ذلك أن المحذور بعض البكاء لا جميعه كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما لما أصيب عمر، دخل صهيب يبكي يقول: واأخاه واصحباه، فقال عمر رضي الله عنه: يا صهيب أتبكي علي وقد قال رسول الله ﷺ: «إن الميت ليعذب ببعض بكاء أهله عليه!»[2].

ثم إن ظاهر هذا الحديث والذي قبله مشكل، لأنه يتعارض مع بعض أصول الشريعة وقواعدها المقرره في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤][3].

أجاب العلماء على ذلك بأجوبة نذكر منها

١- ما ذهب إليه الجمهور وهو أن الحديث محمول على من أوصى أهله بالنوح عليه وكان ذلك معروفا للقدماء حتى قال طرفة بن العبد

إذا مت فانعيني بما أنا أهله وشقي علي الجيب يا بنة معبد[4]

أو لم يوص به لكنه أهمل نهي أهله عن ذلك مع علمه بأنه من عادات الناس ويفعلونه، قال النووي: «قال ابن المرابط إذا علم المرء بما جاء في النهي عن النوح وعرف أن أهله من شأنهم أن يفعلوا ذلك ولم يعلمهم بتحريمه ولا زجرهم عن تعاطيه فإذا عذب على ذلك عذب بفعل نفسه لا بفعل غير بمجرده»[5] ومن ثم قال ابن المبارك إذا كان ينهاهم في حياته ففعلوا شيئا من ذلك بعد وفاته لم يكن

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه- كتاب الجنائز- باب ما يكره من النياحة على الميت (ص٣٦٥ (١٢٩١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه- كتاب الجنائز- باب قول النبي ﷺ «يعذب الميت ببعض بكاء أهله» إذا كان النوح من سنته (ص٣٦٤) (١٢٨٧).

(٣) أحكام الجنائز ص٤٠ .

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب الجنائز باب ٣٢ (٣/ ١٩٧) .

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب الجنائز باب ٣٢ (٣/ ١٩) .

عليه شيء[1]. وقد ضعف ابن تيمية رحمه الله هذه الأقوال وبين أن الأحاديث الصحيحة الصريحة لا ترد بمثل هذا وأن معنى التعذيب تألم الميت بما يقع من أهله من النياحة وغيرها فيرق لهم ويحزن فقال: «وأما تعذيب الميت: فهو لم يقل: أن الميت يعاقب ببكاء أهله عليه، بل قال (يعذب) والعذاب أعم من العقاب، فإن العذاب هو الألم ، وليس كل من تألم بسبب كان ذلك عقاب له على ذلك السبب، فإن النبي ﷺ قال: «السفر قطعة من العذاب، يمنع أحدكم طعامه وشرابه»، فسمي السفر عذابا، وليس هو عقابا على ذنب[2]» وقد ذكر الألباني رحمه الله أنه كان يميل إلى هذا القول برهة من الزمن ثم تبين له ضعفه لمخالفته للحديث الذي قيد العذاب بأنه (يوم القيامة) والذي جاء فيه «من نيح عليه يعذب بما نيح عليه يوم القيامة»[3] قال: «ومن الواضح أن هذا لا يكن تأويله بما ذكروا ولذلك فالراجح عندنا مذهب الجمهور»[4].

عذاب الميت ببعض أقوال أهله فيه:

وعن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «ما من ميت يموت فيقوم باكيهم فيقول: واجبلاه! واسيداه! أو نحو ذلك إلا وكل به ملكان يلهزانه: أهكذا أنت؟!»[5] عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: «أغمي على عبد اللّه بن رواحة فجعلت أخته تبكي وتقول: واجبلاه! واكذا! تعدد عليه، فقال حين أفاق: ما قلت

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب الجنائز باب ٣٢ (٣/ ١٩٥) .

(٢) مجموع فتاوي ابن تيمية (٢٤ / ٣٧- ٣٧١) .

(٣) أحاكم الجنائز ص ٤١ قال الألباني أخرجه البخاري (٣/ ١٢٦) ومسلم (٣/ ٤٥) والبيهقي (٤/ ٧٢) وأحمد (٤/ ٢٤٥، ٢٥٢، ٢٥٥)، وهو في صحيح الترغيب والترهيب ج٣ كتاب الجنائز وما يتقدمها ص ٣٧٩ حديث رقم ٣٥٢٠ قال الألباني صحيح.

(٤) أحكام الجنائز ص ٤٢ .

(٥) أخرجه الترمذي (١٠٠٣) وقال الألباني: حسن.

شيئا إلا قيل لي: أنت كذلك؟![1].

الغلول:

عن أبي هريرة ﷺ قال: خرجنا مع النبي ﷺ إلى خيبر ففتح الله علينا فلم نغنم ذهبا ولا ورقا غنمنا المتاع والثياب ثم انطلقنا إلى الوادي ومع رسول الله ﷺ عبد له وهبه له رجل من جذام يدعى رفاعة ابن زيد من بني الضبيب، فلما نزلنا الوادي قام عبد رسول الله ﷺ فرمى بسهم فكان فيه حتفه، فقلنا: هنيئا له الشهادة يا رسول الله قال رسول الله ﷺ: «كلا والذي نفس محمد بيده إن الشمله لتلهب عليه نارا أخذها من الغنائم يوم خيبر لم تصبها المقاسم، قال: ففزع الناس فجاء رجل بشراك أو شراكين فقال: يا رسول الله أصبت يوم خيبر، فقال رسول الله ﷺ: «شراك من نار أو شراكان من نار»[2].

المدين محبوس في قبره بدينه:

عن سعد بن الأطول أن أخاه مات وترك ثلاثمائة، وترك عيالا فأردت أن أنفقها على عياله، فقال النبي ﷺ: «إن أخاك محتبس بدينه، فاقض عنه» فقال: يا رسول الله! قد أديت عنه إلا دينارين، ادعتهما امرأة وليس لها بينه، قال: «فاعطها فإنها محقة»[3] وعن سمرة بن جندب: «أن النبي ﷺ صلى على جنازة (وفي روايه صلى الصبح) فلما انصرف قال: أها هنا من آل فلان أحد؟ (فسكت القوم، وكان إذا ابتداهم بشئ سكتوا، فقال ذلك مرارا (ثلاثا لا يجيبه أحد)، (فقال الرجل هو ذا) قال: فقام رجل يجر إزارة من مؤخر الناس (فقال له النبي ﷺ: ما منعك في المرتين الأولين أن تكون أجبتني؟» أما إني لم أنوه باسمك إلا لخير إن

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه- كتاب المغازي- باب غزوة مؤته من أرض الشام (ص١٠٦٢) (٤٢٦٧).

(٢) أخرجه مسلم باب بيان غلظ تحريم الغلول (١٢٨/٢).

(٣) صحيح سنن ابن ماجه (٥٧/٢) باب أداء الدين عن الميت (١٩٧٩- ٢٤٣٣) قال الألباني: صحيح.

فلانا لرجل منهم مأسور بدينه عن الجنة، فإن شئتم فافدوه وإن شئتم فأسلموه إلى عذاب اللّه، فلو رأيت أهله يتحرون أمره قاموا فقضوا عنه، (حتى ما أحد يطلبه بشيء)[١] فالمدين محبوس في قبره عن الجنة حتى يقضى عنه دينه: بل إن الشهيد تكفر خطاياه إلا الدين قال رجل لرسول اللّه ﷺ «يا رسول اللّه أرأيت إن قتلت في سبيل اللّه تكفر عني خطاياي؟ فقال رسول اللّه ﷺ: «نعم إن قتلت في سبيل اللّه وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر ثم قال رسول اللّه ﷺ: «كيف قلت؟ «قال: أرأيت إن قتلت في سبيل اللّه أتكفر عني خطاياي؟ فقال الرسول ﷺ» «نعم وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر إلا الدين فإن جبريل عليه السلام قال لي ذلك»[٢].

فاحذر أخي الذنوب والمعاصي بأنواعها صغيرها وكبيرها وإذا قارفت شيئا فأحدث له توبة يقول ابن القيم: «فعذاب القبر عن معاصي القلب والعين والأذن والفم واللسان والبطن والفرج واليد والرجل والبدن كله، فالنمام والكذاب والمغتاب وشاهد الزور وقاذف المحصن والداعي إلى البدعة والقائل على اللّه ورسوله ما لا علم له به وآكل الربا وآكل أموال اليتامى، وآكل السحت من الرشوة والبراطيل ونحوها وشارب المسكر، والزاني واللوطي والسارق والخائن وقاتل النفس التي حرم اللّه والملحد في حرم اللّه، ونواحوا جهنهم وهم المغنون الغناء الذي حرمه اللّه ورسوله والمستمع إليهم، والذين يبنون المساجد على القبور

---

(١) قال الألباني في أحكام الجنائز ص ٢٦: أخرجه أبو داود (٢- ٨٤) والنسائي (٢- ٢٣٤) والحاكم(٢-٢٥-٢٦) والبيهقي (٦- ٤- ٧٦) والطيالسي في مسنده (رقم، ٨٩١، ٨٩٢) وكذا أحمد (٥- ٢٠، ١٣، ١١) بعضهم عن الشعبي عن سمرة، وبعضهم أدخل بينهما سمعان ابن مشنج، وهو على الوجه الأول، صحيح على شرط الشيخين كما قال الحاكم ووافقه الذهبي، وعلى الوجه الثاني صحيح فقط. والرواية الأخرى بمسندين، والزيادة الأولى والثانية للحاكم، وكذا الثالثة والخامسة وللبيهقي الثانية، ولأحمد الثالثه والرابعة، وللطيالسي الخامسة، وله ولأحمد وأبي داود السادسة.

(٢) أخرجه مسلم- كتاب الإمارة- باب من قتل في سبيل اللّه كفرت خطاياه إلا الدين برقم (١٨٨٥).

ويوقدون عليها القناديل والسرج والمطففون والجبارون والمتكبرون والمرائون والهمازون واللمازون والطاعنون على السلف والذين يأتون الكهان والمنجمين والعرافين فكل هؤلاء وأمثالهم يعذبون في قبورهم بهذه الجرائم بحسب كثرتها وقلتها وصغيرها وكبيرها»(١).

الأمور المنجيه من عذاب القبر:

١- الإكثار من الأعمال الصالحة:

وبذل الجهد في إخلاصها للّه تعالى ومتابعة الرسول ﷺ فلا يقبل عمل بدون هذين الشرطين، وقضاء الحقوق، والتوبة من الذنوب والمعاصي كلها أمور يرجى لصاحبها أن ينجو من عذاب القبر فإن الصلاة والصوم والزكاة والحج وفعل الخيرات تحفظ العبد المؤمن وتحرسه في قبره: «عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الميت إذا وضع في قبره إنه يسمع خفق نعالهم حين يولون مدبرين، فإن كان مؤمنا كانت الصلاة عند رأسه وكان الصيام عن يمينه وكانت الزكاة عن شماله وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلاة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه، فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى عن يمينه فيقول الصيام: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى عن يساره فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى من قبل رجليه فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلاة والمعروف والإحسان إلى الناس: ما قبلي مدخل، فيقال له: اجلس، فيجلس قد مثلت له الشمس، وقد آذنت (أي دنت) للغروب، فيقال: أرأيتك هذا الذي كان قبلكم، ما تقول فيه، وماذا تشهد عليه، فيقول: دعوني حتى أصلي، يقولون إنك ستفعل، أخبرنا عما نسألك عنه، أرأيت هذا الرجل الذي كان قبلكم، ما تقول فيه وماذا تشهد عليه، قال فيقول: محمد، أشهد أنه رسول اللّه ﷺ، وأنه جاء بالحق من عند اللّه فيقال له: على ذلك حييت وعلى ذلك مت، وعلى ذلك تبعث إن

---

(١) الروح ص ١٠٩- ١١٠ باختصار.

شاء اللَّه، ثم يفتح له باب من أبواب الجنة فيقال له: هذا مقعدك منها وما أعد اللَّه لك فيها، فيزداد غبطة وسرورا، ثم يفتح له باب من أبواب النار، فيقال له: هذا مقعدك وما أعد اللَّه لك فيها لو عصيته فيزداد غبطة وسرورا، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا، وينور له في قبره، ويعاد الجسد لما بدئ منه، فتجعل نسمته في النسم الطيب، وهي طير تعلق (تأكل) من شجر الجنة، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وإن الكافر إذا أتى من قبل رأسه لم يوجد شيء، ثم أتى عن يمينه فلا يوجد شيء ثم أتى عن شماله فلا يوجد شيء، ثم أتى من قبل رجليه فلا يوجد شيء فيقال له: اجلس، فيجلس مرعوبا خائفا، فيقال: أرأيتك هذا الرجل الذين كان فيكم، ماذا تقول فيه؟ ماذا تشهد عليه؟ فيقول: أي رجل؟ ولا يهتدي لاسمه، فيقال له محمد فيقول: لا أدري سمعت الناس قالوا قولا، فقلت كما قال الناس، فيقال له: على ذلك حييت وعليه مت، وعليه تبعث إن شاء اللَّه، ثم يفتح له باب من أبواب النار فيقال له هذا مقعدك من النار وما أعد اللَّه لك فيها فيزداد حسرة وثبورا، ثم يفتح له باب من أبواب الجنة، فيقال له: هذا مقعدك منها وما أعد اللَّه لك فيها لو أطعته، فيزداد حسرة وثبورا ثم يضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، فتلك المعيشة الضنكة التي قال اللَّه: «فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى» رواه الطبراني في (الأوسط) وابن حبان في «صحيحه واللفظ له، وزاد الطبراني» قال أبو عمر يعني الضرير: قلت لحمار بن سلمة: كان هذا من أهل القبلة؟ قال: نعم، قال أبو عمر: «كان يشهد بهذه الشهادة على غير يقين يرجع إلى قلبه، كان يسمع الناس يقولون شيئا فيقوله[(١)] انتبه أخي إلى أهمية العلم بالشروط السبعة التي قيد بها انتفاعك بقول «لا إله إلا اللَّه» لتنجيك من العذاب في قبرك واليقين أحدها:

---

(١) سبق تخريجه وانظر «صحيح الترغيب والترهيب» (٣/ ٤٠٣).

وبـشـروط سـبـعـة قـد قـيـدت في نصوص الوحي حقا وردت
فـإنـه لـم يـنـتـفـع قـائـلـهـا بالنطق إلا حيث يستكملها
الـعـلم والـيـقـيـن والـقـبـول والانـقـيـاد فـادر مـا أقـول
والـصـدق والإخـلاص والـمـحـبـة وفـقـك الـلّه لـم أحـبـه[1]

وفي رواية للطبراني: «يؤتى الرجل في قبره، فإذا أتي من قبل رأسه دفعته تلاوة القرآن، وإذا أتي من قبل يديه دفعته الصدقة، وإذا أتي من قبل رجليه دفعه مشيه إلى المساجد[2]».

٢- الاستعاذة باللّه من فتنة القبر وعذابه:

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إذا تشهد أحدكم فليستعذ باللّه من أربع يقول: «اللّهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن شر فتنة المسيح الدجال»[3] ».

وعن ابن عباس أن رسول اللّه ﷺ كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن يقول: «قولوا اللّهم إنا نعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات»[4].

٣- الاستشهاد في ساحة القتال

عن رجل من أصحاب النبي ﷺ «أن رجلا قال: يارسول اللّه ما بال المؤمنين

---

(١) معارج القبول (٢/ ٥١٨).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٩/ ١٦٦) (٩٤٣٨) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٤٠٥).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب استحباب التعوذ من عذاب القبر وعذاب جهنم برقم (٥٨٨).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب استحباب التعوذ من عذاب القبر وعذاب جهنم برقم (٥٩٠).

يفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟ قال: كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة»(١)

وقال رسول اللّه ﷺ: «للشهيد عند اللّه ست خصال: يغفر له في أول دفعة، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه»(٢)

٤- الرباط في سبيل اللّه تعالى:

عن سلمان قال سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله أُجري عليه رزقه وأمن الفتان»(٣)

٥- الموت بداء البطن:

عن عبد اللّه بن يسار قال: «كنت جالسا وسليمان بن صرد وخالد بن عرفطه، فذكروا إن رجلا توفي، مات ببطنه، فإذا هما يشتهيان أن يكونا شهدا جنازته فقال أحدهما للآخر: ألم يقل رسول اللّه ﷺ: «من يقتله بطنه فلن يعذب في قبره؟» فقال الآخر: بلى وفي رواية: صدقت»(٤).

---

(١) أحكام الجنائز ص ٥٠ قال الألباني: رواه النسائي (١- ٢٨٩) وعنه القاسم السرقسطي في (غريب الحديث) (٢- ١٦٥- ١) وسنده صحيح.

(٢) أحكام الجنائز ص ٥٠ قال الألباني: أخرجه الترمذي (٣/ ١٧) وصححه، وابن ماجة (٢/ ١٨٤) وأحمد (٤- ١٣١) وإسناده صحيح، ثم أخرجه (٤- ٢٠٠) من حديث عبادة بن الصامت ومن حديث قيس الجذامي (٤- ٢٠٠) وإسنادهما صحيح أيضا قال الألباني بعد إيراد الحديثين (تنبيه): ترجى هذه الشهادةلمن سألها مخلصا من قلبه ولو لم يتيسر له الاستشهاد في المعركة بدليل قوله ﷺ: «من سأل اللّه الشهادة بصدق بلغه اللّه منازل الشهداء وإن مات على فراشه» أخرجه مسلم (٦- ٤٩) والبيهقي (٩- ١٦٩) عن أبي هريرة، وله في المستدرك (٢- ٧٧) شواهد.

(٣) أخرجه مسلم كتاب الإمارة- باب فضل الرباط في سبيل اللّه برقم (١٩١٣).

(٤) أحكام الجنائز ص ٥٣ قال الألباني: أخرجه النسائي (١- ٢٨٩) والترمذي (٢- ١٦٠) وحسنه، وابن حبان في صحيحه (رقم ٧٢٨- موارد) والطيالسي (١٢٨٨) وأحمد (٤- ٢٦٢) وسنده صحيح.

٦- **قراءة سورة تبارك:**

عن عبد اللّه بن مسعود ﷺ قال: «يؤتى الرجل في قبره، فتؤتى رجلاه، فتقول ليس لكلم على مما قبلي سبيل، كان يقرأ علي «سورة الملك» ثم يؤتى من قبل صدره، أو قال بطنه فيقول: ليس لكم على ما قبلي سبيل، كان أوعى في (سورة الملك) ثم يؤتى من قبل رأسه، فيقول: ليس لكم على ما قبلي سبيل، كان يقرأ بي (سورة الملك)، فهي المانعة تمنع عذاب القبر، وهي في التوراة (سورة الملك) «من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطيب» رواه الحاكم وقال (صحيح الإسناد) وهو في النسائي مختصر «من قرأ تبارك الذي بيده الملك كل ليلة منعه اللّه عز وجل بها من عذاب القبر»[1].

٧- **الموت يوم الجمعه أو ليلتها:**

قال الرسول ﷺ: «ما من مسلم يموت يوم الجمعه أو ليلة الجمعه، إلا وقاه اللّه فتنة القبر»[2].

وبعد.. أخي الكريم.. هذه القبور منازلنا الثانية.. تنتظرنا.. فهل هيأناها للنزول فيها؟! هل عمرناها كما عمرنا منازلنا في الدنيا؟!

عن عبد اللّه بن العيزار قال: لو بنى ابن آدم بيتان: بيت على ظهر الأرض، وبيت في بطن الأرض، فعمد للذي على ظهر الأرض فزخرفه وزينه، وجعل فيه أبواب للشمال وأبواب للجنوب، وضع فيه ما يصلحه لشتائه وصيفه ثم عمد إلى الذي في بطن الأرض فأخربه، فأتى عليه آت، فقال: أرأيت هذا الذي أراك قد

---

(١) أخرجه عبد الرزاق الصنعاني (٣/ ٣٧٩) والحاكم (٢/ ٤٩٧) والبيهقي في «الشعب» (٢/ ٤٩٤) وحسنه الألباني كما في «صحيح الترغيب والترهيب».

(٢) أحاكم الجنائز ص ٥٠ قال الألباني: أخرجه أحمد (٦٥٨٢- ٦٦٤٦) والنسوي في المعرفة (٢- ٥٢٠) من طريقين عن عبد اللّه بن عمرو، والترمذي من أحد الوجهين، وله شواهد عن أنس وجابر بن عبد اللّه وغيرهما، فالحديث بمجموع طرقه حسن أو صحيح.

اصحلته كم تقيم فيه؟ قال: لا أدري. قال: فالذي قد أخربته كم تقيم فيه؟ قال فيه مقامي قال: تقربها على نفسك وأنت رجل يعقل؟![1]

عن ابن شوذب قال: «اطلعت امرأة إلى قبر، فرأت اللحد، فقالت لامرأة معها: ما هذا: يعني اللحدقالت: هذا كندوج العمل، قال: وكانت تعطيها الشيء وتقول اذهبي فضعي هذا في كندوج العمل[2].

وأتى رجل قبرا محفورا، فطالع في اللحد، فبكى واشتد بكائه قال: أنت واللّه بيتي حقا، واللّه إن استطعت لأعمرنه[3]

بم تعمر القبور؟

بالأعمال الصالحة ولا شيء غيرها يدخل معنا قبورنا... عن أنس ابن مالك قال: قال رسول اللّه ﷺ: «يتبع الميت ثلاثة : أهله، وماله، وعمله، فيرجع اثنان: أهله وماله، ويبقى واحد عمله» [4].

ما صاحب الإنسان من بعد موته   إلى قبره إلا الذي كان يعمل
إنما الإنسان ضيف لأهله   يقيم قليلا عندهم ثم يرحل[5]

وقال آخر:

تمر أقاربي جنبات قبري   كأن أقاربي لا يعرفوني
وذووا الأموال يقتسمون مالي   ولا يألون إن جحدوا ديوني
قد أخذوا سهامهم وعاشوا   فباللّه ما أسرع ما نسوني[6]

---

(١) أهوال القبور ص ٢٤٤ .

(٢) أهوال القبور ص ٢٢٥ .

(٣) أهوال القبور ص ٢٢٦ .

(٤) صحيح سنن النسائي باب النهي عن سب الأموات (٤١٧/٢) (٨٢٩) قال الألباني: صحيح.

(٥) أهوال القبور ص ٢٤٨ .

(٦) أهوال القبور ص ٢٤٧ .

إذا لم نعمر قبورنا اليوم... فمتى نعمرها؟

أخي الحبيب،،،، عند الصباح يحمد القوم السرى!! قال شذر بن الحارث: «نعم المنزل القبر لمن أطاع الله[1] لأنه في راحة ونعيم: «قال رسول الله ﷺ حين مر عليه بجنازة: مستريح ومستراح منه، قالوا: يا رسول الله، ما المستريح والمستراح منه؟ قال: «العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله عز وجل، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب»[2].

قال مسروق: «ما أغبط شيئا بشيء كمؤمن في لحده أمن العذاب واستراح من الدنيا»[3]

***

(١) أهوال القبورص ٢٤٥ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق باب سكرات الموت (ص١٥٩٩) (٦٥١٢).

(٣) الزهد ص٤٨٥ .

الباب الثالث
القيامة الكبرى

الفصل الأول
النفخ في الصور
المبحث الأول: (المراد بالصور)

لم يجعل اللّه تعالى هذه الأرض داراً للبقاء، إنما هي دار إختبار وإبتلاء، قد كتب اللّه عليها الفناء، والأحياء على ظهرها ضيوف مرتحلين، يشيعون كل يوم مغادرا إلى الدار الآخرة، يضعونه بين أطباق الثرى، ويلبث هؤلاء في قبورهم إلى أن يموت جميع الخلائق «وذلك بنفخة الصعق» قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

والصور في لغة العرب القرن، وبذلك فسره الرسول ﷺ، عن عبد اللّه بن عمروبن العاص رضي الله عنهما قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصور؟ قال: «القرن ينفخ فيه»(١) وقد اشتهر أن صاحب الصور الذي ينفخ فيه هو إسرافيل عليه السلام.

وقد أوكله اللّه تعالى به وهو مستعد للنفخ فيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن طرف صاحب الصور منذ وكل به مستعد ينظر نحو العرش، مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه، كأن عينيه كوكبان دريان»(٢) وإذا تخيل المرء وضع إسرافيل وهو في تمام استعداده للنفخ في الصور فلن يهنأ له بال ولن ينعم بشيء من هذه الدنيا، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه

---

(١) صحيح سنن الترمذي (١/ ١٠٠) (٢٥٨٦) قال الألباني: صحيح. وهو في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٤٠٨) (٣٥٦٨).

(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ٥٥٨- ٥٥٩) وحسنه الحافظ في «الفتح» (١١/ ٣٦٨) وأخرجه الألباني في «الصحيحه» (٣/ ١٠٧٨).

ﷺ: «كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن وحنى جبهته، وأصغى سمعه، ينتظر أن يؤمر فينفخ؟! فكأن ثقل على أصحابه فقالوا: «كيف نفعل يا رسول اللّه؟ أو نقول؟ قال: قولوا حسبنا اللّه ونعم الوكيل، على اللّه توكلنا- وربما قال: توكلنا على اللّه»[1]

* * *

(١) صحيح سنن الترمذي أبواب فضائل القرآن- باب سورة الزمر (٣/ ١٠٠) (٢٥٨٥) وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/٤٠٨) (٣٥٢٩): صحيح لغيره.

المبحث الثاني
اليوم الذي يكون فيه النفخة

تقوم الساعة في يوم الجمعة، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة[١]» لذا تكون المخلوقات كل يوم جمعة مشفقة خائفة إلا الإنس والجن عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول اللَّه ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة: فيه خلق آدم وفيه أهبط، وفيه تيب عليه وفيه مات، وفيه تقوم الساعة، وما من دابة إلا وهي مصيخة[٢] يوم الجمعة، من حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقاً من الساعة، إلا الجن والإنس، وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي يسأل اللَّه حاجته إلا أعطاه إياها[٣]».

* * *

(١) صحيح سنن الترمذي باب فضل صلاة الجمعة (١/ ١٥٢) (٤٠٥- ٤٩٢) قال الألباني: صحيح.

(٢) مصيخة: من الإصاخة وهي الإنصات والاستماع، فهي مستمعة تتوقع قيام الساعة.

(٣) صحيح سنن أبي داود باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة (١/ ١٩٥) (٩٢٤- ١٠٤٦) قال الألباني: صحيح.

المبحث الثالث
عدد المرات التي ينفخ فيها في الصور

اختلف أهل العلم في عدد المرات التي ينفخ فيها في الصور، فذهب جمع من أهل العلم منهم الحافظ ابن حجر(١) والقرطبي(٢) إلى أنهما نفختان: نفخة الصعق ونفخة البعث، وذهب آخرون منهم ابن تيمية(٣) وابن كثير(٤) إلى أنها ثلاث نفخات: نفخة الفزع ونفخة الصعق ونفخة البعث، وذهب ابن حزم(٥) إلى أنهما أربع نفخات: نفخة إماتة يموت بها من بقي حيا على الأرض، ونفخة إحياء يبعث بها الموتى للحساب، ونفخة فزع وصعق يفيقون منها كالمغشي عليه لا يموت منها أحد، والرابعة نفخة إفاقة من ذلك الغشي، والذي يظهر أنهما نفختان فقط يدل على ذلك قول اللّه تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦-٧]، والراجفة: النفخة الأولى، والرادفة: النفخة الثانية، كما فسرها ابن عباس(٦).

وقال تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٤٩- ٥١]، الصيحة هنا هي النفخة الأولى، والنفخ في الصور المراد به النفخة الثانية.

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب الرقاق (١١/ ٤٤٩).
(٢) التذكرة للقرطبي ص ٢٢١ .
(٣) مجموع فتاوي ابن تيمية (٤/ ٢٦٠).
(٤) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٣/ ٣٧٧- ٥٧٢) (٤- ٦٢).
(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب الرقاق (١١/ ٤٤٩).
(٦) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب الرقاق (١١/ ٤٤٩).

وثبت في صحيح مسلم من حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاص أنهما نفختان « . . . ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا ثم يرسل اللّه مطرا كأنه اطل فتنبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون[١]» وأخرج البيهقي بسند قوي عن ابن مسعود موقوفا «ثم يقوم ملك الصور بين السماء والأرض فينفخ فيه، والصور قرن، فلا يبقى خلق في السموات والأرض إلا مات إلا من شاء ربك ثم يكون بين النفختين ما شاء اللّه أن يكون»[٢] وفي سنن أبي داود عن أوس بن أوس قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم وفيه قبض وفيه النفخة وفيه الصعقة. . »[٣] وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه «بين النفختين أربعون. . . »[٤] وفي كل ذلك دلالة على أنهما نفختان فقط.[٥] واحتج من قال أنها ثلاث نفخات بقول اللّه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧] فقالوا هذه النفخة الأولى نفخة الفزع، ثم أخبر اللّه تعالى عن النفختين في آية الزمر: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] كما احتجوا بحديث الصور الطويل، أخرجه الطبري وفيه: «ثم ينفخ في الصور ثلاث نفخات نفخة الفزع ونفخة الصعق ونفخة القيام لرب العالمين»[٦] أما احتجاجهم

---

(١) رواه مسلم (كتاب الفتن) باب خروج الدجال ومكثه في الأرض برقم (٢٩٤٠).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١١/٤٤٩) كتاب الرقاق ذكره ابن حجر.

(٣) صحيح سنن أبي داود باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة (١/١٩٦) (٩٢٥- ١٠٤٧) قال الألباني صحيح.

(٤) رواه مسلم كتاب الفتن- باب ما بين النفختين برقم (٢٩٥٥) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨] برقم (٤٩٣٥) .

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب الرقاق (١١/٤٤٩) .

(٦) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب الرقاق (١١/٤٤٩) .

بآية النمل التي ذكرت نفخة الفزع فكما يقول ابن حجر «لا يلزم من مغايرة الصعق للفزع ألا يحصلا معا من النفخة الأولى»[1] وقال القرطبي: «ونفخة الفزع هي نفخة الصعق لأن الأمرين لازمان لها أي فزعوا فزعا ماتوا منه»[2].

وأما احتجاجهم بحديث الصور فالحديث كما يقول الحافظ ابن حجر سنده ضعيف ومضطرب[3] وأما ما قاله ابن حزم من أن النفخات أربع فقد تعقب ابن حجر كلامه وقال: وهذا الذي ذكره من كون الثنتين أربعا ليس بواضح بل هو نفختان فقط ووقع التغاير في كل منهما باعتبار من يستمعها، فالأولى: يموت بها من كان حيا ويغشى على من لم يمت ممن استثنى اللّه والثانية: يعيش بها من مات ويفيق بها من يغشى عليه واللّه أعلم[4].

* * *

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب الرقاق (١١/ ٤٤٩).

(٢) التذكرة للقرطبي ص ٢٠٩.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب الرقاق (١١/ ٤٤٩).

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء (٦/ ٥٤٢).

المبحث الرابع
سرعة هلاك العباد حين تقوم الساعة

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: ٤٩] أي النفخة الأولى التي يكون بها فزعهم وموتهم، تصيبهم ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أي وهم لاهون عنها لم تخطر على قلوبهم في حال خصومتهم، وتشاجرهم بينهم، الذي لا يوجد في الغالب إلا وقت الغفلة[١]، قال تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧] أي إلا فجأة كل في عمله ومتجره ومختلف شأنه[٢]، لم يستعدوا لها ولم يتهيأوا للقائها[٣] قال تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٥٠] لا يستطيعون توصية على ما يملكونه، الأمر أهم من ذلك ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ من أعمالهم وأسواقهم[٤]، وجاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «. . . ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط[٥] حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه فلا يطعمها»[٦].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير الكلام المنان ص ٦٩٧ .

(٢) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٢/ ٢٦٠).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ٣١١ .

(٤) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٣/ ٥٢٧).

(٥) يليط: قال ابن حجر العسقلاني: يقال ألاط حوضه إذا مدره أي جمع حجارة فصيرها كالحوض ثم سد ما بينهما من الفرج بالمدر ونحوه لينحبس الماء، هذا أصله، وقد يكون للحوض خروق فيسدها بالمدر (الطين) قبل أن يملأه، وفي كل ذلك إشارة إلى أن القيامة تقوم بغتة (فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتاب الرقاق- (١١/ ٤٤٣).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه- كتاب الرقاق- باب ٤٠ (/١٥٩٨) (٦٥٠٦).

المبحث الخامس
الذين استثناهم اللَّه تعالى
من الفزع والصعق

اختلف العلماء في تعيين المستثنين من الفزع والصعق والصحيح أنه لم يرد نص صحيح في الكتاب أو السنة يحدد من استثناه اللَّه فإن اللَّه أطلق في كتابه[(١)] وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «لا تخيروني على موسى فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطش[(٢)] بجانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي أو كان ممن استثنى اللَّه[(٣)]» قال شيخ الإسلام ابن تيمية: النبي ﷺ قد توقف في موسى، وهل هو داخل في الاستثناء فيمن استثناه اللَّه أم لا؟ فإذا كان النبي ﷺ لم يخبر بكل من استثنى اللَّه، لم يمكننا نحن أن نجزم بذلك، وصار هذا مثل العلم بوقت الساعة وأعيان الأنبياء، وأمثال ذلك مما لم يخبر به، وهذا العلم لا ينال إلا بالخبر[(٤)].

***

(١) مجموع فتاوي ابن تيمية (٤ / ٢٦١) .

(٢) باطش: أي آخذ بشيء من العرش بقوة (ذكره ابن حجر في فتح الباري (٦/ ٥٤١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب أحاديث الأنبياء - باب وفاة موسى وذكره بعد (ص٨٧٤) (٣٤٠٨).

(٤) مجموع فتاوي ابن تيمية (٤/ ٢٦١) .

المبحث السادس
ما بين النفختين أربعون

بين نفخة الصعق ونفخة البعث مدة زمنية جاء بيانها في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أربعون، قال: أربعون يوما؟ قال: أبيت، قال أربعون شهرا، قال: أبيت، قال: أربعون سنة؟ قال: أبيت...»[1] [2] وقول أبي هريرة أبيت أي امتنعت عن القول بتعيين ذلك لأنه ليس عندي في ذلك توقيف[3] وقال النووي: أبيت أن أجزم أن المراد أربعون يوماً أو سنة أو شهرا بل الذي أجزم به أنها أربعون[4] وما ذكر من تعيينها بأنها أربعين سنة أو جمعة فلا دليل على صحته قال ابن حجر العسقلاني: وزعم بعض الشراح أنه وقع عند مسلم أربعين سنة ولا وجود لذلك، نعم أخرج ابن مردويه من طريق سعيد بن الصلت عن الأعمش في هذا الإسناد «أربعون سنة» وهو شاذ، ومن وجه ضعيف عن ابن عباس قال: «ما بين النفخة والنفخة أربعون سنة» ذكره في أواخر سورة ص وكأن أبا هريرة لم يسمعها إلا مجملة فلهذا قال لمن عينها له: «أبيت» ووقع في جامع ابن وهب «أربعين جمعة» وسنده منقطع[5].

***

(١) رواه مسلم في صحيحه- كتاب الفتن باب ما بين النفختين برقم (٢٩٥٥).

(٢) أخرجه البخاري- كتاب التفسير باب ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨] (ص١٢٧١) (٤٩٣٥).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب التفسير (٨/ ٧٠٢).

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي (١٨/ ٩١).

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب التفسير (٨/ ٧٠٢).

الفصل الثاني
البعث والحشر وأهوال القيامة
وأحوال الناس فيها
المبحث الأول: إنبات الأجساد

يبعث اللَّه تعالى الخلق فيحييهم يوم القيامة قال تعالى: ﴿وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦] وقد بليت أجساد العباد وأكلها التراب وبقي عظماً واحدا يعاد تركيب الخلق عليه روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ما بين النفختين أربعون ثم ينزل اللَّه من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل قال وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظما واحدا وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة»(١) وعجب الذنب عظم لطيف في أصل الصلب، وهو رأس العصعص، وهو مكان رأس الذنب من ذوات الأربع فيفنى الجسد كله ويبقى عجب الذنب وقال العلماء: هذا عام يخص منه الأنبياء لأن الأرض لا تأكل أجسادهم(٢) كما دلت على ذلك النصوص الصحيحة ففي الحديث الذي رواه أبو داود عن ابن أوس بن أوس قال رسول اللَّه ﷺ: أن اللَّه عز وجل حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»(٣) وينزل اللَّه تعالى من السماء ماء قبل النفخة الثانية فتنبت منه الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه- كتاب التفسير- باب ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [الزمر: ١٨] (ص١٢٧١) (٤٩٣٥).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/ ٧٠٢- ٧٠٣) وكذا قال النووي في شرح صحيح مسلم (١٨/ ٩٢).

(٣) صحيح سنن أبي داود (١/ ١٩٦) باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة رقم الحديث (١/ ١٩٦) (٩٢٥- ١٠٤٧) قال الألباني صحيح.

الأرض كما جاء في حديث أبي هريرة السابق ذكره وكذلك في حديث عبدالله بن عمرو بن العاص وفيه عن رسول الله ﷺ قال: «ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا اصغى ليتا ورفع ليتا قال: وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله قال: فيصعق ويصعق الناس ثم يرسل الله أو قال ينزل الله مطرا كأنه الطل أو الظل فتنبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون»(١) وهذا المعنى كثير في القرآن الكريم يضرب الله مثلا للبعث والنشور بإحياء الأرض بعد موتها بنزول المطر وإنبات النبات.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧] وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩].

فقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ يدل على التشابه بين إحياء الأجساد وإحياء الأرض، فالحبة تنبت بنزول ماء المطر عليها وتنمو وتكبر حتى تتكامل، وكذلك عجب الذنب الذي يبقى من الإنسان في الأرض عندما يصيبه الماء فينبتون كما ينبت البقل.

فإذا اكتمل نمو الأجساد أمر الله تعالى إسرافيل فينفخ في الصور النفخة الثانية فتعاد الأرواح إلى أجسادها ويخرجون من أسفل الأرض إلى أعلاها قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣- ١٤] وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤١- ٤٢] وذلك حين تبعثر القبور، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ [الانفطار: ٤] وتخرج الأرض ما في بطنها من الموتى أحياء إلى ظهرها وتتخلى منهم إلى الله تعالى، قال عز وجل: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢]

---

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الفتن- باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض برقم (٩٢٤٠).

وقال عز وجل: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ٤] وأول من تنشق عنه الأرض هو نبينا محمد ﷺ ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع»[١].

* * *

(١) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الفضائل- باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق برقم (٢٢٧٨).

المبحث الثاني
يبعث العبد على ما مات عليه

ويبعث العبد على الحال التي مات عليها من الإيمان والكفر، واليقين والشك، كما يبعث على العمل الذين كان يعمله عند موته، عن جابر ﷺ قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «يبعث كل عبد على ما مات عليه»(١) وعن عبد اللّه ابن عمرو ﷺ قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «إذا أراد اللّه بقوم عذابا، أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على أعمالهم»(٢) فالشهيد يبعث يوم القيامة وجرحه يثعب كهيئته حين كلم لونه لون دم وريحه مسك قال رسول اللّه ﷺ: «لا يكلم أحد في سبيل اللّه واللّه أعلم بمن يكلم في سبيله إلا جاء يوم القيامة وجرحه يثعب اللون لون دم والريح ريح مسك»(٣) والذي مات مرابطا في سبيل اللّه يبعث يوم القيامة آمنا من الفزع عن أبي هريرة ﷺ، عن رسول اللّه ﷺ قال: «من مات مرابطا في سبيل اللّه أجرى عمله الصالح الذي كان يعمل، وأجرى عليه رزقه، وأمن الفتان، وبعثه اللّه يوم القيامة آمنا من الفزع»(٤) والذي مات محرما يبعث يوم القيامة ملبيا عن ابن عباس ﷺ أن رجلا أوقصته راحلته، وهو محرم فمات، فقال رسول اللّه ﷺ: «اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الجنة- باب: الأمر بحسن الظن باللّه تعالى عند الموت برقم (٨٣- ٢٨٧٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الجنة- باب: الأمر بحسن الظن باللّه تعالى عند الموت برقم (٨٤- ٢٨٧٩).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الإمارة- باب فضل الجهاد والخروج في سبيل اللّه برقم (١٠٥- ١٨٧٦) من رواية أبي هريرة ﷺ.

(٤) صحيح سنن ابن ماجه- كتاب الجهاد- باب فضل الرباط في سبيل اللّه (٢/ ١٢٣) (٢٢٣٤- ٢٧٦٧).

في ثوبه، ولا تخمروا رأسه ولا وجهه فإنه يبعث يوم القيامة ملبيا»[1] والنائحة التي لطمت الخد وشقت الجيب ودعت بدعوى الجاهلية إن لم تتب قبل أن تموت فإنها تبعث يوم القيامة بملابس منكرة فظيعة، قال رسول الله ﷺ: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب»[2].

وقال عليه الصلاة والسلام: «النياحة على الميت من أمر الجاهلية، فإن النائحة إن لم تتب قبل أن تموت، فإنها تبعث يوم القيامة عليها سرابيل من قطران ثم يعلى عليها بدرع من لهب النار»[3] وآكل الربا يقوم من قبره كما يقوم المصروع من صرعة وتخبط الشيطان له قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥] قال ابن عباس: «آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنونا يخنق»[4] والذي يتنخم تجاه القبله يجيء يوم القيامة ونخامته في وجهه، قال رسول الله ﷺ: «من تفل تجاه القبله، جاء يوم القيامة تفله بين عينيه»[5].

* * *

---

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الحج- باب ما يفعل بالمحرم إذا مات برقم (٩٨، ١٢٠٦).

(٢) رواه مسلم في صحيحه كتاب الجنائز باب التشديد في النياحة برقم (٣٩، ٩٣٤) برواية أبو مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٣) صحيح سنن ابن ماجه في- كتاب الجنائز- باب في النهي عن النياحة (١/ ٢٦٤) (١٢٨٦- ١٥٨٢) قال الألباني: صحيح.

(٤) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (١/ ٢٣٥).

(٥) صحيح سنن أبو داود في كتاب الأطعمة- باب في أكل الثوم (٢/ ٧٢٥) (٣٢٣٨- ٣٨٢٤) رواه حذيفه رضي الله عنه، قال الألباني: صحيح.

المبحث الثالث
الحشر إلى الموقف

والحشر يراد به جمع الخلائق يوم القيامة لحسابهم والقضاء بينهم[1] يحشر الله جميع الخلائق فلا يغادر منهم أحدا قال عز وجل: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧] وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩- ٥٠] وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣] يجمع الله الأولين والآخرين من بطون الفلوات، وقعور البحار، يجمعهم بعدما تفرقوا يعيدهم بعدما تمزقوا[2] قال تعالى: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٨] وقد علم سبحانه عددهم منذ خلقهم إلى يوم القيامة ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣- ٩٥] الملائكة والإنس والجن وغيرهم[3] والبهائم يحشرها الله سبحانه كما دل عليه الكتاب والسنة قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨] قال ابن كثير أي تبعث يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥] «روى الإمام أحمد عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ رأى شاتين تنتطحان فقال: «يا أبا ذر هل تدري فيما تنتطحان؟ قال: لا، قال: لكن الله يدري وسيقضي بينهما»[4][5] وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن

---

(١) لمعة الاعتقاد لابن قدامة المقدسي مع شرحها للشيخ محمد العثيمين ص١١٥ .

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ٤٧٩ .

(٣) تيسير الكريم الرحمن لتفسير كلام المنان ص ٥٠١ .

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ١٦٢) وصحح إسناده الألباني في الصحيحة (٤/ ٦١٠).

(٥) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٢- ١١٨).

رسول اللّه ﷺ قال: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»[1] واستدل ابن تيمية بالآيات السابقة على حشر البهائم وبقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩] وقال: «حرف (إذا) إنما يكون لما يأتي لا محاله... ومن قال إنها لا تحيا فهو مخطيء في ذلك أقبح خطأ، بل هو ضال أو كافر واللّه أعلم»[2].

* * *

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة والآداب- باب تحريم الظلم برقم (٦٠، ٢٥٨٢).

(٢) مجموع فتاوي ابن تيمية (٤/ ٢٤٨).

المبحث الرابع
أرض المحشر

تبدل الأرض والسماوات يوم القيامة ويحشر الناس على أرض غير هذه الأرض، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] قال ابن كثير: «يوم تبدل الأرض غير الأرض وهي هذه الصفة المألوفة المعروفة كما جاء في الصحيحين من حديث أبي حازم عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض عفراء كقرصة النقي ليس فيها معلم لأحد»[(١)][(٢)] قال الخطابي: العفر: بياض ليس بالناصع، والنقي: أي الدقيق النقي من الغش والنخال»[(٣)] وقال ابن حجر: «والمعلم هو الشيء الذي يستدل به على الطريق، وقال عياض: المراد: أنها ليس فيها علامة سكنى ولا بناء ولا أثر ولا شيء من العلامات التي يهتدي بها في الطرقات كالجبل والصخرة البارزة»[(٤)] روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: «سألت رسول الله ﷺ عن قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله! فقال: على الصراط»[(٥)] روى الترمذي عن مجاهد قال: قال ابن عباس: أتدري ما سعة جهنم؟

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق باب يقبض الله الأرض يوم القيامة برقم (٦٥٢١)، وأخرجه مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار- باب في البعث والنشور وصفة الأرض يوم القيامة برقم (٢٨، ٢٧٩٠).

(٢) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٢٥٤٩).

(٣) فتح الباري- كتاب الرقاق (١١/ ٤٥٥- ٤٥٦).

(٤) فتح الباري كتاب الرقاق (١١/ ٤٥٦).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب صفة القيامة والجنة والنار باب في البعث والنشور وصفة الأرض يوم القيامة برقم (٢٩، ٢٧٩١).

قلت: لا، قال: أجل! والله ما تدري، حدثتني عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] قالت: قلت: فأين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «على جسر جهنم»[١] وعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: كنت قائما عند رسول الله ﷺ فجاء حبر من أحبار اليهود فقال: السلام عليك يا محمد! فدفعته دفعه كاد يصرع منها، فقال: لم دفعتني؟ فقلت: ألا تقول يا رسول الله! فقال اليهودي إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله. فقال رسول الله ﷺ: «إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي» فقال اليهودي: جئت أسألك، فقال له رسو ل الله ﷺ: «أينفعك شيء إن حدثتك» قال: أسمع بأذني فنكت رسول الله ﷺ بعود معه، فقال: «سل» فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال رسول الله ﷺ: «هم في الظلمة دون الجسر»[٢].

***

(١) صحيح سنن الترمذي- أبواب تفسير القرآن- سورة الزمر (٣- ١٠١) (٢٥٨٩- ٣٤٧٥) قال الألباني: صحيح الإسناد.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الحيض- باب بيان صفة مني الرجل والمرأة وإن الولد مخلوق من مائهما برقم (٣٤- ٣١٥٦).

المبحث الخامس
صفة حشر العباد وجمعهم إلى أرض الموقف

١- يحشر الناس حفاة بلا خف ولا نعل عراة بلا ثياب ولا ملابس غرلا غير مختونين ثم يكسون بعد ذلك: روى البخاري عن ابن عباس قال: قام فينا النبي ﷺ يخطب: «إنكم محشورون حفاة عراة غرلا ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾... الآية[١] وروى البخاري عن محمد بن أبي بكر» أن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «تحشرون حفاة عراة غرلا» قالت عائشة رضي الله عنها: فقلت: يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: «الأمر أشد من أن يهمهم ذلك»[٢] ثم يكسون بعد ذلك وأول من يكسى إبراهيم عليه السلام قال رسول الله ﷺ: «وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم الخليل»[٣][٤].

٢- أحوال الخلق حين يخرجون من قبورهم ويدعون إلى أرض الموقف:

وصف الله تعالى حال الناس عند خروجهم من قبورهم وسرعة إجابتهم للداعي في عدة مواضع:

قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨] يومئذ يتبع الناس صوت داعي الله الذي يدعوهم إلى موقف القيامة، فيحشرهم إليه لا عوج لهم عنه ولا انحراف «ولا يميلون عنه ولا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق- باب الحشر (ص١٦٠١) (٦٥٢٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق- باب الحشر (ص١٦٠٢) (٦٥٢٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق- باب الحشر (ص١٦٠١) (٦٥٢٦) من وراية ابن عباس رضي الله عنه.

(٤) جامع البيان في تأويل القرآن (٨/ ٤٥٩).

يخالفون ولا يتأخرون ولكنهم يسيرون إليه كأنهم إلى علم يومئذ يسرعون»(١)
وذكرسبحانه سرعة إجابتهم للداعي والحضور بين يدي ربهم في مواضع أخرى: قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١] وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤] وقال عز وجل: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٦- ٨] كأنهم في انتشارهم وسيرهم إلى موقف الحساب جراد منتشر في الآفاق، وشبههم في موضع آخر بالفراش المبثوب، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤].

يأتون إلى الموقف زمرا زمرا قال سبحانه: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨] أبصارهم خاشعة ذليلة وأصواتهم، قال تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ [القمر: ٧] وقال سبحانه: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨] سكنت أصوات الخلائق للرحمن... فلا تسمع لناطق منهم منطقا إلا من أذن له الرحمن ولا تسمع إلا وطء الأقدام إلى أرض المحشر(٢).

* * *

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ٨٨٨ بتصرف يسير.

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن (٨/ ٤٥٩).

الفصل الثالث
أهوال يوم القيامة
المبحث الأول
دمار هذا العلم الدنيوي وخرابه

- كم للّه من حكمة في خراب هذه الدار:

جعل اللّه تعالى الدنيا دار ممر لا مستقر، وأخبرنا أنها زائلة فانية، وأن هذا الكون المحكم البناء سيأتيه يوم تخل فيه الروابط التي تربط بين أجزائه، وذلك حينما يأذن اللّه تعالى بانقراضه، فينفرط عقد نظامه... فتزلزل الأرض وتدك الجبال وتسجر البحار وتنشق السماء وتكور الشمس وتنتثر الكواكب، ويحل الخراب والدمار في هذه الدار «قرأ قاريء» ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ﴾ [التكوير: ١- ٣] وفي الحاضرين أبو الوفاء ابن عقيل، فقال له قائل: يا سيدي هب أنه أنشر الموتى للبعث والحساب، وزوج النفوس بقرنائها بالثواب والعقاب، فلم هدم الأبنية وسير الجبال ودك الأرض وفطر السماء ونثر النجوم وكور الشمس، فقال: إنما بنى لهم الدار للسكنى والتمتع، وجعلها وجعل ما فيها للإعتبار والتفكر والإستدلال عليه بحسن التأمل والتفكر، فلما انقضت مدة السكنى وأجلاهم من الدار خربها لانتقال الساكن منها، فأراد أن يعلمهم بأن الكونين كانت معمورة بهم، وفي إحالة الأحوال وإظهار تلك الأَهوال وبيان المقدرة بعد بيان العزة، وتكذيب لأَهل الإلحاد وزنادقة المنجمين وعباد الكواكب والشمس والقمر والأوثان، فيعلم الذين كفروا أنهم كاذبين، فإذا رأوا آلهتهم قد انهدمت وأن معبوداتهم قد انتثرت وانفطرت ومحالها قد تشققت، ظهرت فضائحهم وتبين كذبهم وظهر أن العالم مربوب محدث مدبر له رب يصرفه كيف يشاء تكذيبا بالملاحدة الفلاسفة القائلين بالقدم،

فكم لله من حكمة في هدم هذه الدار ودلالته على عظم عزته وقدرته وسلطانه وانفراده بالربوبية وانقياد المخلوقات بأسرها لقهره وإذعانها لمشيئته، فتبارك الله رب العالمين.[1] لما كان ما يحدث يوم القيامة من أهوال واختلال في نظام هذا العالم الدنيوي غيب لا نعلمه، فإن تأمل النصوص الصحيحة الوارده في وصف هذا اليوم يبعث اليقين في القلب ويطلع الإنسان على ما يحدث في ذلك اليوم وكأنه رأي عين ومصداق ذلك ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١] و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]»، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١][2]» ولا يعني أن تصوير مشاهد أهوال القيامة اختصت به هذه السور الثلاث وحدها بل لقد ذكرت آيات أخر في سور مختلفة كثيرا من هذه المشاهد وانظر أخي إلى الأثر العظيم لهذه السور والآيات على رسول الله ﷺ لما ذكر فيها من أهوال أخرج الترمذي في سننه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله قد شبت، قال: «شيبتني هود والواقعة والمرسلات، وعم يتسائلون، وإذا الشمس كورت»[3] وسأذكر بعض هذه النصوص وأذكر ما يحدث لكل من العوالم العظيمة في ذلك اليوم:

١- ما يحصل للأرض وجبالها وبحارها:

تدك الأرض والجبال كما أخبر الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٣- ١٥] يقول: «فزلزلتا زلزلة واحدة»[4] وأخبر سبحانه بتسيير الجبال في عدة آيات، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:

---

(١) بدائع الفوائد ص ٤٦٤ .

(٢) صحيح سنن الترمذي (٣/ ١٢٦) (٢٦٥٣) قال الألباني: صحيح.

(٣) صحيح سنن الترمذي (٣/ ١١٣) (٢٦٢٥) قال الألباني: صحيح.

(٤) جامع البيان في تأويل القرآن (١٢/ ٢١٤).

٤٧] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ٩- ١٠] وقال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣] وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨] وتسيير الجبال: يعني زوالها عن أماكنها واجتثاثها من أصولها ونسفها نسفا[١] ثم ذكر في مواضع أخر أنه جل وعلا يفتتها حتى تذهب صلابتها الحجرية وتلين، فتكون في عدم صلابتها ولينها كالبسيسة وهي دقيق ملتوت بالسمن قال تعال: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ [الواقعة: ٥] وتكون كالعهن المنفوش قال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٩] ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥][٢] وتصبح ككثبان الرمل بعد أن كانت حجارة صماء قال تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤] أي رملا سائلا متناثرا، والرمل المهيل: «الذي إذا حرك أسفله فانهال عليه من أعلاه»[٣] ثم ذكر جل وعلا أنه يجعلها هباء قال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٥-٦] أي كرهج الغبار يسطع ثم يذهب فلا يبقى منه شيء[٤] ويجعلها سرابا قال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠] يخيل للناظر أنها شي وليست بشيء، بعد هذا تذهب بالكلية، فلا عين ولا أثر كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥][٥] وذلك إذا رجت الأرض وزلزلت، قال تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ [الواقعة: ٤٠] أي تحركت واضطربت[٦]، وقال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١] أي تحركت من أسفلها[٧].

---

(١) انظر جامع البيان في تأويل القرآن (١٢/ ٤٠٢) وتيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٤/ ٤٨٤).
(٢) أضواء البيان (٤/ ١١١) بتصرف يسير.
(٣) جامع البيان في تأويل القرآن (١٢/ ٢٨٩) باختصار.
(٤) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٤/ ٢٨٨).
(٥) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٤/ ٤١٧).
(٦) تيسير الكريم الرحمن ص ٨٣٢ .
(٧) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٤/ ٥٤١).

وتزلزلت ورجفت وارتجت حتى يسقط ما عليها من بناء وعلم فتندك جبالها وتسوى تلالها وتكون قاعا صفصفا لا عوج فيها ولا أمتا[1] قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥- ١٠٦] أي يزيلها ويقلعها من أماكنها ويمحقها ﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أي بساطا واحدا والقاع هو المستوى من الأرض والصفصف تأكيد لمعنى ذلك لا ترى فيها أيها الناظر ﴿عِوَجًا﴾ وهذا من تمام استوائها ﴿وَلَآ أَمْتًا﴾ أي ولا أودية وأماكن منخفضة أو مرتفعة فتبرز الأرض للخلائق[2] قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧] أي ظاهرة منكشفة لذهاب الجبال والظراب والآكام والشجر والعمارات التي كانت عليها[3] وتمد مد الأديم قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ [الانشقاق: ٣] أي بسطت فزيد في سعتها وفرشت[4] ومدت مد الأديم حتى صارت واسعة جدا تسع أهل الموقف على كثرتهم[5] ويصير أقصاهم مثل أدناهم كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «يجمع الناس- الأولين والآخرين- في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر»[6] [7] وأما البحار فإن الله تعالى يفجر بعضها في بعض فيملأ جميعها[8] وتصير بحرا واحدا[9] قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: ٣] كما أنها تسجر قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦] ﴿وَٱلْبَحْرِ

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٩٣٢ .

(٢) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٣/ ١٥١)، تيسير الكريم الرحمن ص ٥١٣ .

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٩١٧ .

(٤) جامع البيان في تأويل القرآن (١٢/ ٥٠٥)، تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٤/ ٤٩٥).

(٥) تيسير الكريم الرحمن ص ٩١٧ .

(٦) تفسير جزء عم- ابن عثيمين ص ١١٠ .

(٧) جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه- كتاب التفسير- باب ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣] (ص١١٨٣) (٤٧١٢) من رواية أبي هريرة رضي الله عنه .

(٨) جامع البيان في تأويل القرآن (١٢/ ٤٧٧).

(٩) تيسير الكريم الرحمن ص ٩١٤ .

ٱلْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ٦] أي يوقد يوم القيامة نارا تتأجج(١).

٢- ما يحصل للسماء وشمسها وقمرها ونجومها وكواكبها:

تضطرب السماء يوم القيامة وتدور قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ [الطور: ٩] أي تتحرك تحريكا باستدارة، وتتصدع السماء فتكون طرقا ومسالك لنزول الملائكة، وكانت من قبل لا فطور فيها ولا صدوع قال تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ [النبأ: ١٩] قيل وفتحت السماء فكانت قطعاً كقطع الخشب المشققة لأبواب الدور والمساكن أي أنها فتحت فكانت قطعا كالأبواب(٢) ثم إنها تنفطر وتتشقق قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾ [المرسلات: ٩] وتصبح ضعيفة متمزقة قال تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٦] ويكون لونها لون البرذون الورد الأحمر(٣) قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧] أي تتلون كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها فتارة حمراء وتارة صفراء وخضراء وزرقاء وذلك من شدة الأمر وهو يوم القيامة العظيم(٤) وتكشط السماء يوم القيامة قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير: ١١] أي تذهب وتزول من مكانها كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٥] قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧](٥) روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يقبض اللّه الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: «أنا الملك أين ملوك

---

(١) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٤/ ٢٤٧).

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن (١٢/ ٤٠٢)- تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٤/ ٤٧٠).

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن (١١/ ٥٩٨).

(٤) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٤/ ٢٨١).

(٥) تيسير الكريم الرحمن ص ٩١٢ .

الأرض»؟[1] قال ابن عباس: يطوي الله السماوات السبع بما فيها من الخليقة والأرضين السبع بما فيها من الخليقة، يطوي ذلك كله بيمينه يكون ذلك كله في يده» بمنزلة الخردلة.[2]

وتكور الشمس فيجمع بعضها إلى بعض ثم تلف فيرمي بها وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوؤها[3] قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١] القمر يخسف ويذهب ضوؤه قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٧-٨] فيجمع بين الشمس والقمر في ذهاب الضوء، فلا ضوء لواحد منهما قال تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٩] وقيل إنهما يجمعان ثم يكوران.[4] والنجوم أيضا يذهب ضياؤها فلم يكن لها نور ولا ضوء قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ [المرسلات: ٨][5] وتتناثر من السماء فتتساقط قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ٢] وأصل الانكدار الانصباب[6] والكواكب أيضا تنتثر وتتساقط من السماء قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢].

* * *

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التوحيد باب قوله تعالى: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٢] (ص١٧٨٣) (٧٣٨٢).

(٢) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٤- ١٨٩).

(٣) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٤- ٤٨٣).

(٤) جامع البيان في تأويل القرآن (١٢/ ٣٣٢).

(٥) جامع البيان في تأويل القرآن (١٢/ ٣٨٢).

(٦) جامع البيان في تأويل القرآن (١٢/ ٤٥٧).

المبحث الثاني
أسماء يوم القيامة وأوصافه تدل على هول ذلك اليوم

يلاقي الخلق في هذا اليوم من الأهوال والشدائد ما لا يعلمه إلا اللّه تعالى فالقيامة عظيم أمرها، كثيرة أهوالها لذلك سماها اللّه تعالى في كتابه بأسماء عديدة ووصفها بأوصاف كثيرة، وهذا جاء في كلام العرب، فكل ما عظم شأنه تعددت أوصافه وكثرت أسماؤه.

وإن تدبر الآيات التي اشتملت على أسماء يوم القيامة وأوصافه وأحوال الناس فيه يطلع القلب على عظم أمر هذا اليوم.

١- أسماء يوم القيامة وأوصافه:

* ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١﴾: قال تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١- ٣] سميت كذلك لأنها يقرع قلوب الناس هولها وعظيم ما ينزل بهم من البلاء عندها[١].

* ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ [عبس: ٣٣] أي إذا جاءت صيحة القيامة، التي تصخ لهولها الاسماع، وتنزعج لها الأفئدة يومئذ مما يرى الناس من الأهوال[٢].

* ﴿ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٤] التي تطم على كل هائلة من الأمور، فتغمر ما سواها بعظيم هولها[٣] ويهون عندها كل شدة.

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن (١٢/ ٦٧٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ٩١١ .

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن (١٢/ ٤٤٠).

* ﴿الْحَاقَّةُ ①﴾ قال تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ ① مَا الْحَاقَّةُ ② وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [النازعات: ١- ٣] التي يحق فيها الأمور ويحق فيها الجزاء على الأعمال[١] ويتحقق فيها الوعد والوعيد ولهذا عظم اللّه أمرها فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾[٢] أي وأي شيء أدراك وعرفك أي شيء الحاقة[٣].

* ﴿الْغَاشِيَةِ﴾ قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١] سميت كذلك لأنها تغشى الناس وتعمهم[٤] بشدائدها[٥].

* ﴿الْوَاقِعَةُ﴾ قال تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ① لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ [الواقعة: ١-٢].

وسميت بذلك لتحقق كونها ووجودها[٦].

* ﴿الْآزِفَةِ﴾ قال تعالى: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٧- ٥٨] وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ [غافر: ١٨] وسميت بذلك لاقترابها[٧].

* ﴿يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [الصافات: ١- ٢] يوم يفصل اللّه فيه بين خلقه بالقضاء فيأخذ للمظلوم من الظالم، ويجزئ المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته[٨].

* ﴿يوم الجمع﴾ و﴿يوم التغابن﴾ قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن (١٢/ ٢٠٦).
(٢) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٤/ ٤١٤).
(٣) جامع البيان في تأويل القرآن (١٢/ ٢٠٦).
(٤) تيسيرالعلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٤/ ٥٠٩).
(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسر كلام المنان (٩٢١).
(٦) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٤/ ٢٨٧).
(٧) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٤/ ٧٣).
(٨) جامع البيان في تأويل القرآن (١٢/ ٣٨٣).

﴿يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ [التغابن: ٩] سمي يوم الجمع لأنه يجمع فيه الأولون والآخرون وسمي يوم التغابن لأن الناس يتغابنون في المنازل عند اللّه وحقيقته في لسان العرب: ظهور الفضل في المعاملة لأحد المتعاملين والدنيا والآخرة دار العملين وحالين، وكل واحد منهما للّه ولا يعطي لأحدهما إلا لمن ترك نصيبه من الأخرى قال اللّه تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨] وقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠] ومن أراد الآخرة فسعيه مشكور وحظه في الآخرة موفور»(١).

* ﴿يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ﴾ قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ﴾ [ق: ٤٢] من القبور، سماه يوم «الخلود» قال تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾ [ق: ٣٤] الذي لا زوال فيه ولا موت.

* ﴿يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾ قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٠] الذي وعده اللّه الكفار أن يعذبهم فيه(٢).

* ﴿يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

﴿يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ قال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥].

لانه يلتقي فيه الخالق والمخلوق، والمخلوقون بعضهم مع بعض والعاملون وأعمالهم(٣) وأهل السماء وأهل الأرض(٤).

---

(١) التذكرة ص ٢٠٠ .

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن (١١/ ٤١٨).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ٧٣٥ .

(٤) جامع البيان في تأويل القرآن (١١/ ٤٧).

* ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ [غافر: ٣٢] يوم ينادي الناس بعضهم بعضا، إما من هول ما قد عاينوا من عظيم سلطان اللّه، وفظاعة ما غشيهم من كرب ذلك اليوم، وإما لتذكير بعضهم بعضا وانجاز اللّه إياهم الوعد الذي وعدهم في الدنيا واستغاثة من بعضهم لبعض، مما لقي من عظيم البلاء فيه(١) وقيل مناداة أهل الجنة لبعضهم وكذلك أهل النار(٢).

* ﴿يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩] أنذر الخلائق يوم الحسرة إذ قضي الأمر أي فصل بين أهل الجنة وأهل النار وصار كل إلى ما صار إليه مخلدا فيه(٣) فحينئذ يتحسر ويندم أهل النار ندامة تتقطع منها القلوب وتنصدع منها الأفئدة، وأي حسرة أعظم من فوات رضى اللّه وجنته، واستحقاق سخطه والنار، على وجه لا يتمكن من الرجوع ليستأنف العمل، ولا سبيل له إلى تغيير حاله بالعود إلى الدنيا؟!!!!(٤).

* ﴿يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ﴾ قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء: ٨٧] وسماها الساعة قال تعالى: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥] قال القرطبي: والساعة كلمة يعبر بها في العربية عن جزء من الزمن غير محدود وفي العرف جزء من أربعة وعشرين جزء من يوم وليلة والذين هما أصل الأزمنة وسميت به القيامة إما لقربها فإن كل آت قريب وإمَّا تنبيها على ما فيها من الكائنات العظام التي تصهر الجلود وتكسر العظام وقيل إنما سميت بالساعة لأنها تأتي بغتة في ساعة...»(٥) وقال الراغب: «ويعبر بها عن القيامة تشبيها بذلك

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن (١١/ ٥٧- ٥٨).
(٢) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٤/ ٧٧).
(٣) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٣/ ١٠٨).
(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤٩٣).
(٥) التذكرة ص ١٧٦- ١٨٧ .

لسرعة الحساب، قال اللّه تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ [الأحقاف: ٣٥][1].

* ﴿يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦] **والبعث**: إحياء الأموات يوم القيامة قال القرطبي: «وحقيقته إثارة الشيء عن خفاء وتحريكه عن سكون»[2].

* ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قال تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [المعارج: ٢٦] ويوم الدين يوم الحساب للخلائق، يجزيهم بأعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر إلا من عفا اللّه عنه[3].

* ﴿ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾: قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨] وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾... الآية [البقرة: ١٧٧] سمي هذا اليوم بالآخر لأنه آخر أيام الدنيا أو آخر الأزمنة المحدودة[4].

وقال ابن جرير: «وإنما سمي يوم القيامة باليوم الآخر لأنه آخر يوم لا يوم بعده سواه، فإن قال قائل وكيف لايكون بعده يوم، ولا أنقطاع للآخره ولازوال؟؟

قيل: إن اليوم عند العرب إنما سمي يوما بليلته التي قبله، فإذا لم يتقدم النهار ليل لم يسمى يوما. فيوم القيامة يوم لا ليل بعده، سوى الليلة التي قامت في صبيحتها القيامة، فذلك اليوم هو آخر الأيام، لذلك سماه اللّه جل ثناؤه «اليوم الآخر» ونعته بالعظيم، ووصفه بأنه يوم عقيم لأنه لا ليل بعده»[5]

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب الرقاق (١١/ ٤٤٢).

(٢) التذكرة ص ١٨٨ .

(٣) تيسير العلي القدير لاختصار تفسيسر ابن كثير (١/ ١٤) بتصرف.

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري: (١/ ١١٨).

(٥) جامع البيان في تأويل القرآن (١/ ١٥٠- ١٥١)

(وذكر العلماء أسماء أخرى للقيامة هذه أشهرها)

ووصفه بأنه:

* يوم عظيم قال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٤- ٦].

* ووصفه بأنه عسير وعقيم وعبوس وقمطرير ومشهود قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ [المدثر: ٨-٩] وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠] وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣] وهويوم طويل قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٤- ٧] وسياق الآيات يدل على أن المراد يوم القيامة، وذلك مروي عن ابن عباس وقد وردت أحاديث في معنى ذلك منها: «عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب كنز لا يؤدي زكاته إلا أحمي عليه في نار جهنم، فيجعل صفائح فيكوى بها جنباه وجبينه، حتى يحكم الله بين عباده، وفي يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار...» ذكر بقية الحديث في الغنم والإبل[١] والغرض من إيراده ههنا قوله ﷺ: «حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة» أي تأييدا لمن قال إنه يوم القيامة[٢].

* * *

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الزكاة باب إثم مانع الزكاة برقم (٢٦- ٩٨٧).

(٢) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٤/ ٤٢٢) باختصار.

المبحث الثالث
بعض أحوال الناس التي تدل على هول يوم القيامة

في ذلك الموقف العظيم المهيب يملك الناس الخشوع والسكون لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن منهم في الكلام قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨].

قد ذلت وخضعت واستسلمت الخلائق لجبارها الحي الذي لا يموت القيوم الذي لا ينام وهو قيوم على كل شيء ولا قوام لشيء إلا به[١] قال تعالى: ﴿۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١] فترى في ذلك الموقف العظيم الأغنياء والفقراء والرجال والنساء والأحرار والأرقاء والملوك والسوقة ساكتين منصتين، خاشعة أبصارهم، خاضعة رقابهم جاثين على ركبهم، عانية وجوههم لا يدرون ماذا ينفصل كلّا منهم به ولاماذا يفعل به، وقد اشتغل كل بنفسه وشأنه[٢] بل «إنه يفر من أعز الناس وأشفقهم لديه حذرا من مطالبتهم إياه بما بينه وبينهم من التبعات والمظالم[٣] قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤- ٣٧] قال عبد اللّه الأبهري: «يفر منهم لما تبين له من عجزهم وقلة حيلتهم إلى من يملك كشف تلك الكروب والهموم عنه، ولو ظهر له ذلك في الدنيا لما اعتمد شيئا سوى ربه تعالى»[٤] فالانساب لا تنفع في ذلك اليوم قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ

---

(١) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٣/ ١٥٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٥١٣ .

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن (١٢/ ٤٥٣).

(٤) التذكرة ٢٠٣ .

أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

أي لا تنفع الأنساب يومئذ ولا ينظر والد لولده وهو يبصره ولو كان عليه من الأوزار ما قد أثقل ظهره وهو كان أعز الناس عليه في الدنيا ما التفت إليه ولا حمل عنه وزن جناح بعوضه، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إذا كان يوم القيامة جمع اللَّه الأولين والآخرين ثم نادى مناد: «ألامن كان له مظلمة فليجيء فليأخذ حقه» قال: فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيرا ومصداق ذلك في كتاب اللَّه تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾[1] فإذا كان الحال كذلك فكيف يسأل القريب عن قريبه ولو كان يشاهده أمامه؟!! قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ [المعارج: ٩- ١٠] فلا يبقى في القلب متسع لسؤال حميمه عن حاله ولا فيما يتعلق في عشرتهم ومودتهم ولا يهمه إلا نفسه[2] فكل من الوالد والولد لا يغني أحدهما عن الآخر شيئا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣] ولا تقضي نفس عن نفس حقا لزمها للَّه جل ثناؤه ولا لغيره، ولا يقبل اللَّه منها شفاعة شافع فيترك لها ما لزمها من حق ولا يؤخذ منها فداء ولا ينصرهم ناصر قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ بطلت المحاباة واضمحلت الرشى والشافاعات والنصراء[3] فهم كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥] لا ناصر له ولا مجير إلا اللَّه وحده لا شريك له[4] وكل نفس تخاصم عن نفسها قال تعالى: ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل: ١١١] ليس أحد يجادل عنها لا

(١) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٣/ ٢٥٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ٨٨٦ .

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن (١/ ٣٠٦- ٣٠٨) باختصار.

(٤) تيسير العلي القدير الاختصار تفسير ابن كثير (٣/ ١٢٤).

أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة؟!! وليس للإنسان في ذلك اليوم مكان يتحصن فيه وليس له ما يستره فيغيب عن بصر اللَّه عز وجل بل هو محيط بهم بعلمه وبصره وقدرته فلا ملجأ منه إلا إليه قال تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ [الشورى: ٤٧][1] فلا خلاص ولا فرار ولا ملجأ لأحد دون اللَّه ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٠ - ١٢].

* ومن أراد المزيد من هذه المشاهد الحية الناطقة فالمرجع كتاب اللَّه العظيم.

ولقد أخبرنا رسول اللَّه ﷺ بدنو الشمس من الخلق يوم القيامة وما يحصل من شدة الحر والعرق للناس روى الطبراني بإسناد صحيح عن سلمان رضي الله عنه قال: «تعطى الشمس يوم القيامة حر عشر سنين ثم تدني من جماجم الناس»[2] و روى مسلم في صحيحه عن سليم بن عامر عن المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «تدني الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل» قال سليم بن عامر: فواللَّه! ما أدري ما يعني بالميل؟ أمسافة الأرض، أم الميل الذي تكحل به العين. قال: «فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق (فمنهم من يكون إلى كعبيه)، (ومنهم من يكون إلى ركبتيه)، (ومنهم من يكون إلى حقويه)، (ومنهم من يلجمه العرق إلجاما) قال: وأشار الرسول ﷺ إلى فيه»[3]. وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن العرق يوم القيامة ليذهب في الأرض سبعين باعا وإنه ليبلغ إلى أفواه الناس أو إلى آذانهم» يشك ثور أيهما قال[4] روى مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: ﴿يَوْمَ

---

(١) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٤/ ١٢٤) بتصرف يسير.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» وصححه المنذري والألباني انظر «صحيح الترغيب والترهيب» (٣/ ٤٥٤) (٢٦٨٣).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الجنة باب في صفة يوم القيامة برقم (٦٢، ٢٨٦٤).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الجنة باب في صفة يوم القيامة برقم (٦١، ٢٨٦٣).

﴿يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] قال: «يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه»[١] وسيأتي بإذن الله ذكر من ينشيء الله تعالى لهم ظلا يستظلون به من الشمس فلا يضرهم حرها ولا يعرقون. وأما غير هؤلاء فمتفاوتون في العرق كما في حديث المقداد بن الأسود قال ابن العربي وكل واحد يقوم عرقه معه فيغرق فيه إلى أنصاف ساقيه وإلى جانبيه مثلا يمنه من يبلغ كعبيه، ومن الشمال من يبلغ ركبتيه، ومن أمامه من يكون عرقه إلى نصفه ومن خلفه من يبلغ العرق صدره وهذا خلاف المعتاد في الدنيا فإن الجماعة إذا وقفوا في الأرض المعتدلة أخذهم الماء أخذا واحدا لا يتفاوتون مع استواء الأرض ومجاورة المحل وهذا من القدرة التي تخرق العادات في زمن الآيات[٢] ومقاييس الآخرة ليست كمقاييس الدنيا ومما يزيد الفزع في القلوب يوم القيامة حينما يجاء بجهنم نعوذ بالله منها قال تعالى: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر: ٢٣- ٢٤] روى مسلم في صحيحه عن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»[٣] يومئذ يتذكر الإنسان عمله وما كان أسلف في قديم دهره وحياته وكيف تنفعه الذكرى؟! ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ يندم على ما أسلف من المعاصي إن كان عاصيا ويود لو كان ازداد من الطاعات إن كان طائعا، كما روى أحمد عن محمد بن أبي عميره من أصحاب رسو ل الله ﷺ قال: لو أن عبداً خر على وجهه من يوم ولد إلى أن يموت في طاعة الله لحقره يوم القيامة، ولود أنه رد إلى الدنيا كيما يزداد من الأجر والثواب[٤][٥] وحينها لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الجنة باب في صفة يوم القيامة برقم (٦٠، ٢٨٦٣).

(٢) التذكرة ص ٢٠٩ .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الجنة باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين برقم (٢٩، ٢٨٤٢).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ١٨٥) وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣/ ٤٢٤) (٣٥٩٧).

(٥) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٤/ ٥١٥).

حتى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام يقول نفسي نفسي! وحتى أن عيسى عليه الصلاة والسلام ليقول لا أسألك اليوم إلا نفسي لا أسألك مريم التي ولدتني[1].

* * *

---

(١) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٤/ ١٦٢).

المبحث الرابع
تفاوت أحوال الناس يوم القيامة

لا يستوي حال المؤمن التقي وحال الكافر وحال الموحد العاصي في حكم الله تعالى يوم القيامة قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١] فلا يساوي الله تعالى بين الأبرار والفجار في الدارين وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۚ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠] وكثيرة الآيات الدالات على أن الله تعالى يكرم الأبرار ويهين الفجار(١).

وفيما يلي سنذكر تباين أحوال العباد يوم القيامة على حسب أعمالهم:

١- حال المتقين الأبرار:

حال المؤمن التقي الذي كان قلبه في الدنيا معمورا بخوف الله عز وجل وتقواه فأعد العدة لهذا اليوم يؤمنه الله تعالى يوم يفزع الخلائق ويقيه شر ذلك اليوم قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ٧- ١١] قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: «وعزتي وجلالي لا أجمع لعبدي أمنين ولا خوفين، إن هو أمنني في الدنيا أخفته يوم أجمع فيه عبادي، وإن هو خافني في الدنيا أمنته يوم أجمع فيه عبادي»(٢) والأمن التام يكون لمن لم يلبس إيمانه بظلم مطلقا لا بشرك ولا معاصي وأصل الأمن لمن لم يلبس إيمانه بالشرك ولكنه

---

(١) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٤/ ٣٤٠).

(٢) أخرجه أبو نعيم (٦/٩٨) من حديث شداد بن أوس والحديث صححه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٢/ ٣٦٧ رقم ٧٤٢).

عمل السيئات فله أصل الأمن لا كماله(١) قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٩] وقال سبحانه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩] والحسنة في هذه الآية سواء أريد بها اسم جنس فتشمل كل حسنة قوليه أو قلبيه أو أريد بها قول لا إله إلا اللّه موقنا بها قلبه(٢) فإن الأمن من الفزع من كل أهوال يوم القيامة أو من بعض أهواله يعود إلى قدر إخلاص العبد ويقينه بلا إله إلا اللّه وتحقيقه لشروطها وهذه يدخل فيها القول الأول فإن لا إله إلا اللّه أفضل الحسنات وقد يشهد لذلك تفسير الطبري للآية على الوجهين الذين قرئت بهما، فعلى إضافة فزع إلى اليوم ﴿وَهُم مِّن فَزَعِ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ يكون ذلك أبين في أمان العبد من كل أهوال ذلك اليوم وعلى قراءة من نون فزع ولم يضفها إلى يوم ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ يكون الأغلب عليه أنه جعل الأمان من فزع بعض أهواله(٣) واللّه تعالى أعلم.

وأخبر اللّه تعالى أن الملائكة تستقبلهم وتبشرهم يوم معادهم قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] فأملوا ما يسركم»(٤) ويقال لهم: ﴿يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٦٨- ٦٩] الذين آمنت قلوبهم وبواطنهم وانقادت لشرع اللّه جوارحهم وظواهرهم(٥) وكذلك الشهداء والمرابطون الذين عرضوا أنفسهم للمخاوف

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٢٦٢ بتصرف.

(٢) انظر أضواء البيان (٦/ ٤٤٣- ٤٤٤) جامع البيان في تأويل القرآن (١٠/ ٢١)- تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٣/ ٣٧٨) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ٦١٠ .

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن (١١/ ٢٤) بتصرف.

(٤) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٣/ ١٨٩).

(٥) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٤/ ١٤٠).

والمهالك في سبيل اللَّه تعالى يأمنون الفزع الأكبر يوم القيامة:

روى الترمذي في سننه عن المقدام بن معد يكرب قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «للشهيد عند اللَّه ست خصال: يغفر له في أول دفعه ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوته منها خير من الدنيا وما فيها ويزوج اثنتي وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه»(١).

وروى الطبراني بإسناد صحيح عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «رباط شهر خير من صيام دهر، ومن مات مرابطا في سبيل اللَّه أمن من الفزع الأكبر، وغدا عليه برزقه وريح من الجنة ويجري عليه أجر المرابط حتى يبعثه اللَّه»(٢) وهناك من عباد اللَّه المتقين من ينشيء اللَّه لهم تعالى يوم القيامة ظلا يستظل تحته من حر شمس ذلك اليوم فيكونون في أمان وهناء.

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «سبعة يظلهم اللَّه يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة اللَّه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في اللَّه اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف اللَّه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله، ورجل ذكر اللَّه خاليا ففاضت عيناه»(٣) وروى الإمام أحمد عن يزيد بن أبي حبيب أن أبا الخير حدثه أنه سمع عقبة بن عامر يقول: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «كل امرئ في ظل صدقته حتى يفصل بين الناس» أو قال: «يحكم بين الناس»قال يزيد: «وكان أبو الخير لا يخطئه يوم

---

(١) صحيح سنن الترمذي- أبواب فضائل الجهاد (٢/ ١٣٢) (١٣٥٨- ١٧٢٨) قال الألباني: صحيح.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٧٩).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الزكاة- باب فضل إخفاء الصدقة برقم (٩١- ١٠٣١).

إلا تصدق فيه بشيء ولو كعكة أو بصلة أو كذا»[1] ومنهم من كان يُنظِر المعسر أو يتنازل عن دينه روى ابن ماجة في سننه عن أبي اليسر صاحب رسول اللّه ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «من أحب أن يظله اللّه في ظله فلينظر معسرا أو ليضع له»[2].

«تنبيه»:

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه اللّه تعالى: «والمراد بالظل هنا: ظل يخلقه اللّه عز وجل يوم القيامة يظل فيه من شاء من عباده، وليس المراد ظل نفسه جل وعلا، فلا يمكن أن يكون للّه سبحانه ظلا من الشمس فتكون الشمس فوقه وهو بينها وبين الخلق وهذا فهم خاطئ لا يفهمه إلا جاهل، لأنه لا يمكن أن يكون اللّه عز وجل تحت شيء من مخلوقاته فهو العلي الأعلى، ثم هو نور السموات والأرض»[3].

والمؤمن التقي وهو في هذا الأمان لا يشعر بطول يوم القيامة كما يشعر به غيره، قال رسول اللّه ﷺ: «يوم القيامة على المؤمنين كقدر ما بين الظهر والعصر»[4].

٢- حال العصاة الموحدين:

كما أسلفنا في هذا المبحث إن من لبس إيمانه بالسيئات فله أصل الأمن لا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ١٤٧) وصححه الألباني في صحيح ابن خزيمة (٤/ ٩٤) (٢٤٣١) وانظر صحيح الترغيب والترهيب للألباني (٨٦٦).

(٢) صحيح سنن ابن ماجه- كتاب الهبات باب إنظار المعسر (٢/ ٥٤) (١٩٦٣- ٢٤١٩) قال الألباني صحيح.

(٣) شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين (٢/ ٢٤٣) باختصار.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك كتاب الإيمان (١/ ٨٤) وقال هذا صحيح الإسناد على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وصححه الألباني- صحيح الجامع (٢/ ١٣٦١- ٨١٩٣) والسلسلة الصحيحة (٥/ ٥٨٤) (٢٤٥٦).

كماله فبعض الموحدين يكون قد واقع ذنوبا تحرمه الأمن في ذلك اليوم ويرى ما يهوله ويشق عليه نذكر بعضها:

١- الذين لم يؤدوا الزكاة يعذبون بأموالهم في موقف القيامة:

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «من آتاه اللّه مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا[(١)] أقرع[(٢)] له زبيبتان[(٣)] يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه- يعني شدقيه- ثم يقول أنا مالك، أنا كنزك، ثم تلا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠]»[(٤)].

وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد اللّه عن النبي ﷺ: «ولا صاحب مال لا يؤدي زكاته إلا تحول يوم القيامة شجاعا أقرع، يتبع صاحبه حيثما ذهب، وهو يفر منه، ويقال هذا مالك الذي كنت تبخل به، فإذا رأى أنه لا بد له منه، أدخل يده في فيه، فجعل يقضمها كما يقضم الفحل»[(٥)] روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: ما من صاحب ذهب ولا فضة، لا يؤدي منها حقها، إذا كان يوم القيامة، صفحت له صفائح من نار، فأحمي عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيد له، في يوم كان مقداره

---

(١) الشجاع: الحية الذكر.

(٢) الأقرع: الذي تقرع رأسه أي تمعط من كثرة سمه.

(٣) زبيبتان: هما الزبيبتان في الشدقين يقال: تكلم حتى زبد شدقاه أي خرج الزبد منهما، وقيل هما النكتتان السوداوان فوق عينيه، وقيل نقطتان يكتنفان فاه، وقيل هما في حلقه بمنزلة زنمتي العنزة، وقيل لحمتان على رأسه مثل القرنين، وقيل نابان يخرجان من فيه (فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب الزكاة- باب إثم مانع الزكاة (٣- ٣٤١).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه- كتاب الزكاة- باب إثم مانع الزكاة (ص٣٩٣) (١٤٠٣).

(٥) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الزكاة- باب إثم مانع الزكاة برقم (٢٨، ٥٨٨).

خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله، إما إلى جنة وإما إلى نار قيل: يا رسول الله! فالإبل؟ «ولا صاحب إبل لا يؤدي منها حقها، ومن حقها حلبها يوم وردها، إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر، أوفر ما كانت لا يفقد منها فصيلا احدا، تطؤه بأخفافها وتعرضه بأفواهها، كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضي بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» قيل يا رسول الله! فالبقر والغنم؟ قال: «ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدي منهاحقا، إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر، لا يفقد منها شيئا، ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها، كلما مر عليه أولاها رد عليه أُخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضي بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»(١) .

٢- عقوبة من سأل الناس تكثرا وهو غني:

روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمرو ﵄ قال: «قال رسول الله ﷺ: «ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزعة لحم»(٢) وظاهر الحديث أن وجهه كله عظم والسر فيه أن الشمس تدنو يوم القيامة، فإذا جاء لا لحم له كانت أذية الشمس له أكثر من غيره»(٣) .

٣- عقوبة الغال والخائن في ولايته وأمانته:

أصل الغلول الخيانة مطلقا ثم غلب اختصاصه في الاستعمال بالخيانة في الغنيمة قال نفطويه: «سمي بذلك لأن الأيدي مغلوله عنه أي محبوسة» وأجمع المسلمون على تغليظ تحريم الغلول وأنه من الكبائر(٤) قال تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١] قال القرطبي: «أي يأتي به حاملا له

---

(١) أخره مسلم في صحيحه كتاب الزكاة باب إثم مانع الزكاة برقم (٢٤، ٩٨٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الزكاة- باب من سأل الناس تكثرا (ص٤١٢) (١٤٧٤).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب الزكاة- باب من سأل الناس تكثرا (٣/ ٤٢٧).

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي- باب تغليظ تحريم الغلول (١٢- ٢١٦) باختصار.

على ظهره ورقبته، معذبا بحمله وثقله ومرعوبا بصوته، وموبخا بإظهار خيانته على رؤوس الأشهاد»(١) وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ثم قال: «لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك، لاألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمه فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئا قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يوم القيامة يجيء على رقبته شاة لها ثغاء، يقول: يا رسول الله أغثني فأقول: لا أملك لك شيئا قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئا قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئا قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: «لا أملك لك شيئا قد أبلغتك»(٢) عن أبي حميد الساعدي، قال: استعمل رسول الله ﷺ رجلا من الأزد على صدقات بني سليم يقال له ابن اللتيبة فلما جاء حاسبه قال: هذا ما لكم وهذا هدية، فقال رسول الله ﷺ: فهلا جلست في بيت أبيك وأمك حتى تأتيك هديتك إذا كنت صادقاً ثم خطبنا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد فإني أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولاني الله فيأتي فيقول هذا مالكم وهذا هديه أهديت لي، أفلا جلس في بيت أبيه أمه حتى تأتيه هدية إن كان صادقا، والله لا يأخذ أحداً منكم منها شيئا بغير حقه إلا لقي الله تعالى يحمله يوم القيامة فلا أعرفن أحد منكم لقي الله يحمل بعيرا له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر ثم رفع يديه حتى رئي عفرة إبطيه فقال: «اللّهم هل بلغت» ثلاثا متفق عليه(٣).

---

(١) تفسير القرطبي (٤/ ١٦٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الإماره- باب غلظ تحريم الغلول برقم (١٨٣١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيه- كتاب الحيل- باب احتيال العالم ليهدى له (ص ١٦٨٩) (٦٩٧٩) واللفظ للبخاري وأخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الإماره- باب غلظ تحريم هدايا العمال برقم (١٨٣٢).

فالحديث يدل على أن هدايا العمل غلول ورشوة، فلا يحق له أن يخصه الناس بشيء من العطاء، ولذلك فإن أخذ الموظفين للأموال والهدايا أكل مال حرام ولا يحق لعامل أن يستعمل منصبه لمنفعة خاصة(١) .

٣- حال الكفار يوم القيامة:

الكفار الذين أشركوا ولم يؤمنوا بالله تعالى لا أمن لهم بل حظهم الشقاء والعذاب، وحالهم يوم القيامة: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الروم: ١٢] يبهتون ويكتئبون وييأسون من كل خير وذلك أنهم ما قدموا لذلك اليوم إلا الإجرام وهي الذنوب من كفر وشرك ومعاصي فلما قدموا أسباب العقاب ولم يخلطوها بشيء من أسباب الثواب أيسوا وأبلسوا وأفلسوا)(٢)وهذا حالهم.

طارت الأفئدة: ولشدة ما هم فيه من الهول والمخافة مما سيحل بهم ارتفعت افئدتهم عن أماكنها ونشبت في حلوقهم قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨- ١٩] قال قتادة: «وقفت القلوب في الحناجر من الخوف فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها»(٣) كاظمين على ما في قلوبهم من الروع الشديد والمزعجات الهائلة(٤) ساكتين لا يتكلم أحد إلا بإذنه(٥) وبقيت قلوبهم خالية ليس فيها شيء من الخير، ولا تعقل شيئا(٦) قال تعالى: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣].

شخصت أبصارهم: رفعوا رؤوسهم وشخصت أبصارهم قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾

---

(١) بهجة الناظرين شرح رياض الصالحين (١/ ٣٠٥).
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٦٣٨).
(٣) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٤/ ٧٣).
(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٧٣٥).
(٥) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٤/ ٧٣).
(٦) جامع البيان في تأويل القرآن (٧/ ٤٧٢).

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٢- ٤٣].

ذلتهم وسواد وجوههم: فهم مديموا النظر لايطرفون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول والخوف(١) ووصف اللّه تعالى أبصارهم في موضع آخر بالخضوع لما هم فيه من خزي وذل وهوان قال تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٢٤] وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ [يونس: ٢٧] تعتريهم وتعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم من عذاب اللّه الذين لا يدفعه عنهم دافع ولا يعصمهم منه عاصم، وتسري تلك الذلة الباطنة إلى ظاهرهم فتكون سوادا في الوجوه»(٢) قال تعالى: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٧] وذكر اللّه تعالى سواد وجوههم في عدة مواضع:

قال سبحانه: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٤٠- ٤٢] أي يعلوها ويغشاها السواد(٣).

وقال سبحانه: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٤- ٢٥] أي متغيرة الأولوان مسودة كالحة تعلم أن يفعل بها داهية(٤).

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦] وسواد الوجه من العلامات التي يعرف بها المجرمون يوم القيامة قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤٠] يجمع الزبانية ناصية الكافر

---

(١) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٣/ ٥٤٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣٦٢).

(٣) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٤/ ٤٨٢).

(٤) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (١٢/ ٣٤٤).

مع قدميه في سلسلة من وراء ظهره ثم يلقى في جهنم[١] وقال في موضع آخر: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٤٩- ٥٠] قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالقيود من غل وسلسلة[٢] وألبسوا ثيابا من قطران وهو الذي تكوى به الإبل إذا أصيبت بالجرب وقال ابن عباس: «القطران هو النحاس المذاب»[٣].

إلجامهم بالعرق: وهم في ذلك الموقف يكابدون حر الشمس ويتغشاهم الموت من غرقهم في العرق وقد ألجمهم إلجاماً روى أنس عن رسول اللَّه ﷺ: «إني لقائم انتظر أمتي تعبر إذ جاء عيسى عليه السلام قال: فقال: هذه الأنبياء قد جاءتك يا محمد! يسئلون- أو يجتمعون إليك أن تدعو اللَّه أن يفرق بين جمع الأمم إلى حيث يشاء، لعظم ما هم فيه، فالخلق ملجومون في العرق، فأما المؤمن فهو عليه كالزكمة وأما الكافر فيتغشاه الموت»[٤].

عسر يوم القيامة عليهم وطوله:

إن هذا اليوم يكون شديد الهول عليهم عبوس قمطرير عسير غير سهل قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٩- ١٠] وقال تعالى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦] ونظراً لطول هذا اليوم العظيم يدركون أن حياتهم الدنيا كانت قصيرة جدا قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٢- ١٠٤] يتسارون بينهم: لبثتم في الدار الدنيا عشرة أيام. . ويقول العاقل منهم: لم تلبثوا إلا يوما واحدا!! فالدنيا وإن تكررت أوقاتها وتعاقبت أزمانها كأنها يوم واحد كقوله

---

(١) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٤/ ٢٨١).

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن الطبري (٧/ ٤٨٤) بتصرف يسير.

(٣) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٢/ ٥٥٠).

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ١٧٨) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٤٥٤).

تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٢- ١٤][1].

ندم الكافرين وأمانيهم:

والمقصود من هذا: الندم العظيم! كيف ضيعوا الأوقات القصيرة، وقطعوها ساهين لاهين معرضين عما ينفعهم، مقبلين على ما يضرهم فيها وقد حضر الجزاء وحق الوعيد فلم يبق إلا الندم والدعاء بالويل والثبور[2] قال تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [يونس: ٥٤] وقال سبحانه: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: ٣١] وقال سبحانه: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦] «والحسرة أشد الندامة فيندم الكافر ندما شديدا ويعض على يديه»[3] «أسفا على ما فرط في جنب الله وأوبق نفسه بالكفر به وطاعة خليله الذي صده عن سبيل ربه»[4] ويتمنى أن كان في الدنيا قد سلك سبيل النجاة باتباع طريق الرسول ﷺ ويتمنى العودة إلى الدنيا ليعمل عملا صالحا، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢] ويتمنى في ذلك اليوم أن تنشق الأرض وتبلعه، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢].

كما يتمنى أن يكون ترابا؟! قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠].

---

(١) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٣/ ١٥١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن لتفسير كلام المنان (٥١٣).

(٣) أضواء البيان (٦/ ٣١٣).

(٤) جامع البيان في تأويل القرآن (٩/ ٣٨٤).

استعداد الكافر لافتداء نفسه يوم القيامة:

ويود الكافر يوم القيامة لو يفتدي نفسه من عذاب الله بملء الأرض ذهبا ولو أن له ما في الأرض جميعا لافتدى به ولكن لا يتقبل منه؟! قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [يونس: ٥٤] وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ١٨] وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١] قال ابن كثير: «ويقتضي ذلك أن لا ينقذه من عذاب الله شيء ولو كان قد انفق مثل الأرض ذهبا»[١] روى مسلم عن أنس ابن مالك أن النبي ﷺ قال: «يقال للكافر يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبا، أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم، فيقال له: قد سئلت أيسر من ذلك»[٢] بل إن الكافر يود إذا رأى أهوال القيامة أن يفتدي نفسه بأحب الناس إليه في الدنيا وأقربهم نسبا بولده وزوجته وأخيه وفصيلته وهم عشيرته التي تؤويه وتضمه، ولا يقبل منه فداء ولو جاء بأهل الأرض جميعا؟![٣] تخيل أخي وهم في شدة عظيمة من هذه الكروب وإذا بهم يسمعون صوت تغيظ النار وزفيرها قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢] إذا رأت النار الكفار من مكان بعيد: أي في عرصات المحشر اشتد غيظها على من كفر بربها وعلا زفيرها فسمع الكفار صوتها من شدة غيظها تغلي وتفور وسمعوا زفيرها؟! فكيف يكون

---

(١) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (١/ ٢٩٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب صفة القيامة والجنة والنار- باب طلب الكافر الفداء بملئ الأرض ذهبا- برقم (٥٢/ ٢٨٠٥).

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن، (١٢/ ٢٣٠- ٢٢١) تيسير العلي القدير لاختصار تفسر ابن كثير (٤/ ٤٢٣).

حالهم يومئذ وقد علموا أن مآلهم لها ومصيرها إليها؟![1].

تخاصم الكفرة في الموقف:

يتخاصم الكفار يوم القيامة ويتلاعنون ويتبرأ كل منهم من الأخر، ويكفر بعضهم ببعض، قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥] وقال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] وهم في خصامهم أنواع: تخاصم العابدين مع معبودهم، وتخاصم الأتباع مع قادتهم الذين أضلوهم، وتخاصم الضعفاء مع السادة والملوك، وتخاصم الكافر وقرينه الشيطان[2]، وأدعوك أخي لتدبر هذه المواقف في كتاب الله العظيم، وقد كان الغرض في هذا المبحث عرض بعض أحوال الكفار يوم القيامة وليس استقصائها كلها رغبة في الاختصار وخشية الإطالة.

* * *

---

(١) أضواء البيان (٦/ ٢٨٧- ٢٨٨) وانظر تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٣/ ٣٠٥).

(٢) ذكر هذا التقسيم عمر الأشقر في كتابه «القيامة الكبري» ص ١٢٨ .

المبحث الخامس
من الأمور العظيمة يوم القيامة مجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥] قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الأمور العظيمة، فمنها انشقاق السماء وتفطرها وانفراجها بالغمام «أي عن الغمام»[١] ونزول ملائكة السموات (فيقفون صفا صفا؟! إما صفا واحدا محيطا بالخلائق، وإما كل سماء يكونون صفا، ثم السماء التي تليها صفا، وهكذا)[٢] قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] فيحيطون بالخلائق في مقام الحشر، ثم يجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء، قال مجاهد: وهذا كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[٣] [البقرة: ٢١٠] والقصد أن الملائكة- على كثرتهم وقوتهم- ينزلون محيطين بالخلق ، مذعنين لأمر ربهم، لا يتكلم منهم أحد إلا بإذن اللّه، فما ظنك بالآدمي الضعيف، خصوصا الذي بارز مالكه بالعظام، وأقدم على مساخطه، ثم قدم عليه بذنوب وخطايا لم يتب منها؟! فيحكم فيه الملك الحق بالحكم الذي لا يجور، ولا يظلم مثقال ذرة؟![٤].

* * *

(١) ما بين المعكوفين قول ابن جرير في جامع البيان في تأويل القرآن (٩/ ٣٨٣).
(٢) ما بين المعكوفين قول السعدي في تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص٥٨١).
(٣) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٣/ ٣١٠) باختصار.
(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص٥٨١).

الفصل الرابع: الشفاعة

المبحث الأول

شفاعات النبي ﷺ:

لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام ثلاث شفاعات:

١- الشفاعة العظمى في أهل الموقف عند اللّه حتى يقضي بينهم بعد أن يتراجع الأنبياء آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم عن الشفاعة حتى تنتهي إليه.

٢- شفاعته في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة.[١]

وهاتان الشفاعتان خاصتان له.

٣- شفاعته فيمن استحق النار أن لا يدخلها أو يشفع فيمن دخلها أن يخرج منها[٢] وهذه الشفاعة له ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم[٣].

بمعنى أنها ليست خاصة به ﷺ بل تكون للنبيين حيث يشفعون في عصاة قومهم، وللصديقين يشفعون في عصاة أقاربهم وغيرهم والمؤمنين وكذلك لغيرهم من الصالحين حتى يشفع الرجل في أهله وفي جيرانه وفيما أشبه ذلك، ولكن لا بد في هذه الشفاعة من ثلاثة شروط:-

١- إذن اللّه تعالى فيها.

٢- رضاه عن الشافع.

٣- رضاه عن المشفوع له.

---

(١) سيأتي ذكر أحاديث وردت فيها في موضعها بإذن اللّه تعالى.

(٢) والمراد بذلك عصاة الموحدين.

(٣) سيأتي ذكر أحاديث وردت فيها في موضعها بإذن اللّه تعالى.

وقد اجتمعت هذه الشروط الثلاثة في قوله تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦] أما الشفاعة العظمى فمن المعلوم أن المشفوع لهم ليسوا كلهم مرضيين عند الله لأن الموقف يشمل المؤمنين والكافرين[١].

* * *

(١) المحاضرات السنية في شرح العقيدة الواسطية (٢/ ٥٩٠).

المبحث الثاني
شفاعة النبي ﷺ في أهل الموقف لبدء الحساب

ذلك أن الناس يلحقهم من الكرب والغم مالا يطيقون، فيقول بعضهم لبعض ألا تطلبون أحدا يشفع لنا عند ربنا يريحنا من هذا الموقف؟ فيطلبون الشفاعة لهم إلى ربهم من الأنبياء عليهم السلام فيتدافعونها حتى ينتهي الأمر إلى نبينا محمد ﷺ فيشفع هذه الشفاعة العامة لأهل الموقف: مؤمنهم وكافرهم ليراحوا من هول موقفهم(١).

وقد وردت أحاديث صحيحة في هذه الشفاعة نذكر منها ما يلي: روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى رسول اللّه ﷺ يوما بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه، فنهس منها نهسة فقال: أنا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون بم ذلك؟ يجمع اللّه يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب مالا يطيقون، ومالا يحتملون، فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه؟ ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: ائتوا آدم فيأتون آدم.

فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك اللّه بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة، فعصيته، نفسي، نفسي، نفسي. إذهبوا إلى

---

(١) التذكرة من ٢١٧ بتصرف يسير.

غيري، إذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحا فيقولون: يا نوح! أنت أول الرسل إلى الأرض، وسماك اللّه عبدا شكورا، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوت بها على قومي، نفسي، نفسي، إذهبوا إلى إبراهيم ﷺ فيأتون إبراهيم فيقولون: أنت نبي اللّه وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم إبراهيم: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وذكر كذباته(١) نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى فيأتون موسى ﷺ فيقولون: يا موسى! أنت رسول اللّه فضلك اللّه برسالاته وبتكليمه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى عليه السلام: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإني قتلت نفسا لم أؤمر بقتلها، نفسي، نفسي، إذهبوا إلى عيسى عليه السلام.

---

(١) بين الثلاث كذبات في رواية عماره بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة عن رسول اللّه ﷺ (... وزاد في قصة إبراهيم فقال: ذكر قوله في الكوكب: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ وقوله لآلهتهم ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ وقوله ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الإيمان- باب أدنى أهل الجنة منزله فيها برقم (١٩٤) وذكر ابن حجر في الفتح: «زاد شيبان في رواية» قوله إني سقيم، وفعله كبيرهم هذا، وقوله لامرأته أخبريه إني أخوك «وفي رواية أبي نضرة عن أبي سعيد، فيقول: إني كذبت ثلاث كذبات، قال رسول اللّه ﷺ: ما منها كذبة إلا ما حل بها عن دين اللّه، وما حل بمعنى جادل، وقال البيضاوي: الحق أن الكلمات الثلاث إنما كانت من معاريض الكلام لكن لما كانت صورتها صورة الكذب أشفق منها استصغارا لنفسه عن الشفاعة مع وقوعها، لأن من كان أعرف باللّه وأقرب إليه منزلة كان أعظما خوفا» [فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار (١١- ٥٢٩) باختصار وروى ابن ماجه في سننه عن أبي هريرة: قال: قال رسول اللّه ﷺ «لم يكذب إبراهيم عليه السلام في شيء قط إلا ثلاث، قوله: إني سقيم، ولم يكن سقيما، وقوله لساره: أختي، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا» [سنن ابن ماجه- أبواب فضائل القرآن- من سورة الأنبياء (٣/ ٧٧) ورواه أبو داود.

فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى! أنت رسول اللّه، وكلمت الناس في المهد، وكلمة منه ألقاها إلى مريم وروح منه، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى ﷺ إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر له ذنبا، نفسي، نفسي، إذهبوا إلى غيري، إذهبوا إلى محمد ﷺ فيأتون فيقولون: يا محمد! أنت رسول اللّه وخاتم الأنبياء، وغفر اللّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجدا لربي، ثم يفتح اللّه علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه لأحد قبلي، ثم يقال: يا محمد! ارفع رأسك، سل تعطه، اشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: يارب! أمتي، أمتي، فيقال: يا محمد! أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، والذي نفس محمد بيده! إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى[(١)] قال شارح الطحاوية بعد أن ساق هذا الحديث: «والعجب كل العجب من إيراد الأئمة لهذا الحديث من أكثر طرقه لا يذكرون أمر الشفاعة الأولى في أن يأتي الرب تعالى لفصل القضاء. . . فإنه المقصود في هذا المقام ومقتضى سياق أول الحديث، فإن الناس إنما يستشفعون إلى آدم فمن بعده من الأنبياء في أن يفصل بين الناس، ويستريحوا من مقامهم، كما دلت عليه سياقاته من سائر طرقه فإذا وصلوا إلى المحز، إنما يذكرون الشفاعة في عصاة الأمه وإخراجهم من النار. وكأن مقصود السلف، في الاقتصار على هذا المقدار من الحديث، هو الرد على الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة، الذين أنكروا خروج أحد من النار بعد دخولها، فيذكرون هذا القدر من الحديث الذي فيه النص الصريح في الرد عليهم فيما ذهبوا إليه من البدعة المخالفة

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الإيمان- باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها برقم (٣٢٧- ١٩٤).

للأحاديث[1]. وروى البخاري عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يجمع الله الناس يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا، فيأتون آدم فيقولون: أنت الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك فاشفع لنا عند ربنا، فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته، ويقول: ائتوا نوحا أول رسول بعثه الله: فيأتونه، فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته ائتوا إبراهيم الذي اتخذه الله خليلا، فيأتونه، فيقول: لست هناكم ائتوا عيسى، فيأتونه فيقول لست هناكم، ائتوا محمدا ﷺ فقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتون، فأَستأذن على ربي، فإذا رأيته وقعت له ساجدا، فيدعني ما شاء الله، ثم يقال لي: إرفع رأسك، وسل تعطه، وقل تسمع، واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأحمد ربي بتحميد يعلمني، ثم أشفع فيحد لي حداً ثم أخرجهم من النار وأدخلهم الجنة، ثم أعود فأقع ساجدا مثله في الثالثة أو الرابعة، حتى ما يبقى في النار إلا من حبسه القرآن» وكان قتاده يقول عند هذا: أي وجب عليه الخلود[2].

ساق ابن حجر في شرح هذا الحديث ما قاله الداودي: «كأن راوي هذا الحديث ركب شيئا على غير أصله، وذلك أن أول الحديث ذكر الشفاعة في الإراحة من كرب الموقف، وفي آخره ذكر الشفاعة في الإخراج من النار، يعني وذلك إنما يكون بعد التحول من الموقف والمرور على الصراط وسقوط من سقط في تلك الحالة في النار، ثم يقع بعد ذلك الشفاعة في الإخراج» قال ابن حجر: «وهو إشكال قوي، وقد أجاب عنه عياض وتبعه النوري وغيره بأنه قد وقع في حديث حذيفه المقرون بحديث أبي هريرة بعد قوله: «فيأتون محمدا فيقوم ويؤذن له، أي في الشفاعة، وترسل الأمانة والرحم فيقومان جنبي الصراط يمينا وشمالا

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٨٥- ٢٨٦ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه- كتاب الرقاق- باب صفة الجنة والنار (ص ١٦٠٨) (٦٥٦٥).

فيمر أولكم كالبرق الحديث، قال عياض: فبهذا يتصل الكلام، لأن الشفاعة التي لجأ الناس إليه فيها هي الإراحة من كرب الموقف، ثم تجيء الشفاعة في الإخراج، وقد وقع في حديث أبي هريرة[1]... الأمر بأتباع كل أمة من كانت تعبد، ثم تميز المنافقين من المؤمنين، ثم حلول الشفاعة[2] بعد وضع الصراط والمرور عليه، فكأن الأمر باتباع كل أمة من كانت تعبد هو أول فصل القضاء والإراحة من كرب الموقف، قال: وبهذا تجتمع متون الأحاديث وتترتب معانيها «قال ابن حجر: «فكان بعض الرواةحفظ ما لم يحفظ الآخر، وسيأتي بقيته في شرح حديث الباب الذي يليه وفيه «حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفا وفي جانبي الصراط كلاليب مأمورة بأخذ من أمرت به فمخدوش ناج ومكدوش في النار»[3] فظهر منه أنه ﷺ أول ما يشفع ليقضي بين الخلق وأن الشفاعة فيمن يخرج من النار ممن سقط تقع بعد ذلك»[4].

***

(١) عن رسول الله ﷺ وفيه: «... يجمع الله تعالى الناس فيقول: من كان يعبد شيئا فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله في غير الصوره التي يعرفون فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا أتانا عرفناه، فيأتيهم الله في الصورةالتي يعرفون فيقول: أنا ربكم فيقولون: أنت ربنا فيتبعون، ويضرب جسر جهنم...» (رواه البخاري- كتاب الرقاق- باب الصراط جسر جهنم- فتح الباري شرح صحيح البخاري (١١/ ٥٤١) (٦٥٧٣).

(٢) وقع ذلك في حديث أبي سعيد «يضرب الجسر على جهنم تحل جهنم تحل الشفاعة ويقولون: سلم سلم» ذكر ذلك ابن حجر في فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتاب الرقاق- باب الصراط جسر جهنم- (١١/ ٥٥٠) (١٨٣ - ٣٠٢) برواية أبي سعدي الخدري ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه- كتاب الرقاق- باب الصراط جسر جهنم (ص١٦١٠) (٦٥٧٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١١/ ٥٣٣).

المبحث الثالث
كمال شفاعة النبي ﷺ على أُمته ورأفته بهم

روى مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة، إن شاء اللّه، من مات من أمتي لا يشرك باللّه شيئا»(١).

قال النووي: «في هذا الحديث بيان كمال شفقة النبي ﷺ على أمته ورأفته بهم واعتنائه بالنظر في مصالحهم المهمة فأخر ﷺ دعوته لأمته إلى أهم أوقات حاجاتهم»(٢) وقد دعا ﷺ لأمته وبكى شفقة عليهم، روى مسلم في صحيحه عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص، أن النبي ﷺ تلا قول اللّه عز وجل في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ [إبراهيم: ٣٦].

وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] فرفع يديه، وقال: «اللّهم، أمتي، أمتي. وبكى فقال اللّه عز وجل: يا جبريل! إذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك»(٣)

* * *

(١) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الإيمان- باب دعاء النبي ﷺ لأمته برقم (١٩٩، ٣٣٨).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي- باب الشفاعة (٣- ٧٥).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الإيمان- دعاء النبي ﷺ لأمته برقم (٢٠٢، ٣٤٦).

المبحث الأول: تمهيد:

في ذلك اليوم العظيم تعرض الخلائق على ربها للحساب، ظاهرين لا يسترهم شيء: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ [غافر: ١٦] ولا من أعمالهم التي عملوها في الدنيا.[١] قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨] يعرضون على علام السر والنجوى الذي لا يخفى عليه شيء من أمورهم؟! قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أخف عليكم من الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم وتزينوا للعرض الأكبر» يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية[٢] في ذلك اليوم يثاب كل عامل بعمله، فيوفى أجر عمله، فعامل الخير يجزى الخير، وعامل الشر يجزى جزاءه[٣]، قال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وقال سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧] لا بخس على أحد فيما أستوجبه من أجر عمله في الدنيا فينقص منه إن كان محسنا، ولا يحمل على مسيء إثم ذنب لم يعمله فيعاقب عليه[٤] قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] بل «العدل التام في حكم الله بين خلقه، لا يظلم سبحانه مثقال ذرة من خير ولا شر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠] وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧- ٨] بل يجزي بالحسنة عشر أمثالها وبالسيئة واحده،

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن (١١/ ٤٨).

(٢) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٤/٤١٦) وهو في الزهد ص ١٧٧ .

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن (١١/٤٨).

(٤) جامع البيان في تأويل القرآن (١١/٤٨).

قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] ولهذا قال تعالى: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ كما ثبت في الصحيح عن أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل أنه قال: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله تبارك وتعالى ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»(١)(٢) إنه مشهد عظيم، يجل وصفه، كيف والمحاسب سيقف بين يدي رب العالمين جبار السموات والأرض يسأله عن مثاقيل الذر من العمل، فأي خوف يعتريه! قال الحسن البصري: «خرج هرم وعبد الله بن عامر بن كريز، فبينما رواحلها ترعى إذ قال هرم: «أيسرك أنك كنت هذه الشجرة؟ قال لا والله لقد رزقني الله الإسلام، وإني لأرجو. قال: والله لوددت أني كنت هذه الشجرة، فأكلتني هذه الناقة ثم بعرتني فاتخذت جلة(٣) ولم أكابد الحساب، يا ابن أبي عامر، ويحك، أني أخاف الداهية الكبرى»(٤).

* * *

(١) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب البر والصلة والآداب- باب: تحريم الظلم برقم (٥٥، ٢٥٧٧).

(٢) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٤/ ٧٢) بتصرف.

(٣) الجلة: البعر الذي لم ينكسر، يستعمل بالوقود.

(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٩).

المبحث الثاني
أمة محمد عليه الصلاة والسلام أول من يحاسب يوم القيامة

روى ابن ماجه في سننه عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «نحن آخر الأمم، وأول من يحاسب، يقال: أين الأمة الأمية ونبيها؟ فنحن الأولون والآخرون»[١] فنحن آخر الأمم وخيرها»[٢] وفي رواية أخرى: «إنكم وفيتم سبعين أمة، أنتم خيرها، وأكرمها على اللّه»[٣] وذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء.

* * *

---

(١) صحيح سنن ابن ماجه- كتاب الزهد- باب صفة أمة محمد ﷺ (٢/ ٤٢٧) (٣٤٦٣- ٤٢٩٠) قال الألباني صحيح.

(٢) صحيح سنن ابن ماجه- كتاب الزهد- باب صفة أمة محمد ﷺ (٢/ ٤٢٦) (٣٤٦٠- ٤٢٨٧).

(٣) صحيح سنن ابن ماجه- كتاب الزهد- باب صفة أمة محمد ﷺ (٣٤٦١- ٤٢٨٨).

المبحث الثالث
أنواع الحساب

قال القرطبي: «قال بعض العلماء: ذكر اللّه تعالى الحساب جملة وجاءت الأخبار بذلك، وفي بعضها ما يدل على أن كثيراً من المؤمنين يدخلون الجنة بغير حساب، فصار الناس إذا ثلاث فرق: فرقة لا يحاسبون أصلا، وفرقة تحاسب حساباً يسيرا، وهما من المؤمنين، وفرقة تحاسب حسابا شديدا يكون منهم مسلم وكافر»(١).

وسنتناول هذه المسألة بالشرح والتفصيل:

١- **الفرقة الأولى**: الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ولا مناقشة:

وهؤلاء لا يحاسبون أصلا، بل يدخلون الجنة بعد شفاعة النبي ﷺ وقد سبق في حديث الشفاعة الذي رواه أبو هريرة قول النبي ﷺ: «فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجدا لربي، ثم يفتح اللّه على ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه عليه لأحد من قبلي، ثم يقال: يا محمد: ارفع رأسك، سل تعطه أشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: يارب، أمتي، أمتي، فيقال: يا محمد! أدخل الجنة من أمتك، من لا حساب عليه، من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب. . .»(٢) وروى البخاري عن سعيد ابن جبير قال: حدثني ابن عباس قال: قال النبي ﷺ عرضت علي الأمم، فأخذ النبي يمر معه الأمة والنبي يمر معه

---

(١) التذكرة: ص ٢٤٩ وذكر هذا التقسيم أيضا ابن حجر في فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتاب الرقاق- باب يدخل الجنة سبعون ألف بغير حساب (١١/ ٤٩٤).

(٢) قطعة من حديث أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الإيمان- باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها برقم (٣٢٧، ١١٩٤).

النفر، والنبي يمر معه العشرة، والنبي يمر معه الخمسة، والنبي يمر وحده، فنظرت فإذا سواد كثير، قلت: يا جبريل: هؤلاء أمتي؟

قال: لا، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد كثير، قال: هؤلاء أمتك وهؤلاء سبعون ألفا قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب، قلت: ولم؟ قال: كانوا لا يكتوون ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون.

فقام إليه عكاشة بن محصن فقال: ادع اللّه أن يجعلني منهم قال: اللهم اجعله منهم ثم قام إليه رجل آخر فقال: أدع الله أن يجعلني منهم فقال: سبق بها عكاشة»[1] وقد صح أن اللّه وعد نبيه ﷺ بالزياده عن السبعين ألف:

عن أبي أمامه قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفا لا حساب عليهم ولا عذاب، مع كل ألف سبعون ألفا وثلاث حثيات من حثيات ربي»[2].

٢- الفرقة الثانية: الذين يحاسبون حسابا يسيرا:

وهؤلاء لا يناقشون الحساب، بل تعرض عليهم ذنوبهم، ويقررون بها ثم يغفرها اللّه لهم وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧-٨] روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول اللّه ﷺ قال: «ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك. فقلت: يا رسول اللّه، أليس قد قال اللّه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الأنشقاق: ٧-٨] فقال رسول اللّه ﷺ: «إنما ذلك العرض، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب»[3] قال ابن حجر: «قال القرطبي: معنى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه- كتاب الرقاق- باب يدخل الجنة سبعون ألفا بغير حساب (ص١٦٠٥).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه أبواب صفة القيامة (٢/ ٢٩٥) (١٩٨٤- ٢٥٦٧) قال الألباني صحيح.

(٣) أخرجه البخاري- كتاب الرقاق باب من نوقش الحساب عذب (ص١٦٠٤) (٦٥٣٧) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها- باب: إثبات الحساب (ص١١٥٢) (٧٩) (٢٨٧٦) واللفظ للبخاري.

قوله: «إنما ذلك العرض» أنَّ الحساب المذكور في الآية إنما هو أن تعرض أعمال المؤمن عليه حتى يعرف منة اللّه عليه في سترها عليه في الدنيا وفي عفوه عنها في الآخرة كما في حديث ابن عمر في النجوى»[1] وروى البخاري عن قتاده عن صفوان بن محرز المازني قال: «بينما أنا أمشي مع ابن عمر رضي الله عنهما آخذ بيده إذ عرض رجل فقال: كيف سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في النجوى؟[2] فقال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: إن اللّه يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره فيقول: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى نفسه أنه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطي كتاب حسناته، وأما الكافر والمنافقون فيقول الأشهاد: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3] [هود: ١٨] قال القرطبي: قوله «حتى يضع عليه كنفه» أي ستره ولطفه وإكرامه فيخاطبه خطاب الملاطفة ويناجيه مناجاة المصافاة والمحادثة فيقول: «هل تعرف؟ فيقول: رب أعرف، فيقول اللّه تعالى ممتنا عليه ومظهرا فضله لديه، فإني قد سترتها عليك في الدنيا أي لم أفضحك بها فيها وأنا أغفرها لك اليوم»[4] ولقد بشر النبي ﷺ من ستر اللّه عيبه في الدنيا بأن يستر عليه في الآخرة. روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يستر اللّه على عبد في الدنيا، إلا ستره اللّه يوم القيامة»[5] وكذلك من يستر على الناس عيوبهم ولا يفضحهم فاللّه يستره يوم القيامة روى مسلم عن أبي هريرة

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتاب الرقاق- باب من نوقش الحساب عذب (١١/ ٤٨٩).

(٢) المراد بالنجوى هنا المناجاة التي تقع من الرب سبحانه وتعالى يوم القيامة مع المؤمنين. قال ابن حجر في فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب الآداب- باب ستر المؤمن على نفسه (١٠/ ٥٩٩).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه- كتاب المظالم- باب قول اللّه تعالى: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨] (ص٦٢٩) (٢٤٤١).

(٤) التذكرة ص ٢٣٠ .

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب البر والصلة والآداب- باب بشارة من ستر اللّه عيبه في الدنيا بأن يستر عليه في الآخرة برقم (٧٢، ٢٥٩٠).

رضي الله عنه عن النبي ﷺ «لا يستر عبد عبدا في الدنيا، إلا ستره الله يوم القيامة»[1].

٣- **الفرقة الثالثة: الذين يحاسبون حسابا عسيرا:**

وهم الذين يناقشون الحساب «والمراد بالمناقشة الاستقصاء في المحاسبة والمطالبة بالجليل والحقير، وترك المسامحة، يقال انتقشت منه حقي أي استقصيته»[2] وجاء في حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «من نوقش الحساب عذب»[3] وفي رواية أخرى عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «من نوقش الحساب هلك»[4] قال النووي: «معنى نوقش استقصى عليه، قال القاضي: وقوله عذب له معنيان:

أحدهما: أن نفس المناقشة وعرض الذنوب والتوقيف عليها هو التعذيب لما فيه من التوبيخ.

الثاني: أنه مفض إلى العذاب بالنار [إذ لا حسنة للعبد إلا من عند الله لإقداره عليها وتفضله عليه بها وهدايته لها ولأن الخالص لوجهه قليل ويؤيد الثاني][5].

قوله في الرواية الأخرى «هلك» مكان عذب هذا كلام القاضي. وهذا الثاني هو الصحيح ومعناه إن التقصير غالب في العباد فمن استقصى عليه ولم يسامح هلك ودخل النار وهؤلاء قسمان:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب البر والصلة والآداب- باب بشارة من ستر الله عيبه في الدنيا بأن يستر عليه في الآخرة برقم (٧٢، ٢٥٩٠).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتاب الرقاق- باب من نوقش الحساب (١١/ ٤٨٧).

(٣) أخرجه البخاري كتاب الرقاق- باب من نوقش الحساب (ص١٦٠٤) (٦٥٣٦).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها- باب إثبات الحساب برقم (٨٠، ٢٨٧٦).

(٥) ذكر هذه الزيادة في كلام القاضي عياض ابن حجر في فتح الباري كتاب الرقاق- باب من نوقش الحساب عذب (١١/ ٤٨٩).

١- مسلمون عظمت ذنوبهم وكثرت فنوقشوا الحساب وعسر عليهم، ومثال ذلك مناقشة اللّه تعالى يوم القيامة للمرائين:

روى مسلم عن سليمان بن يسار قال: تفرق الناس، عن أبي هريرة، فقال له ناتل أهل الشام: أيها الشيخ! حدثنا حديثا سمعته من رسول اللّه ﷺ قال: نعم، سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «إن أول الناس يقضي يوم القيامة عليه، رجل استشهد، فأتي به فعرفه نعمة فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمة فعرفها: قال: فما عملت فيها؟ قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارىء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع اللّه عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك فقال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي النار»[(١)].

٢- الكفار الذين أشركوا باللّه تعالى والمنافقون فهؤلاء حسابهم عسير ويفضحون ويخزون على رؤوس الخلائق من الملائكة والرسل والأنبياء وسائر البشر والجان كما سبق في حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول اللّه ﷺ في النجوى وفيه. . . وأما الكافر والمنافقون فيقول الأشهاد: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الإمارة- باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار برقم (١٥٢، ١٩٠٥).

﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1] [هود: ١٨] ومسألة محاسبة الكفار يوم القيامة، اختلف فيها العلماء: هل يحاسب الكفار ويسألون أو يؤمر بهم إلى النار بغير حساب؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «هذه المسألة تنازع فيها المتأخرون من أصحاب أحمد وغيرهم، فمن قال إنهم لا يحاسبون: أبو بكر عبد العزيز، وأبو الحسن التميمي، والقاضي أبو يعلى، وغيرهم، وممن قال: إنهم يحاسبون: أبو حفص البرمكي من أصحاب أحمد، وأبو سليمان الدمشقي، وأبو طالب المكي.

وفصل الخطاب: إن الحساب: يراد به عرض أعمالهم عليهم وتوبيخهم عليها، ويراد بالحساب: موازنة الحسنات بالسيئات.

فإن أريد بالحساب المعنى الأول فلا ريب أنهم يحاسبون بهذا الاعتبار.

وإن أريد المعنى الثاني: فإن قصد بذلك أن الكفار تبقى لهم حسنات يستحقون بها الجنة فهذا خطأ ظاهر.

وإن أريد أنهم يتفاوتون في العقاب، فعقاب من كثرت سيئاته أعظم من عقاب من قلت سيئاته، ومن كان له حسنات خفف عنه العذاب، كما أن أبا طالب أخف عذابا من أبي لهب.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨] وقال تعالى: ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾ [التوبة: ٣٧] والنار دركات، فإذا كان بعض الكفار عذابه أشد عذابا من بعض لكثرة سيئاته وقلة حسناته- كان الحساب لبيان مراتب العذاب لا لأجل دخولهم الجنة[2] ولقد ذكر القرطبي الآيات الواردة في وزن أعمال الكفار وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾ [الأعراف: ٨] [المؤمنون: ١٠٣] ثم قال

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه- كتاب المظالم- باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨] (٥/ ١٢٠) (٢٤٤١).

(٢) مجموع فتاوي ابن تيمية (٤/ ٣٠٥- ٣٠٦).

وهذه الآيات إخبار لوزن أعمال الكفار لأن عامة المعنيين بقوله خفت موازينه في الآيات هم الكفار وقال سبحانه في سورة المؤمنين: ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٥] وفي الأعراف قال اللّه تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩] وقال جل وعلا: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٩] وهذا الوعيد بإطلاقه للكفار، وإذا جمع بينه وبين قوله تعالى ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] ثبت أن الكفار يسألون عما خالفوا فيه الحق من أصل الدين وفروعه. . . فإذا كانت أعمالهم موزونة دل على أنهم يحاسبون بها وقت الحساب، وفي القرآن ما يدل على أنهم مخاطبون بها مسؤولون عنها محاسبون بها مجزيون على الإخلال بها لأن اللّه تعالى يقول: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت: ٦، ٧] فتوعدهم على منعهم الزكاة، وأخبر عن المجرمين أنهم يقال لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المدثر: ٤٢- ٤٦] فبان بهذا أن المشركين مخاطبون بالإيمان والبعث وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأنهم مسؤولون عنها محاسبون ومجزيون على الإخلال بها»[1] وقد ذكر اللّه تعالى في آيات كثيرة أن الكفار يسألون كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢- ٩٣] وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ۝٦٥ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [القصص: ٦٥- ٦٦] وقوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤] وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝١٢ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢- ١٣].

وقد يشكل على البعض ما ورد من آيات تبين أن الكفار لا يسألون كقوله

---

(١) التذكرة: ص ٢٧٠ باختصار.

تعالى يوم القيامة: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨] وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [البقرة: ١٧٤] وليس هناك أي تعارض بين نصوص القرآن الكريم وقد وضح العلماء ذلك، قال القرطبي: «القيامة مواطن فموطن يكون فيه سؤال وكلام وموطن لا يكون ذلك».

قال عكرمة: القيامة مواطن يسأل في بعضها ولا يسأل في بعضها.

وقال ابن عباس: لا يسألون سؤال شفا وراحة، وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ: لم عملتم كذا وكذا.[1]

وقال القرطبي ومعنى ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي بما يحبونه... وقد قيل إن معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨] ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] سؤال التعرف لتمييز المؤمنين من الكافرين، أي أن الملائكة لا تحتاج أن تسأل أحداً يوم القيامة أن يقال: ما كان دينك، وما كنت تصنع في الدين حتى يتبين لهم بإخباره عن نفسه أنه كان مؤمنا أو كان كافرا، ولكن المؤمنين يكونون ناضري الوجوه منشرحي الصدور، ويكون المجرمون سود الوجوه زرقا مكروبين، فهم إذا كلفوا سوق المجرمين إلى النار وتميزهم في الموقف كفتهم مناظرهم عن تعرف أديانهم»[2].

* * *

(١) وقال ذلك ابن تيمية: «عرض أعمالهم عليهم وتوبيخهم عليها» مجوع الفتاوي (٤/ ٣٠٥).

(٢) التذكره ص ٢٥٠- ٢٥٢ باختصار.

المبحث الرابع
إقامة الشهود

في ذلك اليوم العظيم وفي مشهد الحساب الرهيب يقيم اللّه تعالى الشهود على الخلائق، فيشهدون عليهم بما فعلوه، وذلك من كمال عدله سبحانه، وإعذاره للعالمين، حتى لا يبقى لأحد حجة، ويقر الجميع بعدل اللّه سبحانه قال تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٥٧] وقضي الأمر وحكم بالعدل بين الخلائق... ونطق الكون بأجمعه، ناطقه وبهيمة للّه رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله، ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد[1] على ما قضي به على أهل الجنة وأهل النار، حمد فضل وإحسان وحمد عدل وحكمه.[2] وأعظم شهيد وأجل شهيد على الخلائق يوم القيامة خالقهم وفاطرهم الذي يعلم جميع أحوالهم في كل آن ولا يغيب عن علمه وبصره مثقال ذرة في السموات والأرض ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين كقوله تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] فأخبر تعالى أنه يعلم حركة كل شيء فإذا كان هذا علمه بحركات الأشياء فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعباده؟! كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٧- ٢١٩] ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ﴾ [يونس: ٦١][3] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ

---

(١) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٤/ ٦٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٧٣١).

(٣) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٢/ ٤١٣).

شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ [النساء: ٦٦، الأحزاب: ٥٥] فاعمل أخي عمل من يعلم أنه راجع إليه وقادم عليه يجازي على الصغير والكبير والقليل والكثير، سبحانه لا إله إلا هو[١] ومع ذلك أقام اللّه شهداء من مخلوقاته لئلا يبقى لمعتذر عذر فلا أحد أحب إليه العذر من اللّه. فالملائكة تشهد يوم القيامة قال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١] نفس كل بر وفاجر معها سائق يسوقها إلى اللّه تعالى وشاهد يشهد عليها بما عملت في الدنيا من خير وشر[٢] وهو الملك الموكل بعمل ابن آدم يشهد عليه يوم القيامة بما فعل ويقول: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ [ق: ٢٣] أي معتد محضر بلا زيادة ولا نقصان[٣] قد أحضرت ما جعلت عليه من حفظه وحفظ عمله[٤] وفي صحيح مسلم يقول الرب لعبده: «كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام الكاتبين شهودا» [٥] والرسل عليهم السلام يشهدون على أممهم بالخير والشر قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النحل: ٨٩] يعني أمتك[٦].

«هذا من كمال عدل اللّه أن كل رسول يشهد على أمته، لأنه أعظم اطلاعا من غيره على أعمال أمته وأعدل وأشفق من أن يشهد عليهم إلا بما يستحقون»[٧] وكما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا

---

(١) التذكرة ص ٢٥١ .

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن (١١/٤١٨- ٤٢٠). بتصرف يسير.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير (ص٣٧٥).

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص٨٠٦).

(٥) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الزهد والرقائق- برقم (١٧- ٢٩٦٩) وسيأتي بتمامه إن شاء اللّه فيما بعد.

(٦) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٢/٥٩٩).

(٧) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص٤٤٧).

عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨] فأمة محمد عليه السلام هي العدل الخيار يحكمون على الناس من سائر أهل الأديان ولا يحكم عليهم غيرهم، ومن شهادة هذه الأمة على غيرهم أنه إذا كان يوم القيامة وسأل الله المرسلين عن تبليغهم، والأمم المكذبة عن ذلك، وأنكروا أن الأنبياء بلغتهم، استشهدت الأنبياء بهذه الأمة وزكاها نبيها[١] وشهد أنه بلغها.

روى ابن ماجه في سننه عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يجيء النبي ومعه الرجلان، ويجيء النبي ومعه الثلاثة، وأكثر من ذلك وأقل، فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم فيدعى قومه، فيقال: هل بلغكم؟ فيقولون: لا، فيقال: من شهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فتدعى أمة محمد فيقال: هل بلغ هذا؟ فيقولون: نعم، فيقول: وما علمكم بذلك؟ فيقولون: أخبرنا نبينا بذلك أن الرسل قد بلغوا فصدقناه قال: فذلكم قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[٢] [البقرة: ١٤٣] وتشهد الأرض بما عملت الخلائق على ظهرها، قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ١- ٤]» أي تحدث بما عمل العاملون على ظهرها[٣].

وتشهد أعضاء الإنسان عليه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤] فكل جارحة تشهد عليهم بما عملت، ينطقها الذي أنطق كل شيء فلا يمكنه الإنكار ولقد عدل في العباد من جعل شهودهم من أنفسهم[٤] روى مسلم عن أنس بن مالك قال: «كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: «هل تدرون مما أضحك؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: من

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٧٠- ٧١) باختصار.

(٢) صحيح سنن ابن ماجه- كتاب الزهد- باب صفة أمة محمد ﷺ (٢/ ٤٢٥) (٣٤٥٧- ٤٢٨٤).

(٣) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٤/ ٥٤٢).

(٤) تيسير الكريم الرحمن لتفسير كلام المنان ٥٦٥ .

مخطابة العبد ربه، يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: " فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدا مني. قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا، وبالكرام الكاتبين شهودا، قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يخلي بينه وبين الكلام، قال: فيقول: بعدا لكن وسحقا، فعنكن كنت أناضل»[1].

وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قالوا: يارسول اللّه! هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة، ليس في سحابة؟ قالوا: لا، قال: فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر، ليس في سحابة؟ قالوا: لا، قال: فوالذي نفسي بيده! لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما، قال فيلقي العبد فيقول: أي فل![2] ألم أكرمك وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع فيقول: بلى، فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول، فإني أنساك كما نسيتني.

ثم يلقي الثاني فيقول: أي فل! ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى أي رب! فيقول أظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا: فيقول: فإني أنساك كما نسيتني ثم يلقي الثالث فيقول له مثل ذلك، فيقول: يا رب! آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع، فيقول: ها هنا إذا. قال: ثم يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك، ويتفكر في نفسه، من ذا الذي يشهد علي؟ فيختم على فيه، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليعذر من نفسه»[3].

* * *

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الزهد والرقائق برقم (١٧، ٢٩٦٩).

(٢) فل: فلان.

(٣) رواه مسلم في صحيحه- كتاب الزهد والرقائق برقم (١٦، ٢٩٦٨).

المبحث الخامس
إيتاء العباد صحف أعمالهم

وكل الله تعالى لبني آدم في حياتهم الدنيا ملائكة يكتبون عليهم كل أعمالهم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠- ١٢] «فعمل ابن آدم محفوظ ومكتوب ومجموع في كتاب يعطاه يوم القيامة منشورا أي مفتوحا فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣] وطائره: هو ما طار عنه من عمله كما قال ابن عباس، ومجاهد وغيرهما من خير وشر ويلزم به ويجازي عليه، وإنما ذكر العنق لأنه عضو من الأعضاء لا نظير له في الجسد، ومن ألزم بشيء فلا محيد له عنه»[(١)] ويقال له: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] اقرأ كتاب عملك الذي عملته في الدنيا، وحسبك اليوم نفسك عليك حاسبا يحسب عليك أعمالك فيحصيها عليك!![(٢)] تلا الحسن البصري ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧] فقال: يا ابن آدم بسطت لك صحيفتك، ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك فاعمل ما شئت أقلل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت في عنقك معك في قبرك حتى تخرج يوم القيامة كتابا تلقاه منشورا ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ فقد عدل والله من جعلك حسيب نفسك!![(٣)].

---

(١) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٣/ ١٤- ١٥) بتصرف.
(٢) جامع البيان في تأويل القرآن (٨/ ٥٠).
(٣) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٣/ ١٥).

ما الذي يكتب في صحف الأعمال؟!

قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧- ١٨] يتلقى الملكان اللذان يكتبان عمل الإنسان- عن العبد أعماله كلها أحدهما عن اليمين يكتب الحسنات والآخر عن الشمال يكتب السيئات وكل منهما مترصد ومتهيء لعمله الذي أعد له ما يتكلم ابن آدم بكلمة من خير أو شر إلا ولها من يرقبها ويكتبها لا يترك كلمة ولا حركة ولا شيء من قول أو عمل[١].

عن بلال بن الحارث المزني صاحب رسول الله ﷺ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه»[٢] وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يئن في مرضه فبلغه عن طاووس أنه قال: يكتب الملك كل شيء حتى الأنين فلم يئن أحمد حتى مات رحمه اللّه تعالى»[٣] ويدخل فيما يكتبه الملائكة أفعال القلوب وأفعال الجوارح[٤] وما نواه العبد وما هم به من الحسنات والسيئات فما نواه من الحسنات والسيئات يكتب له أجر النية فقط دون أجر العمل كما في الحديث الذي رواه أبو كبشه الأنماري عن رسول اللّه ﷺ وفيه: «إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه اللّه مالا وعلما فهو يتقي ربه فيه ويصل رحمه ويعلم للّه فيه حقه فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه اللّه علما ولم يرزقه

---

(١) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٤- ٢٣١) بتصرف انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٨٠٥) بتصرف.

(٢) صحيح سنن الترمذي- أبواب الزهد- باب ما جاء في قلة الكلام (٢/ ٢٦٩) (١٨٨٨- ٢٤٣٥) عن بلال بن الحارث وقال الألباني صحيح.

(٣) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٤- ٢٣٢).

(٤) تيسر الكريم الرحمن لتفسير كلام المنان ٩١٤- ٨٠٥ .

مالا فهو صادق النيه يقول: لو أن لي مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء وعبد رزقه اللّه مالا ولم يرزقه علما يخبط في ماله بغير علم لا يتقي فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم للّه فيه حقا فهو بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه اللّه مالا ولا علما فهو يقول لو أن لي مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء»(١) ويدل على أنهما ليسا سواء في أجر العمل ما رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن فقراء المهاجرين أتوا رسول اللّه ﷺ فقالوا: «ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم. فقال: «وما ذاك؟» قالوا: يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون كما نتصدق ويعتقون ولا نعتق، فقال رسول اللّه ﷺ: «أفلا أعلمكم شيئا تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم قالوا: بلى يا رسول اللّه قال: تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين مرة» قال أبو صالح فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول اللّه ﷺ فقالوا: سمع أخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله فقال رسول اللّه ﷺ: «ذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء»(٢) » ولم يقل إنكم بنيتكم أدركتم عملهم ولأن هذا هو العدل، فرجل لم يعمل فلا يكون كالذي عمل ونفع الناس لكن بنيته يكون مثله وأما إذا هم بالحسنة فلم يعملها كتبها اللّه حسنة كاملة كما جاء في حديث ابن عباس عن رسول اللّه ﷺ وفيه: «فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها اللّه عنده حسنة كاملة وإن هم بها فعملها كتبها اللّه عز

---

(١) صحيح سنن الترمذي كتاب الزهد باب ما جاء في مثل الدنيا مثل أربعة نفر (٢/ ٢٧٠) (١٨٩٤- ٢٤٤١) قال الألباني صحيح.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب المساجد- باب استحباب الذكر بعد الصلاة- برقم (١٤٢، ٥٩٥).

وجل عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة...»(١) مثاله: رجل هم أن يتوضأ ليقرأ القرآن ثم لم يفعل ذلك وعدل عنه فإنه يكتب له بذلك حسنة كامله وآخر هم أن يتصدق وعنده المال الذي يريد أن يتصدق به ثم أمسك ولم يتصدق فيكتب بذلك حسنة كاملة، وآخر هم أن يصلي ركعتين فأمسك ولم يصلي فإنه يكتب له بذلك حسنة كاملة(٢) وأما إذا هم بالحسنة وسعى في أسبابها ولكنه لم يدركها فيكتب له الأجر كاملا لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠] بل إن الإنسان إذا كان من عادته أن يعمل العمل في حال القدرة والاستطاعة ثم عجز عنه فإنه يكتب له أجر العمل كاملا، قال رسول الله ﷺ: «إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثلما كان يعمل مقيما صحيحا»(٣) والذي ينوي فعل السيئة ويسعى فيها ولم يدركها يكتب عليه الوزر كاملا لقول النبي ﷺ: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قالوا يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه قد أراد قتل صاحبه»(٤) ومثله من هم أن يشرب الخمر ولكن حصل له مانع فهذا يكتب عليه الوزر كاملا لأنه سعى فيه(٥) وإذا هم العبد بالسيئة فلم يعملها وتركها خوفا من الله تعالى فإنه يكتب له بذلك حسنة كاملة كما جاء في حديث ابن عباس عن رسول الله ﷺ وفيه: «وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة»(٦) لأنه ترك

---

(١) جزء من حديث ابن عباس الذي رواه مسلم في صحيحه- كتاب الإيمان- إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب برقم (١٣١، ٢٠٧).

(٢) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٠)

(٣) أخرجه البخاري كتاب الجهاد والسير باب يكتب للمسافر مثلما كان يعمل في الإقامة (ص٧٦٩) (٢٩٩٦) رواه أبو بردة عن أبي موسى

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الفتن باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما برقم (١٤، ٢٨٨٨).

(٥) المحاضرات السنية في شرح العقيدة الواسطية (٢/ ٥٦٤- ٥٦٥) بتصرف.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب إذا هم بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب برقم (١٣٠، ٢٠٦).

فعل المعصية لله فأثيب على ذلك كما جاء ذلك مفسرا في لفظ آخر «لأنه تركها من جراي»[١] أي أجلي، وإن هم بها فعملها، كتبها الله سيئة واحدة»[٢] وإن تركها لأن نفسه عزفت عنها فهذا لا إثم عليه ولا أجر[٣].

هذا يا أخي الكريم ما تجده يوم القيامة مكتوبا في صحيفة عملك... الجليل والحقير، والصغير والكبير!! قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] «يشفق المجرمون من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة يقولون: يا حسرتنا وويلنا على ما فرطنا في أعمارنا، ويقولون: مال هذا الكتاب لا يترك ذنبا صغيرا ولا كبيرا إلا أحصاه وضبطه وحفظه»!![٤].

كان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الأية يقول: يا ويلتنا ضجوا إلى الله من الصغائر قبل الكبائر!![٥] وكم من صغائر الذنوب لانلقي لها بالا وقد يهولنا يوم القيامة كثرة ما سطر منها في صحيفتنا وقد ضرب رسول الله ﷺ لصغائر الذنوب مثلا.

ذكر ابن حجر في الفتح حديث سهل بن سعد رفعه «إياكم ومحقرات الذنوب فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن وادي فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود حتى جمعوا ما انضجوا به خبزهم وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب إذا هم بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب برقم (١٢٩، ٢٠٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب إذا هم بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب برقم (١٣٠، ٢٠٦).

(٣) المحاضرات السنيه في شرح العقيدة الواسطية (٢/ ٥٦٦).

(٤) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٣/ ٧٨).

(٥) التذكرة ص ٢٢٦ .

صاحبه تهلكه»[1].

فاحذر أخي محقرات الأعمال تلك الذنوب التي لا يبالي المرء بها. روى ابن ماجة في سننه عن عائشة رضي الله عنها قالت: «قال لي رسول الله ﷺ: «يا عائشة! إياك ومحقرات الأعمال فإن لها من الله طالبا»[2]فنحن نحسبها هينه ولكنها في الحقيقة عظيمة لأنها تؤول إلى عظيم قال ابن بطال: «المحقرات إذا كثرت صارت كبارا مع الإصرار»[3] وقال أنس رضي الله عنه: «إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر إن كنا لنعدها على عهد النبي ﷺ الموبقات»[4] أي المهلكات فتفكر أخي قبل أن تقدم على أي عمل- مهما صغر أمره في عينيك- ماذا تملي في صحيفتك فما تمليه اليوم ستقرؤه غدا في القيامة ويقال لك: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء: ١٤] قال قتادة: «سيقرأ يومئذ من لم يكن قارئا في الدنيا»[5] نعمل وننسى ما عملناه، ولكن الله تعالى ضبطه وحفظه علينا وسوف يخبرنا به يوم القيامة قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦] وقال ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل، من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[6].

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٥/ ٣٣١) عن سهل بن سعد وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٨٩).

(٢) صحيح سنن ابن ماجه في سننه- كتاب الزهد- باب ذكر الذنوب (٢/ ٤١٦) (٣٤٢١- ٤٢٤٣) قال الألباني صحيح.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتاب الرقاق- باب ما يتقى من محقرات الذنوب (١١/ ٤٠٠).

(٤) أخرجه البخاري- كتاب الرقاق- باب ما يتقي من محقرات الذنوب (ص١٥٩٥) (٦٤٩٢).

(٥) جامع البيان في تأويل القرآن (٨/ ٥٠).

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب البر والصلة والآداب- باب تحريم الظلم برقم (٥٥/ ٢٥٧٧).

مثل وقوفك يوم العرض عريانا ... مستوحشا قلق الأحشاء حيرانا
والنار تلهب من غيظ ومن حنق ... على العصاة ورب العرش غضبانا
اقرأ كتابك يا عبدي على مهل ... فهل ترى فيه حرفا غير ما كانا
لما قرأت ولم تنكر قراءته ... إقرار من عرف الأشياء عرفانا
نادي الجليل: خذوه يا ملائكتي ... وامضوا بعبد عصى للنار عطشانا
المشركون غدا في النار يلتهبوا ... والمؤمنون بدار الخلد سكانا

فتوهم نفسك يا أخي إذا تطايرت الكتب ونصبت الموازين وقد نوديت باسمك على رؤوس الخلائق أين فلان بن فلان هلم إلى العرض على اللّه، وقد وكلت الملائكة بأخذك فقربتك إلى اللّه لا يمنعها اشتباه الاسماء باسمك واسم أبيك إذ عرفت أنك المراد بالدعاء إذا قرع النداء قلبك فعلمت أنك المطلوب، فارتعدت فرائصك واضطربت جوارحك وتغير لونك وطار قلبك، وتخطى بك الصفوف إلى ربك للعرض عليه والوقوف بين يديه... فتوهم نفسك وأنت بين يدي ربك في يدك صحيفة مخبرة بعملك لا تغادر بلية كتمتها ولا مخبأة أسررتها، وأنت تقرأ ما فيها بلسان كليل وقلب منكسر والأهوال محدقة بك من بين يديك ومن خلفك، فكم من بلية كنت قد نسيتها ذكرتها؟ وكم من سيئة كنت قد أخفيتها قد أظهرها وأبداها؟! وكم من عمل ظننت أنه مسلم لك وخلص فرده عليك في ذلك الموقف وأحبطه بعد أن كان أملك فيه عظيما؟! فيما حسرة قلبك ويا أسفك على ما فرطت فيه من طاعة ربك!!»[(1)].

صفة إيتاء العباد كتبهم وحالهم حينذاك:

لا يؤتى العباد كتبهم على صفة واحدة ولكن يختلفون فالمؤمن يؤتى كتابه بيمينه ويكون حسابه يسيرا فتعرض عليه أعماله ويقرر بها ويغفر اللّه تعالى له، قال سبحانه:

---

(١) التذكرة ص ٢٢٣- ٢٢٤ باختصار.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧-٨].

«ولا تسأل أخي عن فرحه وسروره- جعلني الله وإياك منهم بفضله ومنته وكرمه- فإنه من شدة فرحه يقول لمن لقيه: خذوا اقرأوا كتابيه، إني كنت موقنا في الدنيا أني ملاق حسابيه إذا وردت يوم القيامة على ربي، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩- ٢٠] وأما الأشقياء والعياذ بالله فيعطي أحدهم كتابه بشماله من رواء ظهره ولذلك وصفهم جل ثناؤه أحيانا أنهم يؤتون كتبهم بشمائلهم، وأحيانا أنهم يؤتونها من وراء ظهورهم»(١) «وحينئذ يدعو بالهلاك فيقول: واثبوراه! واويلاه! «قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا﴾ [الانشقاق: ١٠- ١١] ويتمنى أنه لم يؤت كتابه ولم يدر أي شيء حسابه، ويتمنى أن الموتة التي ماتها في الدنيا كانت موتة لا حياة بعدها وقد خلص الأمر إليه وحده فلم يدفع عنه ماله ولا جاهه عذاب الله وبأسه فلا معين ولامجير!! «قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥- ٢٩](٢).

***

(١) جامع البيان في تأويل القرآن (١٢/ ٥٠٨).

(٢) انظر جامع البيان في تأول القرآن (١٢/ ٢١٩) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٤/ ٤١٨).

المبحث السادس
ما يسأل عنه العباد؟

يسأل العبد يوم القيامة عن جميع أعماله فيجازي عليها على النقير والقطمير[1] قال تعالى: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٣] وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢- ٩٣].

ويسأل اللّٰه تعالى الرسل عن إبلاغ رسالاته، ويسأل الأمم عما أجابوا الرسل فيما أرسلهم به قال تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ الصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨] قال مجاهد: المبلغين المؤدين من الرسل»[2] قال الفضيل بن عياض: « ما تزين الناس بشيء أفضل من الصدق واللّٰه عز وجل يسأل الصادقين عن صدقهم منهم عيسى ابن مريم عليه السلام كيف بالكذابين المساكين؟ ثم بكى[3] قال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] وقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩] ويسأل الكفار والمشركين عن شركائهم قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰقُّونَ فِيهِمْ﴾ [النحل: ٢٧] وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٢- ٩٣] شركاؤهم الذين اتخذوهم أندادا من دون اللّٰه تعالى وصرفوا لهم أنواع العبادة من دون اللّٰه وجعلوا لهم نصيبا مما رزقهم اللّٰه، قال سبحانه: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٦] ويسأل العبد عن عمره وعلمه وماله وجسمه روى

(١) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٤- ٦٠٣).
(٢) جامع البيان في تأويل القرآن (١٠- ٢٦٢).
(٣) حلية الأولياء (٨- ١١١).

الترمذي عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه»(١).

دقائق العمر الغالية والتي قد تضيع عند الكثير هباءا منثورا سيسأل العبد عنها فيندم على كل ساعة مضت في غير طاعة للَّه تعالى، وصحة الأجساد ومعافاتها سيسأل فيما أبلاها: في طاعة ربه أو اقتراف المعاصي ومواقعة الذنوب، وما تعلم من علم سيسأل: قد علمت فماذا فعلت فيما علمت؟ وقد يكون من يعلم العلم لغيره فيعملون ولا يعمل!! قال الفضيل: «وأي حسرة على امرئ أكبر من أن يؤتيه اللَّه عز وجل علما فلم يعمل به، فسمعه منه غيره فعمل به فيرى منفعته يوم القيامة لغيره!!(٢) والمال الذي يشتد حب المرء له، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨]، سيسأل عن كل فلس من أين اكتسبه: بالحلال أو الحرام؟ وفيما أنفقه في حلال أو حرام!! فالويل لمن كان عبد الدينار والدرهم لا يبالي من أي مصدر جمعه!! وتشح به نفسه أن ينفقه في طاعة، فيكون وبالا عليه في آخرته لا ينتفع منه بشيء ومال الإنسان الذي ينتفع به في آخرته هو ما أنفقه ابتغاء وجه اللَّه تعالى روى الترمذي عن مطرف عن أبيه: أنه انتهى إلى النبي ﷺ.

وهو يقول: ه ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١] قال: «يقول ابن آدم: مالي مالي! وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت، أو أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت»(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها أنهم ذبحوا شاة فقال النبي ﷺ: «ما بقي منها؟ قالت: ما

---

(١) صحيح سنن الترمذي- أبواب صفة القيامة- باب شأن الحساب والقصاص (٢/ ٢٩٠) (١٩٧٠- ٢٥٤٥).

(٢) حلية الأولياء (٨/ ١١٢).

(٣) صحيح سنن الترمذي «كتاب الزهد» باب ما جاء في الزهادة في الدنيا (٢/ ٢٧٤) (١٩٠٩- ٢٤٥٩) قال الالباني: صحيح.

بقي منها إلا كتفها. قال: «بقي كلها غير كتفها»[1] ».

رأى الأحنف بن قيس في يد رجل درهما فقال: لمن هذا الدرهم؟ فقال الرجل: لي، فقال: إنما هو لك إذا أنفقته في أجر، أو ابتغاء شكر ثم أنشد الأحنف متمثلا قول الشاعر:

أنت للمال إذا أمسكته فإذا أنفقته فالمال لك[2]

ويخف الحساب على أقوام قلت أموالهم، فقد أخبرنا رسول اللّه ﷺ: «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام، نصف يوم»[3]

قال مالك بن دينار: «قدمت من سفر لي فلما صرت بالجسر قام العشار[4]: لا يخرجن من السفينة ولا يقوم أحد من مكانه، فأخذت ثوبي فوضعته على عنقي ثم وثبت فإذا أنا على الأرض، فقال لي: ما أخرجك؟ قلت ليس معي شيء. قال: «اذهب، فقلت في نفسي: هكذا أمر الآخرة»[5].

وهذا الحديث الشريف عام فقوله عليه الصلاة والسلام: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل «ذكره في سياق النفي وهي تفيد العموم، ولكنه مخصوص بمن يدخل الجنة بغير حساب وبمن يدخل النار من أول وهلة على ما دل عليه قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١][6].

ومما يسأل عنه العبد يوم القيامة النعيم: قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ

---

(١) صحيح سنن الترمذي أبواب صفة القيامة (٢/ ٣٠١) (٢٠٠٩- ٢٦٠٠) قال الألباني صحيح.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٤/ ٦٧١).

(٣) صحيح سنن الترمذي أبواب الزهد- باب فضل الفقر (٢/ ٢٧٥) (١٩١٨- ٢٤٧٢) قال الألباني حسن صحيح.

(٤) العشار: الذي يأخذ ضريبة العشر.

(٥) صفة الصفوة (٣/ ١٨٦).

(٦) التذكرة ص ٢٢٩ بتصرف، وانظر فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتاب الرقاق وباب يدخل الجنة سبعون ألف بغير حساب (١١/ ٥٠٤).

﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] قال مجاهد: «عن كل لذة من لذات الدنيا» وقال الحسن: «من النعيم الغداء والعشاء» وقال ابن عباس: «النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار، يسأل اللّه العباد فيما استعملوها، وهو أعلم بذلك منهم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾(١) [الإسراء: ٣٦] روى الترمذي عن أبي هريرة قال: «خرج رسول اللّه ﷺ ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟ قالا: الجوع يا رسول اللّه! قال: «وأنا، والذي نفسي بيده! لأخرجني الذي أخرجكما، قوموا» فقاموا معه، فأتى رجلا من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحبا! وأهلا! فقال لها رسول اللّه ﷺ: «أين فلان؟»، قالت: ذهب يستعذب لنا الماء، إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول اللّه ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمد للّه، ما أحد اليوم أكرم أضيافا مني، قال: فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب فقال: كلوامن هذه وأخذ المديه، فقال له رسول اللّه ﷺ: «إياك والحلوب» فذبح لهم، فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق، وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا قال رسول اللّه ﷺ لأبي بكر وعمر: «والذي نفسي بيده! لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن أول ما يسأل عنه يوم القيامة- يعني العبد من النعيم- أن يقال ألم نصح لك جسمك ونرويك من الماء البارد»(٣).

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٤/ ٦٧٣) باختصار.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الأشربة- باب جواز استتباع غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك برقم (١٤٠- ٢٠٣٨).

(٣) صحيح سنن الترمذي- كتاب التفسير- باب ومن سورة ألهاكم التكاثر (٣- ١٣٤) (٢٦٧٤- ٣٥٩٦) قال الألباني صحيح.

ونعم اللّه تعالى أكثر وأجل من أن تعد وتحصى قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤/ النحل: ١٨] والسؤال عن النعيم هو السؤال عن شكر ما أنعم اللّه به على العبد من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك[١]، والشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح فيقر بقلبه ويعترف أن هذه النعم من اللّه وحده قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] ويثني عليه بلسانه، ويستعمل جوارحه في طاعته وعبادته، قال مشعر: لما قيل لآل داود: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣] لم يأت على القوم ساعة إلاوفيهم مصلي[٢] ومر محمد بن المنكدر بشاب يغامز امرأة فقال: يا بني، ما هذا جزاء نعم اللّه عليك!»[٣].

وكم من نعمة يتمتع بها العبد ولا يخطر على باله أنها نعمة تستحق الشكر فإلفه لها أغفله عن أداء حق الشكر فيها فيخسر خسرانا مبينا، ومن ذلك قول رسول اللّه ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»[٤].

(مغبون فيهما) أي ذو خسران فيهما، والغبن أن يشتري بأضعاف الثمن، أو يبيع بدون المثل، فمن صح بدنه، وتفرغ من الأشغال العائقة، ولم يسع لصلاح آخرته، فهو كالمغبون في البيع، والمقصود بيان أن غالب الناس مقصرون في شكر هاتين النعمتين لا يقومون بواجبهما، وأن أغلبهم ينتفعون بالصحة والفراغ بل ويصرفونها في غير محالهما، فيصير كل واحد منهما في حقهم وبالا، ولو أنهم صرفوا كل واحد منهما في محله لكان خيرا لهم، أي خيرا[٥].

---

(١) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٤/٥٤٨).

(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص ١٥٨ .

(٣) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص ٦٥ .

(٤) رواه ابن ماجة في سننه- كتاب الزهد- باب الحكمة (٢/ ٤٠٤) (٣٣٦٢- ٤١٧٠) قال الألباني: صحيح.

(٥) صحيح سنن ابن ماجة- كتاب الزهد- باب الحكمة (٢/ ٤٠٤) بتصرف يسير.

ذلك أن البعض لايخطر بباله أن الصحة والفراغ من النعم ويعدون النعم فقط في الرزق الوفير والمال الكثير والقصورة الشاهقة والمراكب الفاخرة «فقد سأل رجل عبد اللّه بن عمرو بن العاص فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبد اللّه: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم، قال: ألك مسكن تسكنه؟قال: نعم، قال: فأنت من الأغنياء، قال: فإن لي خادما، قال: فأنت من الملوك»(١).

وجاء رجل إلى يونس بن عبيد يشكو ضيق حاله، فقال له يونس: أيسرك ببصرك هذه مائة ألف درهم؟ قال الرجل: لا، قال: فبيديك مائة ألف؟ قال: لا، قال: فبرجليك مائة ألف؟ قال: لا، قال: فذكره نعم اللّه عليه، فقال يونس: أرى عندك مئات الألوف وأنت تشكو الحاجة(٢).

ومما يسأل عنه العباد العهود والمواثيق، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ [الأحزاب: ١٥].

وإن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة:

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، فإن انتقص من فريضته شيئا، قال الرب تبارك وتعالى: «انظر هل لعبدي من تطوع فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك»(٣).

***

(١) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الزهد والرقائق- باب ما بين برقم (٣٧، ٢٩٧٩).

(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص١٦٧

(٣) صحيح سنن الترمذي- أبوب الصلاة- باب ما جاء أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة (١/ ١٣٠) (٣٣٧- ٤١٤) قال الألباني صحيح.

الفصل السادس
القصاص يوم القيامة

القصاص مأخوذ من القص وهو القطع، أو من اقتصاص الأثر وهو تتبعه، لأن المقتص يتتبع جناية الجاني ليأخذ مثلها، يقال: اقتص من غريمه واقتص الحاكم لفلان من فلان[(١)].

ولقد أقسم النبي ﷺ أن الحقوق ستؤدى إلى أهلها يوم القيامة، ولا يضيع لأحد حق، فمن لم يستوف حقه في الدنيا، استوفاه في الآخرة، حتى أنه يقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»[(٢)].

والجلحاء التي ليس لها قرن، والقرناء التي لها قرن، والغالب أن التي لها قرن إذا ناطحت الجلحاء التي ليس لها قرن تؤذيها أكثر، فإذا كان يوم القيامة قضى اللّه بين هاتين الشاتين أو اقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء، هذا وهن بهائم لا يعقلن ولا يفهمن، لكن اللّه عز وجل حكم عدل، أراد أن يري عباده كمال عدله حتى في البهائم العجم، فكيف ببني آدم!!»[(٣)].

فإن اللّه تعالى قد يغفر للعبد ظلمه لنفسه بالذنوب والمعاصي دون الشرك، لكن حقوق العباد لا تكفر إلا بأدائها إلى أهلها، ألم تر إلى عظم منزلة الشهيد عند

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتاب الرقاق- باب القصاص يوم القيامة (١١/ ٤٨١).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب البر والصلة والآداب- باب تحريم الظلم برقم (٦٠- ٢٥٨٢).

(٣) شرح رياض الصالحين (١/ ٧٤٧).

اللّه تعالى وتكفير خطاياه كلها إلا الدين فإنه لا يكفر عنه؟![1] بل ويحبس به عن الجنة حتى يؤدي عنه[2].

كيف تؤدي الحقوق يوم القيامة؟

يحشر العبد يوم القيامة حافيا عاريا لا يملك دينارا ولا درهما، والدينار والدرهم وسيلة لجلب المنافع في الدنيا، أما يوم القيامة فالحسنات والسيئات فبهما تؤدي الحقوق!!

عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه ﷺ: «من مات وعليه دينار أو درهم قضي من حسناته، ليس ثم دينار ولا درهم»[3] عن عبد اللّه بن أنيس رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «يحشر اللّه العباد يوم القيامة أو قال: الناس عراة غرلا بهما» قال: قلنا: وما بهما؟ قال: «ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق، حتى أقصه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عنده حق حتى أقصه منه، حتى اللطمه» قال: قلنا: كيف، وإنما نأتي عراة غرلا بهما؟!

قال: «الحسنات والسيئات»[4] لذا ينبغي لمن كان عليه حق لأخيه ظلمه فيه في ماله أو نفسه أو عرضه أن يستبرئ ذمته منه اليوم في الدنيا بأدائه إليه أو استحلاله منه قبل أن يأخذ المظلوم من حسناته يوم القيامة، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «من كانت عنده مظلمه لأخيه فليتحللّه منها، فإنه

---

(١) راجع الحديث الذي رواه مسلم (١٣/ ٢٩) وقد سبق ذكره في مبحث أسباب عذاب القبر.

(٢) راجع الحديث الذي رواه ابن ماجه في سننه (٢/ ٥٧) سبق ذكره في مبحث أسباب عذاب القبر.

(٣) صحيح سنن ابن ماجه- كتاب الصدقات- باب التشديد في الدين (٢/ ٥٣) (١٩٥٨- ٢٤١٤) قال الألباني: صحيح.

(٤) رواه الإمام أحمد في المسند (٣/ ٤٩٥) (١٦٠٨٥) انظر: السنة لابن أبي عاصم تحقيق الألباني في حديث رقم ٥١٤ وانظر صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٤٢٧) (٣٦٠٨).

ليس ثم دينار ولا درهم، من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه[1]» وقد تستغرق مظلمته لأخيه حسناته كلها فتفنى حسناته ويفلس وهذا هو الإفلاس الحقيقي نسأل اللّه العافية.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول اللّه ﷺ قال: «أتدرون من المفلس» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، قال: «إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاه ويأتي قد شتم هذا، وضرب هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته، قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار»[2].

فالظلم للعباد وأكل حقوقهم والإعتداء على أموالهم ودمائهم وهتك أعراضهم بالقول أو الفعل يفسد ثمرة العمل الصالح[3] وهنا تتأكد أهمية تحلل الظالم من المظلوم «فإن كانت المظلمة في المال فعليه أن يرده إليه، فإن غاب عنه ولم يعرف مكانه وأيس من الوصول إليه فإنه يتصدق به عنه، واللّه سبحانه وتعالى يعلم ويؤدي إلى صحاب الحق حقه- وإن كان صاحب الحق قد مات فإنه يوصله إلى ورثته، لأن المال بعد الموت ينتقل إلى الورثة، فإن لم يعلمهم بأن جهلهم ولم يدر عنهم تصدق به عنهم، واللّه تعالى يعلمهم ويعطيهم حقهم.

وإن كانت المظلمةفي النفس كأن يكون قد جنى عليه أو ضربه حتى جرحه أو قطع عضوا من أعضائه أو قتل له قتيلا، فإنه يتحلل منه بأن يمكـن صاحب الحق من القصاص، أو من بــذل الذمة، إذا لم يكن القصاص، أو اختيرت الدية.

---

(١) أخرجه البخاري- كتاب الرقاق- باب القصاص يوم القيامة (ص١٦٠٣) (٦٥٣٤)

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب البر والصلة والآداب- باب تحريم الظلم برقم (٥٩- ٢٥٨١).

(٣) بهجة الناظرين شرح رياض الصالحين- الهلالي (١/ ٣١٣) بتصرف يسير.

وإن كانت المظلمة في العرض كأن يكون قد سب شخصا، أو اغتابه، فلا بد أن يتحلل منه إذا كان قد علم الشخص بذلك، فيعتذر إليه، فإن عذره فمن فضل اللّه عليه، وإن لم يعف فليعطه مالا، يشبعه من المال حتى يحللّه، فإن أبى فإن اللّه تعالى علم صدق توبة الظالم فسيرضى المظلوم يوم القيامة وقال بعض العلماء في مسألة العرض: «إن كان المظلوم لم يعلم فلا حاجة أن يعلمه، مثل أن يكون قد سبه في مجلس من المجالس، وتاب فإنه لا حاجة أن يعلمه ولكن يستغفر له ويدعو له ويثني عليه بالخير في المجالس التي كان يسبه فيها، وبذلك يتحلل منه[(١)].

وفي حال أخذ المظلوم حقه في الدنيا من الظالم بأن تمكن من عقوبته مثلا أو قام بالدعاء عليه واستجيب لدعائه فقد اقتص منه في الدنيا، أما إذا لم يفعل ذلك ولم يدع عليه ولم يعف عنه ولم يتحلل الظالم منه كما أسلفنا فإنه يقتص له منه يوم القيامة[(٢)].

عن عائشة رضي الله عنها: أن رجلا من اصحاب رسول اللّه ﷺ جلس بين يديه، فقال: يا رسول اللّه! إن لي مملوكين يكذبونني ويخونني ويعصونني، وأضربهم وأشتمهم فكيف أنا منهم؟ فقال له رسول اللّه ﷺ: «بحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم، كان فضلا لك عليهم، وإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم، كان كفافا، لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم، اقتص لهم منك الفضل الذي بقي قبلك» فجعل الرجل يبكي بين يدي رسول اللّه ﷺ ويهتف فقال رسول اللّه ﷺ: «مالك؟ ما تقرأ كتاب اللّه ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]؟ فقال

---

(١) شرح رياض الصالحين- العثيمين(١/ ٧٦٢) بتصرف يسير.

(٢) شرح رياض الصالحين- العثيمين (١/٧٤٨) بتصرف.

الرجل: «يا رسول اللّه! ما أجد شيئا خيرا من فراق هؤلاء- يعني عبيده- إني أشهدك أنهم كلهم أحرار»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «من ضرب مملوكه سوطا ظلما اقتص منه يوم القيامة»(٢).

ولقد أخبر النبي ﷺ أن كفارة ضرب المملوك عتقه عن زاذان قال: «أتيت ابن عمر! وقد أعتق مملوكا له فأخذ من الأرض عودا أو شيئا، فقال: مالي فيه من الأجر ما يسوى هذا سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «من لطم مملوكه أو ضربه، فكفارته أن يعتقه» »(٣).

وعن هلال بن سياف قال: «كنا نزولا في دار سويد بن مقرن وفينا شيخ فيه حدةومعه جارية فلطم وجهها فما رأيت سويدا أشد غضبا منه ذاك اليوم، قال: عجز عليك إلا حر وجهها؟ لقد رأيتنا سابع سبعة من ولد مقرن وما لنا إلا خادم، فلطم أصغرنا وجهه، فأمرنا النبي ﷺ: بعتقها(٤).

والخدم لضعفهم يستطيل عليهم البعض ويظلمهم حقوقهم ويضربونهم ويشتمونهم خصوصا إذا بدر منهم خطأ ما ولو عفوا عنهم لكان خيرا لهم، عن عبد اللّه بن عمر رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول اللّه، كم نعفو عن الخادم؟ فصمت! ثم أَعاد عليه الكلام، فصمت! فلما كان في الثالثة

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٦٥) وأخرجه أحمد في مسنده (٦/ ٢٨٠) وقال الألباني: صحيح الإسناد وذكره في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣/ ٤٢٦).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٢/ ١٢٠) (١٤٤٥) وقال الألباني: إسناده حسن ورجاله ثقات. انظر السلسلة الصحيحة (٦/ ٤٦٧) (٢٣٥٢).

(٣) صحيح سنن أبو داود- كتاب الأدب- باب في حق المملوك (٣/ ٩٧١) (٤٣٠٥- ٥١٦٨) قال الألباني: صحيح.

(٤) صحيح سنن أبو داود- كتاب الأدب- باب في حق المملوك (٣/ ٩٧١) (٤٣٠٣- ٥١٦٦) قال الألباني: صحيح.

قال: اعفو عنه في اليوم سبعين مرة»[١].

عظم أمر الدماء:

روى البخاري عن عبد اللّه ﷺ قال النبي ﷺ: «أول ما يقضي بين الناس في الدماء»[٢].

قال ابن حجر: «وفي الحديث عظم أمر الدماء، فإن البداءة إنما تكون بالأهم، والذنب يعظم بحسب عظم المفسدة، وتفويت المصلحة، وإعدام البنية الإنسانية، غاية في ذلك، وقال أيضا: ولا يعارض هذا حديث أبي هريرة رفعه «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته»[٣].

لأن الأول محمول على ما يتعلق بمعاملات الخلق والثاني فيما يتعلق بعبادة الخالق[٤] وختاما لهذا المبحث أنقل لك أخي الكريم كلمات ذكرها القرطبي فيها تذكرة وعبرة «وإذا تقرر هذا فيجب على المرء أن يرد المظالم إلى أهلها حبة حبة، ويستحل كل من تعرض له بلسانه ويده ويطيب قلوبهم حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة لأحد، فإن مات قبل رد المظالم أحاط به خصماؤه، فهذا يأخذ بيده، وهذا يقبض على ناصيته، وهذا يتعلق بلبته وهذا يقول ظلمتني، وهذا يقول شتمتني، وهذا يقول استهزأت بي، وهذا يقول: ذكرتني في الغيبة بما يسؤوني، وهذا يقول: جاورتني فأسأت جواري، وهذا يقول عاملتني فغششتني، وهذا يقول: بايعتني وأخفيت عني عيب متاعك، وهذا يقول: كذبت في سعر متاعك، وهذا يقول: رأيتني محتاجا وكنت غنيا فما أطعمتني، وهذا يقول: وجدتني مظلوما

---

(١) صحيح سنن أبو داود- كتاب الأدب- باب في حق المملوك (٣/ ٩٧٠) (٤٣٠١- ٥١٦٤) قال الألباني صحيح.

(٢) أخرجه البخاري- كتاب الرقاق- باب القصاص يوم القيامة (ص١٦٠٣) (٦٥٣٣).

(٣) صحيح سنن الترمذي في سننه- أبواب الصلاة- باب ما جاء أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة (١/ ١٣٠) (٣٣٧، ٤١٤) قال الألباني صحيح.

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب الرقاق باب القصاص يوم القيامة (١١/ ٤٨٢).

وكنت قادرا على رفع الظلم فداهنت الظالم وما راعيتني، وهذا يقول: وجدتني مظلوما وكنت قادرا على رفع الظلم فداهنت الظالم وما راعيتني، فبينما أنت كذلك وقد أنشب الخصماء فيك مخالبهم وأحكموا في تلابيبك أيديهم وأنت مبهوت متحير من كثرتهم حتى لم يبق في عمرك أحد عاملته على درهم أو جالسته في مجلس إلا وقد استحق عليك مظلمة بغيبة أو جناية أو نظر بعين استحقار، وقد ضعفت عن مقاومتهم ومددت عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك لعله يخلصك منهم إذ قرع سمعك نداء الجبار ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ﴾ [غافر: ١٧] فعند ذلك ينخلع قلبك من الهيبة وتوقن نفسك بالبوار، وتتذكر ما أنذرك اللّه به على لسان رسوله ﷺ حيث قال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢][1].

وحسبك أخي أن تعلم أن أشفق الناس عليك وأحبهم إليك يفرحون يوم القيامة إذا كانت لهم عليك حقوق لما يرجون من أخذ حسناتك».

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إذا كان يوم القيامة جمع اللّه الأولين والآخرين ثم نادى مناد: «ألا من كان له مظلمة فليجيء فليأخذ حقه، قال: فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيرا ومصداق ذلك في كتاب اللّه قال اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]»[2].

* * *

(١) التذكرة ص ٢٣٦ .

(٢) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٣/ ٢٥٠).

الفصل السابع: (الميزان)
المبحث الأول
الميزان عند أهل السنة

بعد الانتهاء من الحساب توضع الموازين لوزن أعمال العباد، قال القرطبي:

قال العلماء: وإذاانقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال لأن الوزن للجزاء فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها، ليكون الجزاء بحسبها»(١).

قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] يضع اللّه تعالى لعباده الموازين العادلة يوم القيامة، فلا ظلم على أحد يومئذ، لأن الحاكم فيه هو العدل الحكيم، الذي حرم الظلم على نفسه وجعله على عباده محرما فلا يهضم أحد من حسناته، ولا يؤخذ إلا بعمله، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ﴾ [غافر: ١٧] وقال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤] وقال تعالى عن لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦](٢) ومشهد الميزان عظيم ورهيب يشتك فيه الكرب ويعظم وقعه على القلوب، ويكفي أخي أن تعلم أن الملائكة إذا رأت الميزان قالت: أنها ما عبدت اللّه حق عبادته من شدة الهول والخوف، عن سليمان ﷺ عن النبي ﷺ قال: «يوضع الميزان يوم القيامة، فلو

---

(١) التذكرة ص ٢٧٠ .

(٢) معارج القبول (٣- ١٠٢٠) بتصرف يسير جداً.

وزن فيه السموات والأرض لوسعت، فتقول الملائكة: لمن يزن هذا؟ فيقول اللّه تعالى: لمن شئت من خلقي، فيقولون: سبحانك: ما عبدناك حق عبادتك»(١) والذي دلت عليه السنة أن ميزان الأعمال له كفتان حسيتان مشاهدتان(٢) ونقل الحافظ ابن حجر الإجماع على ذلك قال: قال أبو إسحاق الزجاج: «أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان وأن أعمال العباد توزن يوم القيامة، وأن الميزان له لسان وكفتان ويميل بالأعمال»(٣) ذلك أن الأصل في الكلمات الواردة في الكتاب والسنة حملها على المعهود إلا إذا قام دليل على أنها خلاف ذلك، والمعهود المعروف عند المخاطبين أن الميزان حسي وأن هناك راجح ومرجوح(٤).

وخالف في ذلك المعتزلة:

قال ابن فورك: «وأنكرت المعتزلة الميزان بناء منهم على أن الأعراض يستحيل وزنها إذ لا تقوم بأنفسها».

وقال أبو إسحاق الزجاج: «وقالوا هو عبارة عن العدل»(٥) ولم يفقهوا أن ميزان الآخرة ليس كميزان الدنيا وأن أحوال الآخرة لا تقاس بأحوال الدنيا البتة.

قال أبو العز الحنفي: «يا خيبة من ينفي وضع الموازين القسط ليوم القيامة كما أخبرنا الشارع لخفاء الحكمة عليه، ويقدح في النصوص بقوله: لا يحتاج الميزان إلا البقال والفوال!! وما أحراه بأن يكون من الذين لا يقيم اللّه له يوم القيامة وزنا، ولو لم يكن من الحكمة في وزن الأعمال إلا ظهور عدله سبحانه لجميع عباده، فلا أحد أحب إليه العذر من اللّه، من أجل ذلك أرسل الرسل

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٤/ ٥٨٦) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٤١).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٦٠٩ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتاب التوحيد (١٣/ ٦٦٠).

(٤) المحاضرات السنية في شرح العقيدة الواسطية (٢/ ٥٥٧).

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتاب التوحيد (١٣/ ٦٦٠).

مبشرين ومنذرين فكيف ووراء ذلك من الحكم مالا اطلاع لنا عليه، فتأمل قول الملائكة لما قال اللّه لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥](١).

* * *

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤١٩ .

المبحث الثاني
عدد الموازين

ذكر اللّه تعالى الموازين في كتابه بلفظ الجمع كقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧] وكقوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢- ١٠٣] وجاءت أحاديث في السنة ذكر فيها الميزان بلفظ الإفراد كقول رسول اللّه ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان اللّه وبحمده، سبحان اللّه العظيم»[1].

قال القرطبي: «قيل: يجوز أن يكون هناك موازين للعمل الواحد يوزن بكل ميزان منها صنف من الأعمال، ويمكن أن يكون ميزانا واحدا عبر بلفظ الجمع، كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] وإنما هو رسول واحد، وقيل: المراد بالموازين جمع موزون أي الأعمال الموزونة لا جمع ميزان[2] ويدل على تعدد الأعمال قوله تعالى: ﴿خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [المؤمنون: ١٠٣][3].

قال الحافظ ابن حجر: «والذي يترجح أنه ميزان واحد، ولا يشكل بكثرة من يوزن عمله لأن أحوال القيامة لا تكيف بأحوال الدنيا»[4].

* * *

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الذكر والدعاء- باب فضل التهليل والتسبح والدعاء- برقم (٣١، ٢٦٩٤) رواه عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) التذكرة ص ٢٧٨- ٢٧٩ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتاب التوحيد (١٣/ ٦٥٩).

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتاب التوحيد (١٣/ ٦٥٩).

المبحث الثالث
ما يوزن في الميزان

اختلف العلماء في ذلك على أقوال:

الأول: أن الذي يوزن هو الأعمال: وإن كانت أعراضا لا توصف بثقل ولا خفة إلا أنها حينئذ تجسد أو تجعل أجساما، أي أن أعمال العبد من صلاة وصيام وزكاة وحج وعمرة وبر والدين تحول إلى أجسام وتوضع في الميزان، ولهذا نظير وهو الموت فإنه يجعل على صورة كبش ويذبح بين الجنة والنار مع أن الموت معنى وليس جسما[(١)][(٢)]، بل جاء في الحديث الشريف أن العمل يأتي صاحبه في القبر على هيئة رجل كما مر معنا في حديث البراء بن عازب عن رسول الله ﷺ وفيه: «ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب طيب الريح فيقول: أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد فيقول: من أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح»[(٣)] وقال رسول الله ﷺ في الكافر: «ويأتيه رجل قبيح الوجه منتن الريح، فيقول له أبشر بالذي يسؤوك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيث[(٤)]» وجاء في السنة أن القرآن يشفع للعبد يوم القيامة وأن البقرة وآل عمران تجيئان على هيئة غمامة أو غياية أي ظلة أو فرقان من طير تحاجان عن أصحابهما فعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه اقرئوا الزهراوين: البقرة وآل عمران

---

(١) سبق ذكر الحديث وتخريجه.

(٢) المحاضرات السنية في شرح العقيدة الواسطية (٢- ٥٥٨).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف، تحاجان عن أصحابهما، اقرئوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة»[1].

وعن النواس بن سمعان الكلابي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تقدمه سورة البقرة وآل عمران» وضرب لهما رسول اللّه ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال: كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق أو كأنهما حزقان من طير صواف، تحاجان عن صاحبهما»[2].

ورجح ابن حجر هذا القول وقال: «والصحيح أن الأعمال هي التي توزن»[3] واستدل بحديث أبي الدرداء عن رسول اللّه ﷺ: «ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق»[4] فحسن الخلق عرض وأخبر النبي ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان اللّه وبحمده، سبحان اللّه العظيم»[5] والأحاديث في هذا المعنى مستفيضه وسيأتي ذكر بعضها في المبحث التالي بإذن اللّه تعالى.

الثاني: الذي يوزن صحائف الأعمال:

ويدل لذلك حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاص قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن اللّه سيخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه - كتاب صلاة المسافرين أو قصرها - باب فضل القرآن وسورة البقرة برقم (٢٥٢، ٨٠٤).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب صلاة المسافرين أو قصرها- باب فضل القرآن وسورة البقرة برقم (٢٥٣، ٨٠٥).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتاب التوحيد (١٣/ ٦٦١).

(٤) صحيح سنن أبو داود- كتاب التوحيد- باب في حسن الخلق (٣/ ٩١١) (٤٠١٤، ٤٧٩٩) قال الألباني صحيح.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الذكر والدعاء- فضل التهليل والتسبيح والدعاء برقم (٣١-٢٦٩٤).

تسعة وتسعين سجلا كل سجل مد البصر، ثم يقول أتنكر من هذا شيئا، أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب فيقول: أفلك عذر، فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأشهد أن محمد عبده ورسوله، فيقول: أحضر وزنك، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فقال: إنك لا تظلم، قال فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم اللَّه شيء»[1] وبهذا قال البعض من العلماء وجمهور من المفسرين منهم القرطبي حيث قال: «والصحيح أن الموازين تثقل بالكتب فيها الأعمال مكتوبة وبها تخف كما دل عليه الحديث الصحيح والكتاب العزيز قال اللَّه عز وجل: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠- ١١] » وهذا نص، قال ابن عمر: «توزن صحائف الأعمال وإذا ثبت هذا فالصحف أجسام فيجعل اللَّه تعالى رجحان إحدى الكفتين على الأخرى دليلا على كثرة أعماله بإدخاله الجنة أو النار»[2].

الثالث: الذي يوزن العامل نفسه:

ويدل لذلك ما رواه زر بن حبيش عن ابن مسعود أن كان يجتني سواكا من الأراك وكان دقيق الساقين فجعلت الريح تكفؤه فضحك القوم منه فقال رسول اللَّه ﷺ: «مم تضحكون؟ قالوا: يا نبي اللَّه من دقة ساقيه فقال: والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من جبل أحد»[3] وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول اللَّه ﷺ قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند اللَّه

(١) صحيح سنن الترمذي- أبواب الإيمان- باب فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا اللَّه (٢/ ٣٣٣) (٢١٢٧- ٢٧٨٩) قال الألباني صحيح.

(٢) القرطبي ص ٢٧٣ .

(٣) رواه أبو يعلي في مسنده (٩/ ٢٠٩- ٢١٠) (٥٣١٠) والإمام أحمد في المسند (١/ ٤٢٠) (٣٩٩١) وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند: إسناده صحيح.

جناح بعوضه وقال: اقرءوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥][١] ذلك لأن الاعتبار في الثقل والخفة بالعمل نفسه لا بذات العامل وما عليه من دهن وشحم.

فكما ترى أخي اختلف العلماء في الموزون:

١- البعض قال: العمل.

٢- والبعض قال: الصحف.

٣- والبعض الآخر قال: العامل نفسه.

وكل استدل بنصوص صحيحة، وقد جمع الشيخ حافظ الحكمي بين النصوص الواردة في الوزن فقال: والذي استظهر من النصوص والله أعلم- أن العامل وعمله وصحيفة عمله كل ذلك يوزن، لأن الأحاديث التي في بيان القرآن قد وردت بكل من ذلك ولا منافاة بينها»[٢].

***

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التفسير- باب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ [الكهف: ١٠٥] (٨/ ٥٤١) (٤٧٢٩).

(٢) معارج القبول (٣/ ١٠٢٥).

المبحث الرابع
الذين لا توزن أعمالهم

ذكر ابن حجر أنه خص من وزن الأعمال والأقوال طائفتان قال: «فمن الكفار من لا ذنب له إلا الكفر ولم يعمل حسنة فإنه يقع في النار من غير حساب ولا ميزان، ومن المؤمنين من لا سيئة له، وله حسنات كثيرة وزائدة على محض الإيمان فهذا يدخل الجنة بغير حساب كما في قصة السبعين ألف، ومن شاء اللّه أن يلحقهم بهم وهم الذين يمرون على الصراط كالبرق الخاطف وكالريح وكأجاويد الخيل، ومن عدا هذين من الكفار والمؤمنين يحاسبون وتعرض أعمالهم على الموازين.

ويدل على محاسبة الكفار ووزن أعمالهم قوله تعالى في سورة المؤمنين: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢- ١٠٥][1] وذكر القرطبي هذه المسألة وقال: قال اللّه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ إلى آخر السورة [القارعة: ٦- ١١] وقال: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾ [الأعراف: ٩، المؤمنون: ١٠٢] الآيتين في الأعراف والمؤمنين وهذه الأخبار لوزن أعمال الكافر لأن عامة المعنيين بقوله ﴿خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ في هذه الآيات هم الكفار وقال في سورة المؤمنين: ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٥] وفي الأعراف: ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩] وقال: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٩] وهذا الوعيد بإطلاقه للكفار»[2] وقال: «فإن قيل: أما

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتاب التوحيد (١٣/ ٦٦٠).

(٢) التذكرة ص ٢٧٠ .

وزن أعمال المؤمنين فظاهر وجهه فتقابل الحسنات بالسيئات فتوجد حقيقة الوزن والكافر لا يكون له حسنات فما الذي يقابل بكفره وسيئاته وأني يتحقق في أعماله الوزن؟

فالجواب: **إن ذلك على وجهين**:

أحدهما: أن الكافر يحضر له ميزان فيوضع كفره أو كفره وسيئاته في إحدى كفتيه ثم يقال له هل لك من طاعة تضعها في الكفة الأخرى؟ فلا يجدها فيشال الميزان فترتفع الكفة الفارغة وتقع الكفة المشغولة فذلك خفة ميزانه وهذا ظاهر الآية لأن اللَّه تعالى وصف الميزان بالخفة لا الموزون فإذا كان فارغا فهو خفيف.

والوجه الآخر: أن الكافر يكون منه صلة الأرحام ومواساة الناس وعتق المملوك ونحوهما مما لو كانت من المسلم لكانت قربة وطاعة فمن كانت له مثل هذه الخيرات من الكفار فإنها تجمع وتوضع في ميزانه، غير أن الكفر إذا قابلها رجح بها، ولم يخل من أن يكون الجانب الذي فيه الخيرات من ميزانه خفيفا، ولو لم يكن له خير واحد أو حسنة واحدة لأحضرت ووزنت كما ذكرنا[١].

* * *

---

(١) التذكرة ص ٢٧٢ .

المبحث الخامس
ما يثقل به الميزان

وردت نصوص صحيحه تدل على ثقل أعمال معينة في الميزان كقول رسول الله ﷺ: «ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق»[١] وقوله ﷺ: «بخ بخ، خمس ما أثقلهن في الميزان: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، والولد الصالح يتوفى فيحتسبه والداه»[٢].

وقوله عليه الصلاة والسلام: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»[٣] وقوله عليه الصلاة والسلام: «الصلاة شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملأ ما بين السماوات والأرض..»[٤] ومن المعلوم أن الأعمال الصالحة عموما يثقل بها الميزان. ونقصد بالعمل الصلاح ما كان صوابا وخالصا لله تعالى قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] قال ابن كثير: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ ما كان موافقا لشرع الله و﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له وهذان ركنا العمل المتقبل، لا بد أن يكون خالصا لوجه الله، صوابا على شريعة

---

(١) صحيح سنن أبو داود- كتاب الأدب- باب حسن الخلق (٣/ ٩١١) (٤٠١٤، ٤٧٩٩) عن أبي الدرداء ؓ قال الألباني صحيح.

(٢) أخرجه أحمد في أكثر من موضع وأخرجه الحاكم في مستدركه (١/ ٥١١- ٥١٢) وابن حبان في صحيحه (٢٣٢٨) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٢٠٤).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الذكر والدعاء- فضل التهليل والتسبيح والدعاء برقم (٣١- ٢٦٩٤).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الطهارة- باب فضل الوضوء برقم (١/ ٢٢٣) عن أبي مالك الأشعري ؓ.

رسول اللّه ﷺ»[1] وهو الذي يختبر فيه العبد ويبتلى، قال اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ﴾ [الملك: ٢] قال الفضيل: «أخلصه وأصوبه فإنه إذا كان للّه خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا والخالص إذا كان للّه والصواب إذا كان على السنة»[2] ومن المعلوم أن العباد يتفاوتون فيما بينهم في تحقيق هذين الركنين تفاوتا عظيما بل إنه قد يحصل هذا التفاوت في أعمال العبد نفسه.

لذلك تتفاوت مضاعفة الحسنات في الأعمال الصالحة كما في الحديث الصحيح عن رسول اللّه ﷺ: «إن اللّه كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها اللّه تبارك وتعالى عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها اللّه عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. . .»[3] قال الشيخ ابن عثيمين: «وهذا التفاوت مبني على الإخلاص والمتابعة فكلما كان الإنسان في عبادته أخلص للّه كان أجره أكثر وكلما كان الإنسان أتبع في عبادته للرسول ﷺ كانت عبادته أكمل وثوابه أكثر»[4] وكلما ضوعفت الحسنات وكثرت ثقل الميزان، فحري بالعبد أن يحرص على تحقيق الإخلاص والمتابعة في كل عمل يقدم عليه فيبارك له في العمل القليل ويثاب عليه ثوابا عظيما.

ومن جعل الميزان نصب عينيه لم يقتصر فقط على إصلاح عباداته بل نظر في المباح وحوله بالنية إلى عبادة ولم يحقر منه شيئا حتى الدمعة يبحث من أي شيء تذرف وتسقط من هموم الدنيا أو رجاء الآخرة.

واللقمة لا يطعمها والشربة لا يشربها والنومة لا ينامها إلا بنية خالصة اللّه

---

(١) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٣/ ٩٧).

(٢) حلية الأولياء (٨/ ٩٨).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الإيمان- باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب (/ ٧٧) (٢٠٥- ١٢٩).

(٤) شرح رياض الصالحين لابن عثيمين (١- ٥١).

تعالى تحولها إلى طاعة وقربة قال زبيد اليامي: «إني لأحب أن تكون لي نية في كل شيء حتى في الطعام والشراب» وقال: «أنو في كل شيء تريده حتى في خروجك إلى الكناسة» وقال بعض السلف: «من سره أن يكمل له عمله، فليحسن نيته، فإن اللّه عز وجل يأجر العبد إذا حسنت نيته حتى باللقمة» وقال ابن المبارك: «رب عمل صغير تعظمه النية، ورب عمل كبير تصغره النية»(١) وإن كنت أخي حريصا على تثقيل ميزانك فأضف إلى ما سبق ذكره: تعدد النيات في العمل الواحد فيزداد الأجر والثواب ولسنا في معرض التفصيل والبسط في موضوع النية ولكن أردنا التنبيه إليه لأهمية، واللّه المستعان.

واحذر كل الحذر أن تأتي يوم القيامة بأعمال عملتها للّه ولكن داخلها الرياء وأنت تعدها ليوم فقرك وحاجتك فلا تجد يوم القيامة منها حسنه واحدة في ميزانك إنما يقال لك: اطلب ثوابها من عند غير اللّه عز وجل، ذلك أن الرياء إذا شارك العمل من أصله بطل وحبط كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة، روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ قال الله تبارك وتعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه»(٢) وعن أبي سعيد عن أبي فضاله الأنصاري- وكان من الصحابة- قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «إذا جمع اللّه الناس ليوم القيامة ليوم لا ريب فيه، نادى مناد: من كان أشرك في عمل عمله للّه أحدا، فليطلب ثوابه من عند غير اللّه، فإن اللّه أغنى الشركاء عن الشرك»(٣) وأنت في ذلك اليوم أفقر ما تكون إلى حسنه واحدة فقد ترجح بها كفة حسناتك على سيئاتك قال اللّه تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٧٠- ٧١).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الزهد والرقاق- باب من أشرك في عمله غير اللّه برقم (٤٦- ٢٩٨٥).

(٣) صحيح سنن الترمذي- أبواب تفسير القرآن- باب (ومن سورة مريم) (٣/ ٧٤) (٢٥٢١- ٢٣٧٤) قال الألباني: حسن.

مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢- ١٠٣] قال ابن كثير: «أي من رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة قاله ابن عباس ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي الذين فازوا ونجوا من النار وأُدخلوا الجنة ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي رجحت سيئاته على حسناته ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾ أي خابوا وهلكوا وباءوا بالصفقة الخاسرة ﴿فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ أي دائمون[(١)] «لا يخرجون منها أبد الآبدين، وهذا الوعيد إنما هو لمن أحاطت خطيئاته بحسناته ولا يكون إلا كافرا وأما من معه أصل الإيمان، ولكن عظمت سيئاته، فرجحت على حسناته، فإنه وإن دخل النار لا يخلد فيها كما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة»[(٢)] من أجل ذلك لا تحتقر أخي أي عمل صالح ولو كان صغيرا قال رسول الله ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»[(٣)].

فالعبد- كما ترى- قد يحتاج يوم القيامة إلى حسنة واحدة ليدخل الجنة!! وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «يا نساء المسلمات! لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن[(٤)] شاه»[(٥)] وقال رسول الله ﷺ: «سبق درهم

---

(١) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٣/ ٢٥٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص٥٥٩) بإختصار.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب البر والصلة والآداب- باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء برقم (١٤٤- ٢٦٢٦) رواه عن أبي ذر رضي الله عنه .

(٤) قال النووي في شرح الحديث: «قال أهل الفقه (الفرسن) هو بكسر الفاء والسين وهو الظلف قالوا وأصله في الإبل وهو فيها مثل القدم في الإنسان قالوا ولا يقال إلا في الإبل ومرادهم أصله مختص بالإبل، ويطلق على الغنم استعارة، وهذا النهي عن الاحتقار نهي للمعطية المهدية ومعناه لا تمتنع جارة من الصدقة والهدية لجارتها لاستقلالها واحتقارها الموجود عندها بل تجود بما تيسر وإن كان قليلا كفرسن شاه وهو خير من العدم (صحيح مسلم بشرح النووي) (٧/ ١٢٠).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الزكاة- باب الحث على الصدقة ولو بالقليل ولا تمتنع مع القليل لاحتقاره برقم (٩٠- ١٠٣٠).

ألف درهم قالوا: يا رسول الله كيف؟! قال: «رجل له درهمان فأخذ أحدهما فتصدق به، ورجل له مال كثير، فأخذ من عرض- ماله مائة ألف فتصدق بها»[1] وقال عليه الصلاة والسلام: «اتقوا النار ولو بشق تمره فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة»[2] وقال عليه الصلاة والسلام: «ردوا السائل ولو بظلف»[3].

وقال عليه الصلاة والسلام: «على كل مسلم صدقه» قيل: أرأيت إن لم يجدها؟ قال: يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق» قيل: أرأيت إن لم يفعل؟ قال: «يعين ذا الحاجة الملهوف «قيل: فإن لم يفعل؟ قال: «يأمر بالخير» قيل: أرأيت إن لم يفعل؟ قال: «يمسك عن الشر فإنها صدقة»[4] والأحاديث في هذا المعنى مستفيضة ولا تختص بالصدقة وحدها فقد قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨] وهذا شامل عام للخير والشر كله، وفيه الترغيب في فعل الخير ولو كان قليلا، والترهيب من فعل الشر ولو كان قليلا[5]. فمع حرصك أخي على فعل الخير وعدم احتقارك لقليله كذلك احرص على ترك الذنوب صغيرها وكبيرها ولا تحتقر قليلها عن عائشة رضي الله عنها قال: «قال لي رسول الله ﷺ: «يا عائشة! إياك ومحقرات الأعمال، فإن لها من الله طالبا»[6] فقد يهلك صاحبها وترجح بها كفة السيئات على

---

(١) صحيح سنن النسائي- كتاب الزكاة- باب جهد المقل (٢/ ٥٣٢) (٢٣٦٨) رواه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال الألباني حسن.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الزكاة- باب الحث على الصدقة ولو بشق تمره أوكلمه طيبة وأنها حجاب من النار برقم (٦٨- ١٠١٦) رواه عن عدي بن حاتم رضي الله عنه .

(٣) صحيح سنن النسائي- كتاب الزكاة- باب رد السائل (٢/ ٥٤١) (٢٤٠٥) عن حواء بنت السكن قال الألباني صحيح.

(٤) صحيح سنن النسائي- كتاب الزكاة- باب صدقة العبد (٢/ ٥٣٥) (٢٣٧٨) رواه عن أبي موسى رضي الله عنه - قال الألباني صحيح.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص٩٣٢) بتصرف يسير جدا.

(٦) صحيح سنن ابن ماجه- كتاب الزهد- باب ذكر الذنوب (٢/ ٤١٦) (٣٤٢١- ٤٢٤٣) قال الألباني صحيح.

الحسنات، وقد كان لا يعمل لها حسابا لصغرها في عينه، ونكتفي بمثال واحد: احتقار المسلم لأخيه المسلم قال رسول اللّه ﷺ: «حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم» قد يكون خادما لك أو عاملا أو موظفا عندك تحتقره لأصله وجنسيته أو لجهله أو لفقره أو لغير ذلك واحذر أخي ذنوب الخلوات وهي التي يواقعها العبد إذا غاب عن أعين الناس وخلا بمحارم اللّه فإن عاقبتها وخيمه... يأتي العبد يوم القيامة بحسنات كجبال تهامه فتنسفها تلك الذنوب، ويجعلها اللّه هباء منثورا:

عن ثوبان عن النبي ﷺ أنه قال: «لأعلمن أقواما من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامه، بيضا، فيجعلها اللّه عز وجل هباء منثورا».

قال ثوبان: يا رسول اللّه! صفهم لنا، جلهم لنا، أن لا نكون منهم ونحن لا نعلم. قال: «أما أنهم إخوانكم ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون ولكنهم أقوام، إذا خلوا بمحارم اللّه، انتهكوها»[1].

* * *

(١) صحيح سنن ابن ماجه- كتاب الزهد- باب ذكر الذنوب (٢/ ٤١٧) (٣٤٢٣- ٤٢٤٥) قال الألباني صحيح.

الفصل الثامن: حوض النبي ﷺ
المبحث الأول
الحوض ونهر الكوثر

الحوض هو مجمع الماء، ولنبينا ﷺ حوض- وردت الأحاديث المتواترة في ذكر أوصافه- ترد عليه أمته يوم القيامة، يستمد ماءه من نهر الكوثر الذي أعطاه اللَّه تعالى نبيه ﷺ في الجنة.

عن أنس رضي الله عنه قال: بينما رسول اللَّه ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه مبتسما، فقلنا: ما أضحكك يا رسول اللَّه؟ قال: «أنزلت علي آنفا سورة «فقرأ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ① فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ② إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [سورة الكوثر] ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ فقلنا اللَّه ورسوله أعلم قال: فإنه نهر في الجنة وعدنيه ربي عز وجل عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد النجوم فيختلج العبد منهم، فأقول: رب! إنهم من أمتي فيقول ما تدري ما أحدثت بعدك»[1] قال أبو العز: «ومعنى ذلك: أنه يشخب فيه ميزابان من ذلك الكوثر إلى الحوض» وروى البخاري عن هديه بن خالد عن همام فيه ميزابان من ذلك الكوثر إلى الحوض»[2] وروى البخاري عن هديه بن خالد عن همام عن عن قتاده رضي الله عنه «حدثنا أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «بينما أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف، قلت: ما هذا يا جبريل؟

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الصلاة- باب حجة من قال البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة برقم (٥٣- ٤٠٠).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٧٩ .

قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، فإذا طيبه أو طينه- مسك إذفر، شك هديه»[1] وقد استدل الحافظ بن حجر بهذا الحديث على إطلاق الكوثر على الحوض[2] قال الحافظ بن حجر: «الكوثر نهر داخل الجنة، وماءه يصب في الحوض، ويطلق على الحوض كوثر لكونه يمد منه»[3] وروى مسلم عن أبي ذر ﷺ عن رسو ل اللّه ﷺ أن الحوض«يشخب فيه ميزابان من الجنة»[4] وعن ثوبان ﷺ عن رسول اللّه ﷺ أنه «يغت فيه ميزابان يمدانه من الجنة أحدهما من ذهب والآخر من ورق[5]» ولعل هذان الميزابان يصبان في الحوض من نهر الكوثر[6].

* * *

(١) أخرجه البخاري في صحيحه- كتاب الرقاق- باب في الحوض برقم (٦٥٨١).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتاب الرقاق- باب في الحوض (١١/ ٥٦٨).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتب الرقاق- باب في الحوض (١١/ ٥٦٨).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الفضائل- باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته برقم (٣٦-٢٣٠٠).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الفضائل- باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته برقم (٣٧-٢٣٠١).

(٦) قال الشيخ ابن عثيمين في شرح العقيدة الواسطية «هذا الحوض فيه ماء مورود فمن أين هذا الماء؟ أجاب الشيخ بقوله: يصب فيه ميزابان من الكوثر وهو النهر العظيم الذي أعطيه النبي ﷺ في الجنة ينزلان إلى هذا الحوض «المحاضرات السنية في شرح العقيدة الواسطية (٢/ ٥٧٣).

المبحث الثاني
إثبات حوض النبي ﷺ وصفاته

قال النووي: «قال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أحاديث الحوض صحيحه والإيمان به فرض والتصديق به من الإيمان، وهو على ظاهره عند أهل السنة والجماعة لا يتأول ولا يختلف فيه»(١) وفي الصحيحن عن جندب قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «أنا فرطكم على الحوض»(٢) «قال أهل الفقه الفرط بفتح الفاء والراء والفارط هو الذي يتقدم الوارد يصلح لهم الحياض والدلاء ونحوها من أمور الاستسقاء فمعنى فرطكم على الحوض سابقكم إليه كالمهيء له»(٣) وقد وردت الأحاديث الصحيحة في ذكر أوصاف حوض النبي ﷺ نذكر منها ما يلي:

قال عبد الله بن عمر قال النبي ﷺ: «حوضي مسيرة شهر وزواياه سواء، ماؤه أبيض من الورق، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منه فلا يظمأ أبدا»(٤) وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أن قدر حوضي كما بين أيله وصنعاء من اليمن، وأن فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء»(٥) وعن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله! ما آنيه الحوض؟ قال: «والذي نفس محمد بيده! لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها ألا في الليلة المظلمة

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/ ٥٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه- كتاب الرقاق- باب في الحوض (ص١٦١٣) (٦٥٨٩) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الفضائل- باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته (/ ٩٣٩) (٢٥- ٢٢٨٩).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/ ٥٣).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الفضائل- باب إثبات حوض النبي ﷺ وصفاته برقم (٢٧/ ٢٢٩٢).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه- كتاب الرقاق- باب في الحوض (ص١٦١٢) (٦٥٨٠).

المصحية، آنية الجنة من شرب منها لم يظمأ آخر ما عليه، يشخب فيه ميزابان من الجنة، من شرب منه لم يظمأ عرضه مثل طوله، ما بين عمان إلى أيله، ماؤه أشد بياضا من اللبن، وأحلى من العسل»[1] وفي حديث ثوبان أن النبي ﷺ سئل عن شرابه، فقال: «أشد بياضا من اللبن، وأحلى من العسل، يغت فيه ميزابان يمدانه من الجنة، أحدهما من ذهب والآخر من ورق»[2].

* * *

(١) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الفضائل- باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته برقم (٣٦-٢٣٠٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الفضائل- باب إثبات حوض نبينا ﷺ برقم (٣٧- ٢٣٠١).

المبحث الثالث
لكل نبي حوض

إن اللّه عز وجل بحكمته وعدله كما جعل لمحمد ﷺ حوضا يرده المؤمنون من أمته، جعل كذلك لكل نبي حوضا حتى ينتفع المؤمنون بالأنبياء السابقين[(١)] روى الترمذي عن سمرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن لكل نبي حوضا وأنهم يتباهون أيهم أكثر وارده وإني أرجو أن أكون أكثرهم واردة»[(٢)].

* * *

(١) المحاضرات السنيه في شرح العقيدة الواسطية (٢/ ٥٧٤).

(٢) صحيح سنن الترمذي- أبواب صفة القيامة- باب صفة الحوض (٢/ ٢٩٥) (١٩٨٨- ٢٥٧٣).

المبحث الرابع
الذين يذادون عن حوض النبي ﷺ

بين النبي ﷺ أن الذين يردون حوض النبي ﷺ ويشربون منه هم المؤمنون من أمته وأن الذين يطردون عنه ويمنعون من الأمم الأُخرى والذين أحدثوا وبدلوا من هذه الأمة بعد النبي ﷺ. وتفصيل ذلك:

١- طرد من يرد على الحوض من الأمم الأخرى:

أخبر النبي ﷺ في عدة أحاديث صحيحه أنه يصد الناس الغرباء من أمته عن حوضه، وأنه يميز أمته عن غيرها بعلامة اختصت بها ليس لغيرها من الأُمم وهي الغرة والتحجيل من أثر الوضوء فعن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ : «والذي نفسي بيده إن حوضي لأَبعد من أَيله من عدن، والذي نفسي بيده! إني لأذود عنه الرجال كما يذود الرجل الإبل الغريبة عن حوضه»[١] قالوا: يا رسول اللَّه! أتعرفنا؟ قال: «نعم، تردون علي غرا محجلين[٢] من آثار الوضوء، ليست لأحد غيركم»[٣] وعن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ترد علي أمتي الحوض، وأنا أذود الناس عنه ،كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله» قالوا: يا نبي اللَّه! أتعرفنا؟ قال: «نعم، لكم سيما[٤] ليس لأحدٍ غيركم، تردون علي محجلين

---

(١) معناه كما يذود الساقي الناقه الغريبة عن إبله إذا أرادت الشرب مع إبله. (ذكره النووي في شرح مسلم (١٥/ ٦٤).

(٢) قال أهل اللغة: الغرة بياض جبهة الفرس والتحجيل بياض في يديها ورجليها، قال العلماء: «سمي النور الذي يكون على مواضع الوضوء يوم القيامة غرة وتحجيلا تشبيها بغرة الفرس. واللَّه أعلم (صحيح مسلم بشرح النووي) (٣- ١٣٥).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الطهارة- باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء برقم (٣٨- ٢٤٨).

(٤) سيما: علامة «صحيح مسلم بشرح النووي» (٣/ ١٣٥).

من آثار الوضوء وليصدر عني طائفة منكم فلا يصلون فأقول: يارب! هؤلاء من أصحابي، فيحجبني ملك فيقول: «وهل تدري ما أحدثوا بعدك؟»(١) ففرق النبي ﷺ في الحديث بين الناس من الأمم الأخرى وأصحابه وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إنشاء الله بكم لاحقون وددت أن قد رأينا إخواننا» قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: أنتم أصحابي وإخواننا الذين لم يأتوا بعد «فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك؟ يا رسول الله! فقال: «أرأيت لو أن رجلا له خيل غر محجلة، بين ظهري خيل دهم بهم(٢) ألايعرف خيله؟ «قالوا: بلى، يارسول الله! قال: فإنهم يأتون غرا محجلين من الوضوء وأنا فرطهم على الحوض، ألا ليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال، أناديهم: ألا هلم! فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك، فأقول: سحقا سحقا»(٣).

ما الحكمة في ذود النبي ﷺ الأمم الأخرى عن حوضه؟

قال الحافظ بن حجر: «والحكمة من الذود المذكور أنه ﷺ يريد أن يرشد كل أحد إلى حوض نبيه على ما تقدم أن لكل نبي حوضا وأنهم يتباهون بكثرة من يتبعهم فيكون ذلك من جملة إنصافه ورعاية إخوانه من النبيين، لا أنه يطردهم بخلا عليهم بالماء، ويحتمل أنه يطرد من لا يستحق الشرب من الحوض والعلم عند الله تعالى(٤).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الطهارة - باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء برقم (٣٨، ٢٤٨).

(٢) قوله (لو أن رجلا له خيل غر محجلة بين ظهري خيل دهم بهم) أما بين ظهري فمعناه بينهما وأما الدهم فجمع أدهم وهو الأسود والدهمة السواد وأما البهم فقيل السود أيضا وقيل البهم الذي لا يخالط لونه لونا سواه سواء كان أسود أو أبيض أو أحمر بل يكون لونه خالصا» «صحيح مسلم بشرح النووي» (٣/ ١٣٩).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه - كتاب الطهارة- باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء برقم (٣٩، ٢٤٩).

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتاب الرقاق- باب في الحوض (١١/ ٥٧٧).

٢- طرد الذين أحدثوا وبدلوا من هذه الأمة:

عن عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أنا فرطكم على الحوض وليرفعن رجال منكم ثم ليختلجن[١] دوني، فأقول: يا رب أصحابي، أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»[٢] وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: بينا أنا نائم فإذا زمرة، حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال: هلم، فقلت: أين؟ قال: إلى النار والله، قلت: وما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى، ثم إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال: هلم، قلت: أين؟ قال: إلى النار والله، قلت: ما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى، فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم»[٣].

قال ابن حجر: والمراد بالرجل الملك الموكل بذلك وقوله: «فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم» يعني من هؤلاء الذين دنوا من الحوض وكادوا يردونه فصدوا عنه والهمل بفتحتين: الإبل بلا راع، وقال الخطابي: الهمل مالا يرعى ولا يستعمل، ويطلق على الضوال والمعنى أنه لا يرده منهم إلا القليل، لأن الهمل في الإبل قليل بالنسبة لغيرة»[٤] وعن أبي حازم عن سهل بن سعد قال: قال النبي ﷺ: «إني فرطكم على الحوض: من مر علي شرب، ومن شرب ولم يظمأ أبدا، ليردن علي أقوام أعرفهم ويعرفوني ثم يحال بيني وبينهم»[٥].

---

(١) ليختلجن: ينزعون أويجذبون مني (فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتاب الرقاق- باب في الحوض (١١/ ٩٤١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه- كتاب الرقاق- باب في الحوض (ص١٦١١) (٦٥٧٦) وأخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الفضائل- باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته برقم (٣٢، ٢٢٩٧) واللفظ للبخاري.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه- كتاب الرقاق- باب في الحوض (ص١٦١٣) (٦٥٨٧).

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتاب الرقاق- باب في الحوض (١١/ ٥٧٨).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه- كتاب الرقاق- باب في الحوض (ص١٦١٢) (٦٥٨٣) رواه مسلم كتاب الفضائل باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته برقم (٢٦/ ٢٢٩٠).

«(قال أبو حازم فسمعني النعمان بن أبي عياش فقال: هكذا سمعت من سهل؟ فقلت: نعم، فقال: أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعته وهو يزيد فيها: فأقول: إنهم مني، فيقال: إنك لا تدري ما أَحدثوا بعدك، فأقول: سحقا سحقا لمن غير بعدي»[(١)].

هؤلاء الذين يقول النبي ﷺ سحقا- أي بعدا- «قيل: هؤلاء صنفان: أحدهما: عصاة مرتدون عن الاستقامة لا عن الإسلام وهؤلاء مبدلون للأعمال الصالحة بالسيئة.

والثاني: مرتدون إلى الكفر حقيقة ناكصون على أعقابهم، واسم التبديل يشمل الصنفين»[(٢)].

قال القرطبي: «قال علماؤنا رحمة اللَّه عليهم أجمعين: فكل من ارتد عن دين اللَّه أو أحدث فيه ما لا يرضاه اللَّه ولم يأذن به اللَّه، فهو من المطرودين عن الحوض المبعدين عنه، وأشدهم طردا من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم كالخوارج على اختلاف فرقها، والروافض على تباين ضلالها والمعتزلة على أصناف أهوائها، فهؤلاء كلهم مبدلون، وكذلك الظلمة المسرفون في الجور والظلم وتطميس الحق، وقتل أهله وإذلالهم والمعلنون بالكبائر المستخفون بالمعاصي، وجماعة أهل الزيغ والأهواء والبدع، ثم البعد قد يكون في حال ويقربون بعد المغفرة إن كان التبديل في الأعمال لا العقائد، وعلى هذا التقدير يكون نور الوضوء يعرفون به ثم يقال لهم: سحقاً، وإن كانوا من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول اللَّه ﷺ يظهرون الإيمان ويسرون الكفر فيأخذهم بالظاهر، ثم يكشف لهم الغطاء فيقول لهم: «سحقا سحقا»، ولا يخلد في النار إلا كافر جاحد مبطل ليس في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان»[(٣)] ولقد بين النبي ﷺ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه- كتاب الرقاق- باب في الحوض (ص١٦١٢) (٦٥٨٣) رواه مسلم كتاب الفضائل باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته برقم (٢٦/ ٢٢٩١) واللفظ للبخاري.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي أورده النووي من كلام القاضي (١٥/ ٦٤).

(٣) التذكرة ص ٢٦٥- ٢٦٦ .

إن التنافس في الدنيا والمغالبة عليها من أسباب الإبعاد عن الحوض، عن عقبة رضي الله عنه أن النبي ﷺ خرج يوما فصلى على أهل أحد صلاته على الميت ثم انصرف على المنبر فقال: «إني فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني واللَّه لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض- أو مفاتيح الأرض- وإني واللَّه ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها»[١]

قال ابن حجر: «قال ابن التين: النكته في ذكره عقب التحذير الذي قبله أنه يشير إلى تحذيرهم من فعل ما يقتضي إبعادهم عن الحوض»[٢]

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه- كتاب الرقاق- باب في الحوض (ص١٦١٣) (٦٥٩٠).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتاب الرقاق- باب في الحوض (١١/٥٧٨).

المبحث الخامس
حوض النبي ﷺ قبل الصراط أو بعده

اختلف أهل العلم في موضوع الحوض، قال القرطبي: «ذهب صاحب القوت وغيره إلى أن حوض النبي ﷺ إنما هو بعد الصراط»[(١)] وقال ابن حجر: «وإيراد البخاري لأحاديث الحوض بعد أحاديث الشفاعة وبعد نصب الصراط إشارة منه إلى أن الورود على الحوض يكون بعد نصب الصراط والمرور عليه»[(٢)] وقد نصر ابن حجر هذا القول وحل ما يرد عليه من إشكال واستدل له بأدلة ورد على أدلة القائلين بأن الحوض قبل الصراط[(٣)].

وذهب القرطبي إلى أن الحوض يكون في الموقف قبل الصراط وقال: «لأن الصراط إنما هو جسر على جهنم ممدود يجاز عليه، فمن جازه سلم من النار على ما يأتي، وكذا حياض الأنبياء عليهم السلام تكون أيضا في الموقف»[(٤)] وقال أبو العز الحنفي «والحوض في العرصات قبل الصراط لأنه يختلج عنه ويمنع منه أقوام قد ارتدوا على أعقابهم»[(٥)].

وما ذهب إليه القرطبي وأبو العز هو الأرجح. والله أعلم.

***

---

(١) التذكرة ص ٢٦٢ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتاب الرقاق- باب في الحوض (١١/٥٦٧).

(٣) للاستزاده انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتاب الرقاق- باب في الجوض (١١/ ٥٦٧).

(٤) التذكرة ص ٢٦٢ .

(٥) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٧٩ .

الفصل التاسع: الصراط
المبحث الأول: حشر الكفار إلى النار

في نهاية هذا اليوم الطويل وما جرى فيه من أمور عظام، يتبع الأَتباع ما كانوا يعبدون في الدنيا، قال تعالى في شأن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨] فكما أنهم اتبعوه في الدنيا وكان مقدمهم ورئيسهم، كذلك هو يقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم فأوردهم إياها[١] وهكذا كل عابد يتبع معبوده، قال رسول اللّه ﷺ: «يجمع اللّه الناس يوم القيامة، فيقول: من كان يعبد شيئا فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها»[٢].

وفي رواية أبي سعيد الخدري عن رسول اللّه ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن: ليتبع كل أمة ما كانت تعبد، فلا يبقى أحد كان يعبد غير اللّه سبحانه من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار»[٣].

وهذا يحصل قبل أن ينصب الصراط على متن جهنم مما يدل على أن الكفار لا يمرون على الصراط وإنما يتساقطون في النار مباشرة[٤] كما سيأتي بيان ذلك عند ذكر تمام الحديث ولما كان من اليهود والنصارى ممن كان لا يعبد الصلبان

---

(١) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٢/ ٤٦٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الإيمان- باب معرفة طريق الرؤية- برقم (٢٩٩/ ١٨٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الإيمان- باب معرفة طريق الرؤية برقم (٣٠٢- ١٨٣).

(٤) انظر: المحاضرات السنية في شرح العقيدة الواسطية (٢/ ٥٧٧).

وكانوا يدعون أنهم يعبدون اللّه تعالى: فإنهم يتأخرون مع المسلمين، ثم يقر اليهود أنهم كانوا يعبدون عزير و تقر النصارى أنهم كانوا يعبدون المسيح فيلحقون بأصحاب الأوثان ويتساقطون في النار ويؤيده قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [البينة: ٦] وهذا كله قبل نصب الصراط كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري السابق ذكره «حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد اللّه من بر وفاجر، وغبر أهل الكتاب، فيدعي اليهود فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزيرا ابن اللّه، فيقال كذبتم ما اتخذ اللّه من صاحبة ولا ولد فماذا تبغون؟ قالوا عطشنا يا ربنا! فاسقنا، قال: فيشار إليهم: ألا تردون؟ فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضا، فيتساقطون في النار[(١)] ثم يدعي النصاري فيقال لهم ما كنتم تبعدون؟ قالوا: كنا نعبد المسيح ابن اللّه فيقال لهم كذبتم، ما اتخذ اللّه من صاحبة ولا ولد فيقال له: ماذا تبغون؟ فيقول: عطشنا يا رب فاسقنا، قال: فيشار إليهم: ألا تردون؟ فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضا، فيتساقطون في النار حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد اللّه تعالى من بر وفاجر أتاهم رب العالمين سبحانه وتعالى في أدنى صورة من التي رأوه فيها. . .» إلى أن قال: «ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة ويقولون اللّهم سلم سلم»[(٢)] فالحديث واضح وصريح في أن الكفار والمشركين من أهل الكتاب لا يمرون على الصراط وأنهم يتساقطون في النار قبل أن يضرب الصراط على متن جهنم.

---

(١) قال النووي: أما السراب فهو الذي يتراءى الناس في الأرض القفر والقاع المستوي وسط النهار في الحر الشديد لامعا مثل الماء يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا، فالكفار يأتون جهنم- أعاذنا اللّه الكريم وسائر المسلمين منها ومن كل مكروه- وهم عطاش فيحسبونها ماء فيتساقطون فيها وأما يحطم بعضها بعضا فمعناه لشدة اتقادها وتلاطم أمواج لهبها والحطم الكسر والإهلاك، والحطمة: اسم من أسماء النار لكونها تحطم ما يلقى فيها. (صحيح مسلم بشرح النووي) (٣/ ٢٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الإيمان- باب معرفة طريق الرؤية برقم (٣٠٢- ١٨٣).

المبحث الثاني
بقاء المؤمنين والمنافقين في أرض الموقف حتى يأتيهم اللّه تعالى

ويبقى في أرض الموقف من كان يظهر الإيمان من مخلص ومنافق كما جاء في حديث أبي هريرة السابق ذكره «وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم اللّه تبارك وتعالى»[(١)] وفي حديث أبي سعيد الخدري «حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد اللّه تعالى من بر وفاجر»[(٢)].

قال الحافظ بن حجر: «قال ابن أبي جمرة: يحتمل أن يكون المراد بالأمة أمة محمد ﷺ، ويحتمل أن يحمل على أعم من ذلك فيدخل فيه جميع أهل التوحيد حتى من الجن ويدل عليه ما في بقية الحديث أنه يبقى من كان يعبد اللّه من بر وفاجر[(٣)] قلت: ويؤخذ أيضا من قوله في بقية هذا الحديث «فأكون أول من يجيز[(٤)] فإن فيه إشارة إلى أن الأنبياء بعده يجيزون أممهم»[(٥)] ويتأخر المنافقون مع المؤمنين رجاء أن ينفعهم ذلك بناء على ما كانوا يظهرونه من الإسلام في الدنيا فيأتيهم اللّه تعالى كما جاء في حديث أبي هريرة «وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم اللّه تبارك وتعالى في صورة غيرصورته التي يعرفون، فيقول: «أنا ربكم»،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الإيمان- باب معرفة طريق الرؤية برقم (٢٩٩/ ١٨٢).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الإيمان- باب معرفة طريق الرؤية برقم (٣٠٢/ ١٨٣).

(٣) لم يأت ذلك في نفس حديث أبي هريرة إنما جاء في حديث أبي سعيد الخدري.

(٤) جاءت في رواية البخاري عن أبي هريرة- كتاب الرقاق- باب الصراط جسر جهنم (ص١٦١٠) (٦٥٧٣) وفي رواية مسلم عن أبي هريرة «فأكون أنا وأمتي أول من يجيز» كتاب الإيمان- باب معرفة طريق الرؤية برقم (٢٩٩- ١٨٢).

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتاب الرقاق- باب الصراط جسر جهنم (١١/ ٥٤٦).

فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه»[1] فيأتيهم الله تعالى في صورته التي يعرفون[2]: فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فيتبعونه، ويضرب الصراط بين ظهري جهنم»[3].

وجاء في حديث أبي سعيد الخدري: «حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله تعالى من بر وفاجر، أتاهم رب العالمين سبحانه وتعالى في أدنى صورة من التي رأوه فيها، قال: فما تنتظرون؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد، قالوا: يا ربنا! فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم[4] فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، لا نشرك بالله شيئا (مرتين أو ثلاثا) حتى إن بعضهم ليكاد أن

---

(١) قال الحافظ بن حجر: «قال ابن بطال عن المهلب: فقوله: «فإذا جاء ربنا عرفناه أي: إذا ظهر لنا في ملك لا ينبغي لغيره وعظمة لا تشبه شيئا من مخلوقاته فحينئذ يقولون أنت ربنا: «فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتاب التوحيد- باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (١٣- ٥٢٣).

(٢) قال النووي: «فيتجلى سبحانه تعالى لهم على الصفة التي يعلمونها ويعرفونه بها وإنما عرفوه بصفته وإن لم تكن تقدمت لهم رؤية له سبحانه وتعالى لأنهم يرونه لا يشبه شيئا من مخلوقاته وقد علموا أنه لا يشبه شيئا من مخلوقاته فيعلمون أنه ربهم فيقولون أنت ربنا» صحيح مسلم بشرح النووي (٣/ ٢٠) وقال القرطبي: «يتجلى لهم في صورته التي هو عليها من الجلال والكمال والتعالي والجمال بعد أن رفع الموانع عن أبصارهم» «التذكرة ص ٢٨٣).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الإيمان- باب معرفة طريق الرؤية (/ ٩٩) (٢٩٩/ ١٨٢).

(٤) قال النووي: قوله (قالوا ربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم) معنى قولهم التضرع إلى الله تعالى في كشف هذه الشدة عنهم وإنهم لزموا طاعته سبحانه وتعالى وفارقوا في الدنيا الناس الذين زاغوا عن طاعته سبحانه من قراباتهم وغيرهم ممن يحتاجون في معايشهم ومصالح دنياهم إلى معاشرتهم للارتفاق بهم وهذا كما جرى للصحابة والمهاجرين وغيرهم ومن أشبههم من المؤمنين في جميع الأزمان فإنهم يقاطعون من حاد الله ورسوله ﷺ مع حاجتهم في معايشهم إلى الارتفاق بهم والاعتضاد بمخالطتهم فآثروا رضا الله تعالى على ذلك [صحيح مسلم بشرح النووي (٣/ ٢٧).

ينقلب[1] فيقول: هل بينكم وبينه آية تعرفونه بها؟ فيقولون: نعم، فيكشف عن ساق، فلا يبقى من كان يسجد للّه من تلقاء نفسه إلا أذن اللّه له بالسجود، ولا بقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل اللّه ظهره طبقة واحدة، وكلما أراد أن يسجد خر على قفاه.

ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة، فقال: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا. ثم يضرب الجسر على جهنم...»[2].

***

(١) قال النووي: «قوله ﷺ «حتى أن بعضهم ليكاد أن ينقلب معناه واللّه أعلم ينقلب عن الصواب ويرجع عنه للامتحان الشديد الذي جرى واللّه أعلم (صحيح مسلم بشرح النووي (٣/ ٢٧) وقال الحافظ ابن حجر: «ولا إشكال في حصول الامتحان في الموقف لأن آثار التكاليف لا تنقطع إلا بعد الاستقرار في الجنة أو النار [فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتاب الرقاق- باب الصراط جسر جهنم (١١/ ٥٤٩)].

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب التوحيد- باب معرفة طريق الرؤية برقم (٣٠٢- ١٨٣).

المبحث الثالث
تميز المنافقين عن المؤمنين بعدم السجود وبإطفاء نورهم

ذكرنا آنفا أن المنافقين يبقون في زمرة المؤمنين رجاء أن ينفعهم ذلك بناء على ما كانوا يظهرونه من إسلام في الدنيا، ويظنون أن ذلك يستمر لهم حتى يميزهم اللّه تعالى منهم في حالين: الأول: حين يكشف الجبار عن ساقه فيسجد له المؤمنون إلا المنافقون فلا يستطيعون روى البخاري عن أبي سعيد الخدري «فيأتيهم الجبار في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فلا يكلمه إلا الأنبياء فيقول: هل بينكم وبينه آية تعرفونه؟ فيقولون الساق، فيكشف عن ساقه فيسجد له كل مؤمن، ويبقى من كان يسجد للّه رياء وسمعه فيذهب كيما يسجد فيعود ظهره طبقا واحدا»(١)(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه- كتاب التوحيد- باب قول اللّه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢- ٢٣]. (١٣/ ٥١٣) (٧٤٣٧).

(٢) ذكر ابن كثير هذا الحديث الشريف في تفسير قول اللّه تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢] (تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٤/ ٤١١) وانظر مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٥٣٨) وقال السعدي في تفسير ه الآية الكريمة السابقة «أي إذا كان يوم القيامة، وانكشف ما فيه من القلاقل والأهوال ما لا يدخل تحت الوهم، وأتى الباري لفصل القضاء بين عباده ومجازاتهم، فكشف عن ساقه الكريمة التي لا يشبهها شيء، ورأى الخلائق من جلال اللّه وعظمته مالا يملكون التعبير عنه فحينئذ يدعون إلى السجود للّه، فيسجد المؤمنون الذين كانوا يسجدون للّه، طوعا واختيارا، ويذهب الفجار والمنافقون ليسجدوا فلا يقدرون على السجود» (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» (ص٨٨١) قال النووي: «وهذا السجود امتحان من اللّه تعالى لعباده وقد استدل بعض العلماء بهذا مع قوله تعالى: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢] على جواز تكليف ما لا يطاق، وهذا استدلال باطل فإن الآخرة ليست=

وفي رواية مسلم «كلما أراد أن يسجد خر على قفاه»(١).

الثاني: عند انطفاء نور المنافقين:

قال أبو العز الحنفي: إذا انتهى الناس بعد مفارقتهم مكان الموقف إلى الظلمة التي دون الصراط، كما قالت عائشة رضي الله عنها: إن رسول الله ﷺ سئل: أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات فقال: «هم في الظلمة دون الجسر»(٢) وفي هذا الموضع يفترق المنافقون عن المؤمنين، ويتخلفون عنهم ويسبقهم المؤمنون، ويحال بينهم بسور يمنعهم من الوصول إليهم»(٣).

روى مسلم في صحيحه عن أبي الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يسأل عن الورود، فقال: نجيء يوم القيامة عن كذا وكذا انظر أي ذلك فوق الناس قال فتدعى الأمم بأوثانها وما كانت تعبد الأول فالأول، ثم يأتينا ربنا بعد ذلك فيقول: من تنظرون؟ فيقولون: ننظر ربنا، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: حتى ننظر إليك، فيتجلى لهم يضحك، قال: فينطلق بهم ويتبعونه، ويعطى كل إنسان منهم، منافق أو مؤمن نورا، ثم يتبعونه، وعلى جسر جهنم كلاليب وحسك تأخذ من شاء الله، ثم يطفأ نور المنافقين، ثم ينجو المؤمنون»(٤) وقال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن

= دار تكليف بالسجود وإنما المراد إمتحانهم، وأما قوله ﷺ: «طبقة» فبفتح الطاء والباء قال الهروي وغيره: الطبق: فقار الظهر أي صار فقاره واحدة كالصحيفة فلا يقدر على السجود والله أعلم (صحيح مسلم بشرح النووي) (٣/٢٨).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الإيمان- باب معرفة طريق الرؤية برقم (٣٠٢- ١٨٣) عن أبي سعيد الخدري.

(٢) قطعة من حديث مطول رواه مسلم في صحيحه- كتاب الحيض- باب صفة مني الرجل والمرأة وأن الولد المخلوق من مائهما برقم (٣٤- ٣١٥).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ٦٠٥ .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان- باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها برقم (٣١٦- ١٩١).

﴿تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٢- ١٥].

قال ابن كثير: قال الضحاك: «ليس أحد إلا يعطى نورا يوم القيامة، فإذا انتهوا إلى الصراط طفئ نور المنافقين، فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا أن يطفأ نورهم كما طفئ نور المنافقين فقالوا: ربنا أتمم لنا نورنا».

ويقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا: «انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا» وهي خدعة اللّه التي خدع بها المنافقين حيث قال: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ فيرجعون إلى المكان الذي قسم فيه النور فلا يجدون شيئا فينصرفون إليهم، وقد ضرب بينهم بسور له باب «باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب» يقول سليم بن عامر: فما يزال المنافق مغترا حتى يقسم النور، ويميز اللّه بين المنافق والمؤمن والمراد بالسور: سور يضرب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه، فإذا استكملوا دخولهم أغلق الباب، وبقي المنافقون من ورائه في الحيرة والظلمة والعذاب كما كانوا في الدار الدنيا في كفر وشك وحيرة»[١].

***

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/٤٤٩- ٤٥٠) باختصار.

المبحث الرابع
صفة الصراط والمرور عليه

جاء في الأحاديث الصحيحة وصف الصراط وأحوال الناس في المرور عليه ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة: «ويضرب جسر جهنم قال رسول الله ﷺ: فأكون أول من يجيز و دعاء الرسل يومئذ اللّهم سلم سلم ، وبه كلاليب مثل شوك السعدان، أما رأيتم شوك السعدان؟» قالوا: بلى يارسول الله، قال: «فإنها مثل شوك السعدان غير أنها لا يعلم قدر عظمها إلا اللّه، فتخطف الناس بأعمالهم، منهم الموبق بعمله، ومنهم المخردل ثم ينجو»(١).

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري «ثم يضرب الجسر على جهنم، وتحل الشفاعة ويقولون: اللّهم! سلم سلم، قيل: يا رسول اللّه! وما الجسر؟ قال: «دحض مزلة، فيه خطاطيف وكلاليب وحسك، تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان، فيمر المؤمنون، كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب، فناج مسلم، ومخدوش مرسل، ومكدوس في نار جهنم»(٢).

وروى البيهقي بسنده، عن مسروق، عن عبداللّه بن مسعود قال: «يجمع اللّه الناس يوم القيامة» إلى أن قال: «فيعطون نورهم على قدر أعمالهم، وقال: فمنهم من يعطي نوره مثل الجبل بين يديه، ومنهم من يعطى نوره فوق ذلك، ومنم من يعطى نوره مثل النخلة بيمينه، ومنهم من يعطى دون ذلك بيمينه، حتى يكون آخر من يعطى نوره على إبهام قدمه، يضيء مرة ويطفأ مرة، إذا أضاء قدم قدمه، وإذا طفئ قام، قال: فيمر ويمرون على الصراط، والصراط كحد السيف، دحض مزلة، فيقال لهم امضوا على قدر نوركم، فمنهم من يمر كانقضاض

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه- كتاب الرقاق-باب: الصراط جسر جهنم (ص١٦١٠) (٦٥٧٣).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان- باب معرفة طريق الرؤية برقم (٣٠٢-١٣٨).

الكوكب ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كشد الرجل، يرمل رملا، فيمرون على قدر أعمالهم، حتى يمر الذي نوره على إبهام قدمه، تخر يد وتعلق يد، وتخر رجل وتعلق رجل وتصيب جوانبه النار، فيخلصون، فإذا خلصوا قالوا: الحمد للّه الذي نجانا منك بعد أن أراناك لقد أعطانا اللّه ما لم يعط أحدا»[1].

في هذه الأحاديث الشريفة إثبات الصراط وهذا هو مذهب أهل الحق وقد أجمع السلف على إثباته، وهو جسر على متن جهنم يمر عليه الناس على قدر أعمالهم أدق من الشعرة وأحد من السيف كما ذكر أبو سعيد الخدري: «بلغني أن الجسر أدق من الشعرة وأحد من السيف»[2].

والجسر دحض مزلة كما وصفه النبي ﷺ: «والدحض والمزلة بمعنى واحد وهو الموضع الذي تزل فيه الأقدام ولا تستقر ومنه دحضت الشمس أي مالت وحجة داحضة لا ثبات لها»[3].

«فيه خطاطيف وكلاليب وحسك تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان»

---

(١) قال الألباني في تخريج أحاديث الطحاوية ص ٤١٧: صحيح، وأخرجه الحاكم(٢/ ٣٧٦) وأظن أن البيهقي من طريقه رواه، وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي قلت: وفيه يزيد بن عبد الرحمن أبو خالد الدالاني، ولم يخرج له الشيخان شيئا ثم هو وإن كان صدوقا، فقد كان يخطيء كثيرا، وكان يدلس، كما في التقريب»، وقد صرح في هذا الأثر بالتحديث، فأمنا بذلك تدليسه، فإنما يخشى منه الخطأ فيه، لكنه قد توبع كما يأتي، فأمنا بذلك خطأه أيضا، وقد أخرجه الحاكم أيضا (٤/ ٥٩٠- ٥٩٢) بتمامه مطولا، وكذلك الطبراني في «المعجم الكبير» (٣/ ٤٦/ ٢- ٤٧/ ٢) من طريق أبي خالد هذا عن أبي مسعود مرفوعا وقد تابعه زيد بن أبي أنيسه مرفوعا أيضا بتمامه عند الطبراني، وزيد نقه، فصح بذلك الحديث والحمد للّه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان بلاغا عن أبي سعيد الخدري باب معرفة طريق الرؤية برقم (٣٠٢).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (٣/ ٢٩).

والخطاطيف جمع خطاف وهي بمعنى الكلاليب ومفردها كلوب» وهو حديدة معطوفة الرأس يعلق فيها اللحم وترسل في التنور»[١].

«والحسك نبات له ثمر خشن يتعلق بأصواف الغنم وربما اتخذ مثله من حديد وهو من آلات الحرب»[٢] وأما السعدان فهو نبات ذو شوك يضرب به المثل في طيب مرعاة، ووقع في رواية البخاري السابق ذكرها عن أبي هريرة بتشبيه الكلاليب بشوك السعدان ليبين سرعة اختطافها وكثرة الانتشاب فيها [٣].

وتقوم الأمانة والرحم في ناحيتي الصراط لتطالبا كل من يريد الجواز بحقهما روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة وعن حذيفة قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسيلم: «يجمع الله تبارك وتعالى الناس، فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنة، فيقول وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم! لست بصاحب ذلك، إذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله... إلى أن قال: «فيأتون محمدا ﷺ، فيقوم فيؤذن له، وترسل الأمانة والرحم، فتقومان جنبتي الصراط يمينا وشمالا»[٤].

قال الحافظ ابن حجر: «والمعنى أن الأمانة والرحم لعظم شأنهما وفخامة ما يلزم العباد من رعاية حقهما يوقفان هناك للأمين والخائن والمواصل والقاطع فيحاجان عن المحق ويشهدان على المبطل»[٥].

وأما المرور على الصراط فإن أول من يمضي على الصراط ويقطعه فهو

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٣/ ٢١).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتاب التوحيد- باب قول الله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (١٣/ ٥٢٥).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتاب الرقاق- باب الصراط جسر جهنم (١١/ ٥٥٢) بتصرف.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الإيمان- باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها برقم (٣٢٩- ١٩٥).

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب الرقاق- باب الصراط جسر جهنم (١١/ ٥٥١).

محمد ﷺ وأمته كما جاء في حديث أبي هريرة عن رسول اللّه ﷺ: «فأكون أنا وأمتي أول من يجيز»(١).

وفي حال المضي على الصراط لا يتكلم يومئذ إلا الرسل لشدة الأهوال يدعون اللّهم سلم سلم، ويكون الناس في سرعةالمرور على حسب مراتبهم وأعمالهم كما قال ﷺ في حديث أبي هريرة وحذيفة «فيمر أولكم كالبرق» قال: قلت: بأبي أنت وأمي! أي شيء كمر البرق؟ قال: «ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين؟ ثم كمر الريح، ثم كمر الطير وشد الرجال، تجري بهم أعمالهم ونبيكم قائم على الصراط يقول: رب! سلم سلم، حتى تعجز أعمال العباد، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً، قال وفي حافتي الصراط، كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به، فمخدوش ناج ومكدوس في النار» والذي نفس أبي هريرة بيده! إن قعر جهنم لسبعون خريفا(٢).

فقوله ﷺ: «تجرى بهم أعمالهم» فهو كالتفسير لقوله ﷺ: «فيمر أولكم كالبرق ثم كالريح إلى آخر معناه أنهم يكونون في سرعة المرور على حسب مراتبهم وأعمالهم، وأما شد الرجال فهو بالجيم جمع رجل، هذا هو الصحيح المعروف المشهور وشدها عدوها البالغ وجريها»(٣).

وفي حديث عبداللّه بن مسعود السابق ذكره «فيعطون نورهم على قدر أعمالهم.. إلى أن قال: «فيقال لهم امضوا على قدر نوركم فمنهم من يمر كانقضاض الكوكب، ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر كالطرف ومنهم من يمر كشد الرجل يرمل رملا فيمرون على قدر أعمالهم، حتى يمر الذي نوره على إبهام قدمه، تخر يد وتعلق يد، وتخر رجل وتعلق رجل وتصيب جوانبه النار»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الإيمان- باب معرفة طريق الرؤية برقم (٢٩٩- ١٨٢).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الإيمان- باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها برقم (٣٢٩- ١٩٥).
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (٣/ ٧٢) بتصرف يسير.
(٤) قال الألباني: في تخريج أحاديث الطحاوية صحيح- راجع الحديث.

والكلاليب «تخطف الناس بأعمالهم» أي «بسبب أعمالهم أو على قدر أعمالهم والله أعلم»[1] «فمنهم الموبق بعمله» أي الهالك «ومنهم المخردل» أي المقطع بالكلاليب يقال خردلت اللحم أي قطعته، وقيل المخردل المصروع»[2] ثم ينجو[3] وفي حديث أبي سعيد الخدري: «فناج مسلم، ومخدوش مرسل، ومكدوس[4] في نار جهنم»[5]قال ابن أبي جمرة: «يؤخذ منه أن المارين على الصراط ثلاثة أصناف:

١- ناج بلا خدش.

٢- هالك من أول وهلة.

٣- ومتوسط بينهما يصاب ثم ينجو.

وكل قسم منها ينقسم أقساما تعرف بقوله «بقدر اعمالهم

* * *

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٣/ ٢١) بتصرف يسير.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (٣/ ٢١) بتصرف يسير.

(٣) من حديث أبي هريرة أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق- باب الصراط جسر جهنم (ص١٦١٠) (٦٥٧٣).

(٤) واختلف في ضبط مكدوس فوقع في راوية مسلم بالمهملة (مكدوس) ومعناه الراكب بعضه على بعض ورواه بعضهم بالمعجمة (مكدوش) ومعناه السوق الشديد(فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتاب الرقاق- باب الصراط جسر جهنم (١١/ ٥٥٣) بتصرف يسير.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الإيمان- باب معرفة طريق الرؤية برقم (٣٠٢- ١٨٣).

(٦) فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتاب الرقاق- باب الصراط جسر جهنم (١١/ ٥٥٣).

المبحث الخامس
معنى الورود في قول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾

اختلف المفسرون في المراد بالورود في الآية الكريمة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١- ٧٢][(١)]. فقيل هو دخول النار وهذا مروي عن ابن عباس وذكره ابن كثير في تفسيره عنه قال: «قال عبد الرزاق: خاصم ابن عباس نافع ابن الأزرق، فقال ابن عباس: الورود الدخول، فقال نافع: لا، فقرأ ابن عباس: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٩] وردوا أم لا؟ وقال: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: ٩٨]، أوردهم أم لا؟ أما أنا وأنت فسندخلها فانظر هل نخرج منها أم لا؟ وما أرى الله مخرجك منها بتكذيبك، فضحك نافع»[(٢)].

وقيل المراد بالورود المرور على الصراط روى مسلم عن جابر أن عبدا لحاطب جاء رسول الله ﷺ يشكو حاطبا، فقال: يا رسول الله ليدخلن حاطب النار، فقال رسول الله ﷺ: «كذبت لا يدخلها، فإنه شهد بدرا والحديبية»[(٣)] وروى عن جابر بن عبد الله يقول: أخبرتني أم مبشر، أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة: «لا يدخل النار، إن شاء الله، من أصحاب الشجرة، أحد الذين بايعوا تحتها» قالت: بلى يا رسول الله! فانتهرها، فقالت حفصة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا

---

(١) راجع الجامع لأحكام القرآن (١١/ ٩١- ٩٤) وانظر التذكرة للقرطبي (ص ٢٩٠- ٢٩٢).

(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٤٦١).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب فضائل الصحابة- باب: من فضائل أهل بدر وقصة حاطب بن أبي بلتعة برقم (١٦١- ٢٤٩٤).

وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] فقال النبي ﷺ: «قد قال اللّه عز وجل: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢].

قال النووي: «قال العلماء، معناه لا يدخلها أحد منهم قطعا كما صرح به في الحديث الذي قبله حديث حاطب وإنما قال إن شاء اللّه للتبرك لا للشك، وأما قول حفصة بلى وانتهار النبي ﷺ لها فقالت: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فقال النبي ﷺ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ فيه دليل للمناظرة والاعتراض والجواب على وجه الاسترشاد وهو مقصود حفصة لا أنها أرادت رد مقالته ﷺ، والصحيح أن المراد بالورود هو المرور على الصراط وهو جسر منصوب على جهنم فيقع فيها أهلها وينجو الآخرون»[1] واحتج أبو العز الحنفي بحديث جابر السابق على أن المراد بالورود هو المرور وقال أنه هو الأظهر والأقوى وذكر الحديث ثم قال: «أشاررسول اللّه ﷺ إلى أن ورود النار لا يستلزم انعقاد سببه، فمن طلبه عدوه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه، يقال: نجاه اللّه منهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا﴾ [هود: ٥٨] ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَـٰلِحًا﴾ [هود: ٦٦] ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا﴾ [هود: ٩٤] ولم يكن العذاب أصابهم، ولكن أصاب غيرهم، ولولا ما خصهم اللّه به من أسباب النجاة، لأَصابهم ما أصاب أولئك، وكذلك حال الوارد في النار، يمرون فوقها على الصراط، ثم ينجي اللّه الذين اتقوا، ويذر الظالمين فيها جثيا، فقد بين ﷺ في حديث جابر المذكور: أن الورود هو المرور على الصراط»[2].

وكذلك ابن تيمية احتج بحديث جابر في تفسير الورود في الآية بالمرور على الصراط وقال: «الصراط هو الجسر» فلا بد من المرور عليه لكل من يدخل الجنة، من كان صغيرا في الدنيا ومن لم يكن»[3].

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/ ٥٨).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (ص٦٠٦- ٦٠٧).

(٣) مجموع فتاوي ابن تيمية (٤/ ٢٧٩).

وقال ابن حجر بعد ذكر حديث جابر: «وفي هذا بيان ضعف قول من قال الورود مختص بالكفار ومن قال معنى الورود الدنو منها ومن قال معناه الإشراف عليها ومن قال معنى ورودها ما يصيب المؤمن في الدنيا من الحمى وعلى أن هذا الأخير ليس ببعيد ولا ينافيه بقية الأحاديث» والله أعلم»[1].

وكلمة الورود في اللغة تطلق على الإشراف على المكان أو الماء دخله أو لم يدخله ومن استعمال الورود بمعنى الدخول قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨] وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ هَـٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٩]، ومن استعمال الورود في غير الدخول قول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٢٣] فإن موسى عليه السلام مرَّ على البئر ولم يدخل فيه ولا شك أن ورود النار في حق الكفار هو دخولها، وقد يدخلها بعض عصاة الموحدين ثم يخرجون منها بالشفاعة كما سيأتي بإذن الله تعالى.

لكن الموحدين الناجين والذين يجوزون الصراط دون سقوط في النار فالورود في حقهم يعني المرور.

وليت شعري من مِنّا يا أخي الكريم لديه أمان أنه من الموحدين الناجين لأول وهلة؟! فحق لمن عرف الصراط وأحوال المارين عليه والتعرض لخطر السقوط منه إلى جهنم والعياذ بالله أن يزداد خوفه ويطول بكاؤه، ذكر أبو شهاب الزهري أن عبدالله بن رواحه بكى حين أراد الخروج إلى أرض مؤته فبكي أهله حين رأوه يبكي فقال: والله ما بكيت جزعا من الموت ولا صبابة لكم، ولكني بكيت من قول الله عز وجل: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١] فأيقنت أني واردها ولم أدر أأنجو منها أم لا[2] فلا يكن حظك أخي

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتاب الجنائز- باب فضل من مات له ولد فاحتسب (٣/ ١٦٠).

(٢) حلية الأولياء (١/ ١٦٥).

من الآية الوقوف عند ألفاظها وإنما تدبرها وحرك قلبك بها قال القرطبي: «فتفكر الآن فيما يحل بك من الفزع بفؤادك إذا رأيت الصراط ودقته، ثم وقع بصرك على سواد جهنم تحته، ثم قرع سمعك شهيق النار وتغيظها، وقد كلفت أن تمشي على الصراط مع ضعف حالك، واضطراب قلبك، وتزلزل قدمك، وثقل ظهرك بالأوزار المانعة لك من المشي على بساط الأرض، فضلا عن حدة الصراط، فكيف بك إذا وضعت عليه إحدى رجليك فأحسست بحدته، واضطررت إلى أن ترفع القدم الثاني، والخلائق بين يديك يزلون ويعثرون، وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف والكلاليب، وأنت تنظر إليهم كيف ينكسون فتسفل إلى جهة النار رؤوسهم، وتعلوا أرجلهم، فياله من منظر ما أفظعه، ومرتقى ما أصعبه، ومجاز ما أضيقه»(١).

* * *

(١) التذكرة ص ٢٨٩ .

المبحث السادس: القنطرة

روى البخاري عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار، فيتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا نقوا وهذبوا أذن لهم بدخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم بمسكنه في الجنة أدل بمنزله كان في الدنيا»(١).

قال الحافظ ابن حجر: «قوله: إذا خلص المؤمنون من النار»أي نجوا من السقوط فيها بعدما جازوا على الصراط»(٢)، قال القرطبي: «فإذا خلص من خلص من هذا الصراط الذي ذكرناه ولا يخلص منه إلا المؤمنون الذين علم الله منهم أن القصاص لا يستنفد حسناتهم حبسوا على صراط آخر خاص لهم ولا يرجع على النار من هؤلاء أحد إن شاء الله لأنهم عبروا الصراط الأول المضروب على متن جهنم الذي يسقط فيها من أوبقة ذنبه وأربى على الحسنات بالقصاص جرمه»(٣) فالقرطبي يرى أن هناك صراطان أحدهما مجاز لأهل المحشر كلهم والثاني للمؤمنين الذين عبروا الصراط الأول فيحبسون على صراط آخر خاص لهم ويتقاصون مظالم بينهم(٤).

وقال ابن حجر: وقوله: ««بقنطرة» الذي يظهر أنها طرف الصراط مما يلي الجنة ويحتمل أن تكون من غيره بين الصراط والجنة»(٥)، قال ابن حجر: «وقوله: «فيتقاصون»: المراد به تتبع ما بينهم من المظالم وإسقاط بعضها ببعض

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه- كتاب المظالم- باب قصاص المظالم (ص٦٣٠) (٢٤٤٠).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتاب الرقاق- باب القصاص يوم القيامة (١١/ ٤٨٥).

(٣) التذكرة ص ٢٩٤ .

(٤) التذكرة ص ٢٩٤ بتصرف.

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتاب المظالم- باب قصاص المظالم (٥/ ٧٤٠).

وقوله: «حتى إذا نقوا وهذبوا» اي خلصوا من التبعات «أذن لهم بدخول الجنة».

قال ابن عثيمين: «وهذا القصاص غير القصاص الأول الذي في عرصات القيامة، لأن هذا قصاص أخص من أجل أن يذهب الغل والحقد والبغضاء التي في قلوب الناس، فيكون هذا بمنزلة التنقية والتطهير، وذلك لأن ما في القلوب لا يزول بمجرد القصاص، فهذه القنطرة التي بين الجنة والنار لأجل تنقية ما في القلوب[1] «حتى إذا نقوا وهذبوا أذن لهم بدخول الجنة»[2] أَي هذبوا مما في قلوبهم من العداوة والبغضاء ونقوا منها.

***

(١) المحاضرات السنية في شرح العقيدة الواسطية (٢/٥٧٨ - ٥٧٩).

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب المظالم - باب قصاص المظالم (ص٦٣٠) (٢٤٤٠).

الفصل العاشر
خروج عصاة الموحدين من النار، ودخول الجنة
المبحث الأول: الشفاعة في إخراج عصاة الموحدين من النار

عرفنا أنه لا يمر على الصراط إلا الموحدون فمنهم من ينجو سالما ومنهم من يخدش ثم ينجو ومنهم من يكردس ويلقى فيسقط في جهنم والعياذ بالله، وهؤلاء يخرجون من النار بالشفاعة روى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، لكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم (أو قال بخطاياهم) فأماتهم إماته، حتى إذا كانوا فحما، أُذن بالشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر، فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل»[1] فقال رجل من القوم: كأَن رسول الله ﷺ كان بالبادية[2].

قال النووي: «وأما قوله ﷺ: ولكن ناس أصابتهم النار إلى آخره فمعناه أن المذنبين من المؤمنين يميتهم الله تعالى إماته بعد أن يعذبوا المدة التي أرادها الله تعالى وهذه الإماته حقيقية يذهب معها الإحساس ويكون عذابهم على قدر ذنوبهم ثم يميتهم ثم يكونون محبوسين في النار من غير إحساس المدة التي قدرها الله تعالى ثم يخرجون من النار موتى قد صاروا فحما فيحملون ضبائر كما تحمل

---

(١) حميل السيل: وهو ما جاء به السيل من طين أو غثاء ومعناه محمول السيل والمراد التشبيه في سرعة النبات وحسنه وطراوته (صحيح مسلم بشرح النووي) (٣/ ٢٢).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الرقاق- باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار (ص١٠٣).

الأمتعة ويلقون على أنهار الجنة فيصب عليهم ماء الحياة فيحيون وينبتون نبات الحبة في حميل السيل في سرعة نباتها وضعفها فتخرج لضعفها صفراء ملتوية ثم تشتد قوتهم بعد ذلك ويصيرون إلى منازلهم وتكمل أحوالهم، فهذا هو الظاهر في لفظ الحديث ومعناه»[1].

وروى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يقول اللّه: من كان في قلبه مثقال حبة من خردل فأخرجوه، فيخرجون قد امتحشوا[2] وعادوا حمما[3]، فيلقون في نهر الحياة، فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل أو قال: حمية السيل، وقال النبي ﷺ: ألم تروا أنها تنبت صفراء ملتوية؟!»[4].

وفي حديث جابر ابن عبد اللّه. . . ثم تحل الشفاعة، ويشفعون حتى يخرج من النار من قال لا إله إلا اللّه وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيره، فيجعلون بفناء الجنة ويجعل أهل الجنة يرشون عليهم الماء حتى ينبتوا نبات الشيء في حميل السيل، ويذهب حراقه[5] ثم يسأل حتى تجعل له الدنيا وعشرة أمثالها معها»[6] وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة. . حتى إذا فرغ اللّه من القضاء بين العباد، وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار، أمر الملائكة أن

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٣/ ٣٥).

(٢) امتحشوا: احترقوا.

(٣) حمما: فحما.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه- كتاب الرقاق- باب صفة الجنة والنار (/١٦٠٨) (٦٥٦٠) وهو عند مسلم في صحيحه- كتاب الإيمان- باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار برقم (١٨٤، ٣٠٤) برواية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، واللفظ للبخاري.

(٥) حراقة: أثر النار.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الإيمان- باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها برقم (١٩١، ٣٠٦).

يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئا، ممن أراد الله تعالى أن يرحمه، ممن يقول لا إله إلا الله، فيعرفونهم في النار، يعرفونهم بأثر السجود، تأكل النار من ابن آدم إلا أثر السجود، حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود، فيخرجون من النار وقد امتحشوا، فيصب عليهم ماء الحياة، فينبتون منه كما تنبت الحبة في حميل السيل»[1].

وفي صحيح مسلم أيضا عن جابر ابن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن قوما يخرجون من النار يحترقون فيها، إلا دارات وجوههم[2]، حتى يدخلون الجنة»[3]، وهؤلاء الذين يخرجون من النار ويدخلون الجنة يسميهم أهل الجنة: الجهنميين: روى البخاري في صحيحه عن قتادة حدثنا أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «يخرج قوم من النار بعدما مسهم منها سفع، فيدخلون الجنة، فيسميهم أهل الجنة الجهنميين»[4].

وهذه الشفاعة في إخراج عصاة الموحدين من النار ليست خاصة بنبينا محمد ﷺ وإنما يشاركه فيها غيره من الملائكة والأنبياء والمؤمنون لحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .. فيقول الله عز وجل: «شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين»[5].

وجاء في الصحيحين في شفاعة نبينا محمد ﷺ عن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فيأتوني، فأستأذن على ربي فيؤذن لي فإذا أنا رأيته

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الإيمان- باب معرفة طريق الرؤية برقم (٢٩٩- ٨٢٩).

(٢) دارت وجوههم: جمع داره وهي ما يحيط بالوجه من جوانبه، ومعناه أن النار لا تأكل دارة الوجه لكونها محل السجود «صحيح مسلم بشرح النووي» (٣/ ٥٠).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الإيمان- باب أدني أهل الجنة منزلة فيها برقم (١٩١، ٣١٩).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه- كتاب الرقاق- باب صفة الجنة والنار (ص١٦٠٧) (٦٥٥٩).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الإيمان- باب معرفة طريق الرؤية برقم (١٨٣، ٣٠٢).

وقعت ساجدا، فيدعني ما شاء اللّه فيقال: يا محمد! ارفع رأسك، قل تسمع، سل تعطه، اشفع تشفع، فأرفع رأسي فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه ربي ثم أشفع، فيحد لي حدا فأخرجهم من النار، وأدخلهم الجنة، ثم أعود فأقع ساجدا فيدعني ما شاء اللّه أن يدعني، ثم يقال: ارفع رأسك يا محمد قل تسمع، سل تعطه، اشفع تشفع، فأرفع رأسي، فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه ثم أشفع، فيحد لي حدا فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة (قال فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة قال: فأقول يا رب! ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن أي: وجب عليه الخلود» قال ابن عبيد في روايته، قال قتاده: أي وجب عليه الخلود[(١)].

قال ابن حجر في قول النبي ﷺ (فيحد لي حدا): «والذي يدل عليه سياق الأخبار أن المراد به تفضيل مراتب المخرجين في الأعمال الصالحة»[(٢)] واستدل بحديث أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «يخرج من النار من قال: لا إله إلا اللّه وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا اللّه وكان في قلبه من الخير ما يزن بره، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا اللّه وكان في قلبه من الخير ما يزن ذره[(٣)(٤)] وجاء في شفاعة المؤمنين في إخوانهم المؤمنين ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في حديثه الطويل في وصف الآخرة وفيه عن النبي ﷺ قال: «حتى إذا خلص المؤمنون من النار، فوالذي نفسي بيده! ما منكم من أحد بأشد مناشدة للّه، في استقصاء الحق

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم في صحيحه- كتاب الإيمان- باب أدنى أهل الجنة منزله برقم (٣٢٢-١٩٣) وأخرجه البخاري في صحيحه- كتاب الرقاق- باب صفة الجنة والنار (ص١٦٠٨) (٦٥٦٥) واللفظ لمسلم.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١١/ ٥٣٢).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان- باب أدنى أهل الجنة منزلة برقم (١٩٢، ٣٢٥).

(٤) ويشهد له أيضا حديث أبي سعيد الخدري التالي ذكره بعد هذا الحديث.

من المؤمنين يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار[1] يقولون: ربنا! كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون. فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم فتحرم صورهم على النار فيخرجون خلقا كثيرا قد أخذت النار إلى نصف ساقيه وإلى ركبتيه.

ثم يقولون: ربنا! ما بقي فيها أحد مما أمرتنا به، فيقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقا كثيرا، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحدا، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا، ثم يقولون: ربنا! لم نذر فيها خيرا» وكان أبو سعيد يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرؤا إن شئتم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤][2] ويتفضل الله على أقوام بإخراجهم من النار من غير شفاعة، جاء في تتمة حديث أبي سعيد الخدري السابق فيقول الله عز وجل: «شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملواخيرا قط[3]، قد عادوا حمما، فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل، ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر، ما يكون إلى الشمس أصيفر وأخيضر، وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض؟»

فقالوا: يا رسول الله! كأنك كنت ترعى بالبادية.

قال: «فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم، يعرفهم أهل الجنة، هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه، ثم يقول: ادخلوا

---

(١) قال النووي في شرحه: ما منكم من أحد يناشد الله تعالى في الدنيا في استيفاء حقه أو استقصائه وتحصيله من خصمة والمتعدي عليه بأشد من مناشدة المؤمنين الله تعالى في الشفاعة لإخوانهم يوم القيامة» (صحيح مسلم بشرح النووي) (٣/ ٣١).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الإيمان- باب معرفة طريق الرؤية برقم (١٨٣، ٣٠٢).

(٣) «لم يعملوا خيرا قط» يريد إلا التوحيد المجرد عن الأعمال (التذكرة) ص ٣٠١ .

الجنة فما رأيتموه فهو لكم، فيقولون: ربنا! أعطيتنا ما لم تعط أحدا من العالمين، فيقول: لكم عندي أفضل من هذا، فيقولون: يا ربنا! أي شيء أفضل من هذا؟ فيقول: رضاي فلا أسخط عليكم بعده أبدا»[1] وروى مسلم في صحيحه عن سعيد بن منصور (واللفظ له) قال حدثنا حماد بن زيد، حدثنا معبد بن هلال العنزي، قال: انطلقنا إلى أنس بن مالك وتشفعنا بثابت، فانتهينا إليه وهو يصلي الضحى، فاستأذن لنا ثابت، فدخلنا عليه، وأجلس ثابتا معه على سريره، فقال له: يا أبا حمزة! إن إخوانك من أهل البصرة يسألونك أن تحدثهم حديث الشفاعة، قال: حدثنا محمد ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم على بعض فيأتون آدم فيقولون له، اشفع لذريتك، فيقول: لست لها ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام فإنه خليل الله، فيأتون إبراهيم، فيقول: لست لها ولكن عليكم بموسى عليه السلام فإنه كليم الله. فيؤتى موسى فيقول: لست لها، ولكن عليكم بعيسى عليه السلام فإنه روح الله وكلمته، فيؤتى عيسى فيقول: لست لها، ولكن عليكم بمحمد عليه السلام، فأوتى فأقول: أنا لها، فأنطلق فأستأذن على ربي فيؤذن لي، فأقوم بين يديه فأحمده بمحامد لا أقدر عليه الآن، يهلمنيه الله، ثم أخر له ساجدا، فيقال لي يا محمد! ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه واشفع تشفع، فاقول: رب! أمتي، أمتي فيقال: انطلق، فمن كان في قلبه مثقال حبة من برة أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل.

ثم أرجع إلى ربي أحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجدا، فيقال لي: يا محمد! ارفع رأسك وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول: أمتي، أمتي، فيقال لي: انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل.

ثم أعود إلى ربي فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجدا، فيقال لي يا

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الإيمان- باب معرفة طريق الرؤية برقم (١٨٣، ٣٠٢).

محمد! ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع فأقول: يا رب! أمتي، أمتي فيقال لي: انطلق فمن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار، فأنطلق فأفعل هذا حديث أنس الذي أنبأنا به، فخرجنا من عنده فلما كنا بظهر الجبان قلنا: لو ملنا إلى الحسن فسلمنا عليه، وهو مستخف في دار أبي خليفة قال: فدخلنا عليه فسلمنا، فقلنا: يا أبا سعيد! جئنا من عند أخيك أبي حمزة فلم نسمع مثل حديث حدثناه في الشفاعة، قال: هيه! فحدثناه الحديث فقال: هيه! قلنا: ما زادنا، قال قد حدثنا به منذ عشرين سنة وهو يومئذ جميع[1] ولقد ترك شيئا ما أدري أنسي الشيخ أو كره أن يحدثكم فتتكلوا، قلنا له، حدثنا، فضحك وقال: «خلق الإنسان من عجل» ما ذكرت لكم هذا إلا وأنا أريد أن أحدثكموه «ثم أرجع إلى ربي في الرابعة فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجدا، فيقال لي يا محمد! ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول: يا رب! ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله قال: ليس ذاك لك أو قال ليس ذاك إليك، ولكن، وعزتي وكبريائي وعظمتي وجبروتي لأخرجن من قال: لاإله إلا الله قال: فأشهد على الحسن أنه حدثنا بأنه سمع أنس بن مالك، أراه قال قبل عشرين سنة، وهو يؤمئذ جميع»[2] «فشفاعة النبي ﷺ والملائكة والنبيين والمؤمنين لمن كان له عمل زائد على مجرد التصديق، ومن لم يكن معه من الإيمان خير كان من الذين يتفضل الله عليهم فيخرجهم من النار فضلا وكرما وعدا منه حقا وكلمة صدقا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] فسبحان الرؤوف بعبادة الموفي بعهده»[3].

---

(١) جميع معناه مجتمع القوه والحفظ.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الإيمان- باب بأدنى أهل الجنة منزلة فيها برقم (١٩٢، ٣٢٦).
وأخرجه البخاري في صحيحه- كتاب التوحيد- باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم (ص١٨٠٩) (٧٥١٠).

(٣) التذكرة (ص ٣٠٣).

المبحث الثاني
إنكار بعض الفرق الشفاعة في أهل الكبائر

أنكر الخوارج والمعتزلة الشفاعة في أهل الكبائر وتعلقوا بمذاهبهم في تخليد فاعل الكبيرة في النار، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨] وبقوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣] وبقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وبقوله: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨] وبقوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] وقد أجاب أهل السنة أن هذا يراد به شيئان:

١- أن هذه الشفاعة لا تنفع الكفار، كما قال تعالى فيهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٢- ٤٨] فهؤلاء لا تغني عنهم شفاعة الشافعين لأنهم كفار.

٢- أنه يراد بذلك نفي الشفاعة التي يثبتها أهل الشرك ومن شابههم من أهل البدع: من أهل الكتاب والمسلمين الذين يظنون أن للخلق عند اللّه من القدر أن يشفعوا عنده بغير إذنه، كما يشفع الناس بعضهم عند بعض فيقبل المشفوع إليه شفاعة شافع لحاجته إليه رغبة ورهبة وكما يعامل المخلوق بالمعاوضة فالمشركون كانوا يتخذون من دون اللّه شفعاء من الملائكة والأنبياء والصالحين ويقولون نحن نتوسل إلى اللّه بدعائهم وعبادتهم ليشفعوا لنا فأنكر اللّه تعالى هذه الشفاعة فقال: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ [النجم: ٢٦] وقال عن الملائكة: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا

﴿سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦- ٢٨] وقال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢- ٢٣] وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨] وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١] وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤] وقال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤] وقال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٣- ٤٤] وقال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٨- ١٠٩] وقال صاحب يس: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾ [يس: ٢٢- ٢٥][1] وأما الشفاعة التي أثبتها الله

---

(١) انظر مجموعة فتاوي ابن تيمية (١/١٤٨- ١٥٠) بتصرف يسير.

تعالى فهي التي توافرت فيها شروط ثلاثة:

١- إذن اللّه تعالى بالشفاعة:

قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يونس: ٣].

٢- رضا اللّه عن الشافع:

قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩].

٣- رضي اللّه عن المشفوع له: قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وقد اجتمعت هذه الشروط الثلاثة في قوله تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦][١].

* * *

(١) انظر المحاضرات السنية في شرح العقيدة الواسطية لابن عثيمين (٢/ ٥٩٠) ولمعة الاعتقاد شرح الشيخ ابن عثيمين ص ١٣٠ .

المبحث الثالث
شفاعة النبي ﷺ في دخول المسلمين الجنة

وهذه الشفاعة خاصة بالنبي محمد ﷺ وثبتت فيها الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة وعن حذيفة رضي الله عنهما قالا قال رسول الله ﷺ: «يجمع الله تبارك وتعالى الناس فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة. فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئته أبيكم آدم! لست بصاحب ذلك، اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله، قال فيقول إبراهيم: لست بصاحب ذلك، إنما كنت خليلا من وراء وراء، اعمدوا إلى موسى ﷺ الذي كلم الله تكليما فيأتون موسى ﷺ فيقول: لست بصاحب ذلك فيأتون محمدا ﷺ، فيقوم فيؤذن له، وترسل الأمانة والرحم، فتقومان جنبتي الصراط يمينا وشمالا، فيمر أولكم كالبرق، قال: قلت: بأبي أنت وأمي! أي شيء كمر البرق؟ قال: «ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين؟ ثم كمر الريح، ثم كمر الطير وشد الرجال، تجري بهم أعمالهم، ونبيكم قائم على الصراط يقول: رب سلم سلم، حتى تعجز أعمال العباد، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع إلا زحفا، قال: وفي حافتي الصراط، كلاليب معلقة، مأمورة بأخذ من أمرت به، فمخدوش ناج ومكدوس في النار» والذي نفس أبي هريرة بيده! إن قعر جهنم لسبعون خريفا[(١)] وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك»[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان- باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (/ ١٩٠) (٣٢٩- ١٩٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان- باب في قول النبي ﷺ: «أنا أول الناس يشفع في الجنة» برقم (١٩٧، ٣٣٣).

المبحث الرابع
أول من يدخل الجنة وآخر من يدخلها

أول من يدخل الجنة النبي ﷺ قال عليه السلام: «آتى باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك»[1]، وقال عليه السلام: «أنا أكثر الأنبياء تبعا يوم القيامة، وأنا أول من يقرع»[2] وأمته ﷺ هي أول الأمم دخولا للجنة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، ونحن أول من يدخل الجنة...»[3] وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: نحن الآخرون ونحن السابقون يوم القيامة...»[4].

وأما آخر من يدخل الجنة فقد ذكر لنا رسو الله ﷺ خبره، جاء في حديث أبي هريرة الطويل في وصف ما يحصل للناس يوم القيامة، قال رسول الله ﷺ: «ثم يفرغ الله تعالى من القضاء بين العباد، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار، وهو آخر أهل الجنة دخولا الجنة، فيقول: أي رب! اصرف وجهي عن النار، فإنه قد قشبني[5] ريحها وأحرقني ذكاؤها[6]، فيدعو الله ما شاء أن يدعوه.

ثم يقول الله تبارك وتعالى: «هل عسيت إن فعلت ذلك بك أن تسأل غيره!

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان- باب في قول النبي ﷺ: «أنا أول الناس يشفع في الجنة» برقم (٣٣٣- ١٩٧) من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان- باب في قول النبي ﷺ: «أنا أول الناس يشفع في الجنة» برقم (٣٣٢- ١٩٦) من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الجمعة- باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة برقم (٢٠/ ٨٥٥).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الجمعة- باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة برقم (١٩/ ٨٥٥).

(٥) قشبني: سمني وأذاني وأهلكني.

(٦) ذكاؤها: لهبها واشتعالها وشدة وهجها.

فيقول: لا أسألك غيره، ويعطي ربه عهود ومواثيق ما شاء الله، فيصرف الله وجهه عن النار، فإذا أقبل على الجنة ورآها سكت ما شاء الله أن يسكت ثم يقول: أي رب! قدمني إلى باب الجنة، فيقول الله: أليس قد أعطيت عهودك ومواثيقك لا تسألني غير الذي أعطيتك، ويلك يا ابن آدم! ما أغدرك! فيقول: أي رب! ويدعو الله حتى يقول له: فهل عسيت إن أعطيتك ذلك أن تسأل غيره! فيقول: لا، وعزتك! فيعطي ربه ما شاء الله من عهود ومواثيق، فيقدمه إلى باب الجنة، فإذا قام على باب الجنة انفقهت[1] له الجنة، فرأى ما فيها من الخير والسرور، فيسكت ما شاء الله أن يسكت ثم يقول: أي رب! أدخلني الجنة، فيقول الله تبارك وتعالى له: أليس قد أعطيت عهودك ومواثيقك أن لا تسأل غير ما أعطيت ويلك يا ابن آدم ما أغدرك!

فيقول: أي رب! لا أكون أشقى خلقك، فلا يزال يدعو الله حتى يضحك الله تبارك وتعالى منه، فإذا ضحك الله منه، قال: ادخل الجنة، فإذا دخلها قال الله له: تمنه، فيسأل ربه ويمتنى، حتى إن الله ليذكره من كذا وكذا، حتى إذا انقطعت به الأماني، قال الله تعالى: «ذلك لك ومثله معه»[2].

وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «آخرُ من يدخل الجنة رجل فهو يمشي مرة ويكبو مرة وتسفعه النار مرة فإذاما جاوزها التفت إليها فقال: تبارك الذي نجاني منك لقد أعطاني الله شيئاً ما أعطاه أحداً من الأولين والآخرين فترفع له شجرة فيقولون: أي رب أدنني من هذه الشجرة فلأستظلّ بظلها وأشرب من مائها.

فيقول: الله عز وجل: يا ابن آدم لعلي إن أعطيتكها سألتني غيرها؟

---

(١) انفقهت: انفتحت واتسعت.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان- باب معرفة طريق الرؤية برقم (٢٩٩- ١٨٢) وأخرجه البخاري في صحيحه- كتاب التوحيد- باب قول الله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣] (ص١٧٩٣) (٧٤٣٧).

فيقول: لا يا رب ويعاهده أن لا يسأله غيرها، وربه يعذره؛ لأنه يرى مالا صبر له عليه فيدنيه منها، فيستظل بظلها ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرة هي أحسن من الأولى، فيقول: أي رب أدنني من هذه لأشرب من مائها واستظل بظلها لا أسألك غيرها.

فيقول: يا ابن آدم ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ فيقول لعلي إن أدنيتك منها تسألني غيرها، فيعاهده أن لا يسأله غيرها، وربه يعذره؛ لأنه يرى مالا صبر له عليه، فيدنيه منها فيستظل بظلها ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة هي أحسن من الأوليين، فيقول: أي رب أدنني من هذه لأستظل بظلها وأشرب من مائها لا أسألك غيرها.

فيقول: يا ابن آدم ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها قال: بلى يارب هذه لا أسألك غيرها وربه يعذره؛ لأنه يرى مالا صبر له عليها فيدنيه منها فإذا أدناه منها فيسمع أصوات أهل الجنة فيقولُ: أي رب أدخلنيها.

فيقول: يا ابن آدم ما يصريني منك[1]؟ أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها، قال: يارب أتستهزيءُ مني وأنت رب العالمين؟»

فضحك ابن مسعود فقال: ألا تسألوني مم أضحك؟ فقالوا: مم تضحك؟ قال: هكذا ضحك رسول اللّه ﷺ فقالوا: مم تضحك يا رسول اللّه؟ قال: من ضحك رب العالمين حين قال: أتستهزيء مني وأنت رب العالمين، فيقول: «إني لا أستهزيء منك ولكني على ما أشاء قادر»[2].

***

(١) ما يصريني منك: أي شيء يرضيك ويقطع السؤال بيني وبينك.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الإيمان- باب آخر أهل النار خروجا برقم (٣١٠- ١٨٧).

المبحث الخامس
بشارة هذه الأمة بكونهم نصف أهل الجنة

عن عبد اللَّه قال: كنا مع رسول اللَّه ﷺ في قبة، نحوا من أربعين رجلًا، فقال: «أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟»، قال: قلنا: نعم، فقال: أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟» فقلنا: نعم، فقال: «والذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، وذاك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة، وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر»(١).

انظر أخي إلى هذه البشارة العظيمة للمسلمين الموحدين من هذه الأمة المحمدية، وانظر كثرة أهل الشرك والكفر والعياذ باللَّه، ولا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، فاحمد اللَّه تعالى أن جعلنا وإياك من المسلمين وأسأله الثبات على التوحيد إلى الممات، واحذر أخي الشرك بجميع صوره فالشرك الأصغر قد يكون ذريعة إلى الوقوع في الشرك الأكبر والعياذ باللَّه، ولا تركن في ذلك كله إلى نفسك بل استعن باللَّه أن يتم عليك نعمة التوحيد حتى تلقاه بها مستشعراً عظم نعمته ومنته وفضله عليك من غير حول منك ولا قوة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمن ذا الذي شفع لك في الأزل حيث لم تكن شيئا مذكورا حتى سماك باسم الإسلام، ووسمك بسمة الإيمان، وجعلك من أهل قبضة اليمين وأقطعك في ذلك الغيب كمالات المؤمنين، فعصمك من العبادة للعبيد، وأعتقك من التزام الرق لمن له شكل ونديد، ثم وجه وجهة قلبك إليه سبحانه دون ما سواه، فاضرع إلى الذي عصمك من السجود للصنم، وقضى لك بقدم الصدق في القدم، أن يتم عليك نعمة هو ابتدأها وكانت أوليتها منه بلا سبب منك!!(٢)

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الإيمان- باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة برقم (٣٧٧-٢٢١).

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص ٥١- ٥٢ .

الخاتمة

وتشتمل على أهم نتائج البحث:

١- أن الموت مصير كل كائن حي ويبقى وجه ربنا ذو الجلال والإكرام.

٢- رهبة الموت والاجتهاد والاستعداد للقائه.

٣- القبر أول منزل من منازل الآخرة: (فظاعته- ضمته- فتنته- عذابه- نعيمه...).

٤- إن العذاب والنعيم على الروح والبدن.

٥- أسباب عذاب القبر وأسباب النجاة منه وذكر الممحصات التي تطهر العبد من الذنوب في الدنيا والآخرة.

٦- صور من القيامة الكبرى:

النفخة تكون يوم الجمعة- وهي نفختان: نفخة الصعق و نفخة البعث، وبين النفختين أربعون ولم تحدد شهر أو سنة... الخ).

٧- صور من البعث والحشر وأهوال القيامة وأحوال الناس فيها.

٨- ذكر أسماء يوم القيامة وأوصافها.

٩- تفاوت أحوال الناس يوم القيامة وبيان حال المتقين الأبرار وحال الكفار الفجار.

١٠- من الأمور العظيمة يوم القيامة مجيء الرب تعالى لفصل القضاء.

١١- تفصيل في أنواع الحساب.

١٢- صور من شفاعات النبي صلى الله عليه وسلم.

١٣- الصلاة أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة.

١٤- القصاص يوم القيامة وكيفية إعطاء الحقوق لأصحابها.

١٥- الميزان عند أهل السنة وعدد الموازين وما يوزن في الميزان وما يثقل به الميزان.

١٦- إثبات حوض النبي صلى الله عليه وسلم وصفته وأنه قبل الصراط وأن لكل نبي حوضا، والأصناف التي تذاد عن حوضه صلى الله عليه وسلم.

١٧- الصراط وصفته والأصناف التي تكون عليه وكيفية المرور عليه.

١٨- معنى الورود في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١].

١٩- القنطرة ومايجري عليها من تهذيب لتنقية الحسد والبغضاء من القلوب.

٢٠- خروج عصاة الموحدين من النار ودخولهم الجنة.

٢١- إنكار بعض الفرق الضالة كالخوارج والمعتزلة الشفاعة في أهل الكبائر.

٢٢- ذكر أول من يدخل الجنة وآخر من يدخلها والبشارة بأن أمة محمد ﷺ نصف أهل الجنة.

أخي الكريم:

وبعد هذا المطاف..

أما آن لك أن تعود.. وإلى ربك أن تتوب.. وتخشى علام الغيوب بالاجتهاد فيما أمر والانتهاء عما نهى عنه وزجر، وترك اللهو والغفلة، والاستعداد ليوم النقلة، فاليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل فالمغبون الذي أسرف على نفسه، حتى إذا جاءته السكرة ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا﴾[المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠]، فهيهات له أن يستجاب، وإلى الدنيا أن يعاد، فتدارك أخي ما فات، واعتبر بهذا الكتاب، فإن لم تحرك قلبك تلك السياط، فاحذر على قلبك الممات، وتضرع لرب البريات، أن يبدد عن قلبك الحجب والظلمات، ويهديك سواء الصراط الموصل إلى جنة عرضها الأرض والسماوات.

فهرس المصادر والمراجع

١- الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار ﷺ، للإمام الحافظ محي الدين أبي زكريا- يحيى بن شرف النووي - شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الباني الحلبي وأولاده بمصر.

٢- أهوال القبور وأحوال أهلها إلى النشور، ابن رجب الحنبلي، تخريج وتعليق خالد عبد اللطيف السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤١٢هـ- ١٩٩١م.

٣- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، أبو بكر الجزائري، طبعة خاصة بمصر وفلسطين والمغرب العربي ط٤، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.

٤- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، عالم الكتب، بيروت.

٥- التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة- القرطبي- تحقيق عصام الدين الصبابطي- دار الحديث، ط ٤- ١٤٠٨هـ- ١٩٩٧م.

٦- تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير، اختصار وتحقيق: محمد نسيب الرفاعي، مكتبة المعارف، الرياض ط جديدة- ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٧- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٨- جامع البيان في تأويل القرآن لابن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان ط١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٩- جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي- تحقيق شعيب الأرناؤوط- وإبراهيم باجس- مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

١٠- الجامع لأحكام القرآن: الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي دار الكتب العلمية - بيروت- لبنان- ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.
١١- حلية الأولياء: أبو نعيم الأصفهاني، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.
١٢- الروح لابن القيم الجوزية حققه محمد إسكندر يلدا، دار الكتب العلمية، بيروت ط٢، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م.
١٣- سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني، طبعة المعارف - الرياض - ١٩٩٥م.
١٤- سير أعلام النبلاء- شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق وتخريج شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٩، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.
١٥- شرح العقيدة الطحاوية لأبي العز الدمشقي، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي- شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.
١٦- شرح العقيدة الطحاوية، حققها وراجعها جماعة من العلماء، خرج أحاديثها محمد ناصر الدين الالباني، المكتب الإسلامي، بيروت- دمشق، ط٨، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.
١٧- صحيح ابن حبان - مؤسسة الرسالة - الطبعة الثانية - ١٩٩٣ بيروت.
١٨- صحيح البخاري للإمام أبي عبد اللّه محمد بن إسماعيل البخاري- دار المعرفة - بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.
١٩- صحيح الجامع الصغير للألباني - المكتب الإسلامي - الطبعة الثانية - ١٩٨٦م.
٢٠- صحيح سنن أبي داود للشيخ ناصر الدين الألباني- مكتب التربية العربي لدول الخليج العربي، الرياض، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م وط: المعارف.
٢١- صحيح سنن ابن ماجة للشيخ ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ط٣، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م وط: المعارف.

٢٢- صحيح سنن الترمذي للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربي لدول الخليج العببي الرياض، ط١، ١٤٠٨- ١٩٨٨م. وط المعارف.
٢٣- صحيح سنن النسائي للشيخ ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٨م، وط المعارف.
٢٤- صحيح مسلم بشرح الإمام النووي- دار إحياء التراث العربي- بيروت لبنان.
٢٥- صحيح مسلم للإمام مسلم ابن الحجاج بن مسلم القشيري - دار ابن حزم - بيروت - ط١ .
٢٦- صفة الصفوة، لابن الجوزي، ضبط إبراهيم رمضان وسعيد اللحام، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ١٤٠٩هـ- ١٩٩٨م.
٢٧- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، لابن قيم الجوزية- تقديم وتحقيق محمد عثمان الخشت، دار الريان للتراث ط٣ ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.
٢٨- فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر العسقلاني، دار الفيحاء دمشق- ط٣، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.
٢٩- قصر الأمل، ابن أبي الدنيا، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت لبنان، ط٢، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.
٣٠- الكواشف الجلية عن معاني الواسطية، عبد العزيز المحمد السلمان ط١٧٠ .
٣١- لمعة الاعتقاد لابن قدامة المقدسي- شرح محمد بن صالح العثيمين، حققه وخرج أحاديثه أشرف بن عبد المقصود، مكتبة الإمام البخاري، الإسماعيلية، ط٢، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.
٣٢- مجموع فتاوي ابن تيميةلشيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن ابن محمد قاسم النجدي، مكتبة ابن تيمية.
٣٣- المحاضرات السنية في شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية، شرح الشيخ محمد الصالح العثيمين، مكتبة طبرية، الرياض، ط١- ١٤٢١هـ-

١٩٩٣م.
٣٤- مختصر تفسير ابن كثير، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني، دار القرآن، بيروت ط٧، ١٤٠٢هـ- ١٩٨١م.
٣٥- المستدرك على الصحيحين للإمام الحاكم - طبعة دار الفكر - بيروت سنة ١٩٧٨م.
٣٦- مسند أبي يعلى الموصلي طباعة دار المأمون للتراث - دمشق - الطبعة الأولى - ١٩٨٤م.
٣٧- مسند الإمام أحمد - المكتب الإسلامي - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٩٣م.
٣٨- معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الوصول في التوحيد، الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي تحقيق محمد صبحي بن حسن حلاق، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية ١٤٢٤هـ .
٣٩- المعجم الكبير للطبراني - مكتبة ابن تيمية - القاهرة.
٤٠- المعجم الوسيط- دار إحياء التراث الإسلامي، بيروت، لبنان، ط٢ .
٤١- نيل الأوطار، بتخريج أحاديث كتاب الأذكار وبيان صحيحه من ضعيفه لأبي زكريا محي الدين بن شرف الشهير بالنووي، حقق نصوصه وضبط ألفاظه وخرج أحاديثه أبو أسامة سليم بن عيد محمد الهلالي السلفي الأثري دار ابن حزم، بيروت، لبنان ط٢، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.

الفهرس

تم الصف والإخراج
بشركة غراس للطباعة
هاتف: ٤٨١٩٠٣٧ - فاكس: ٤٨٣٨٤٩٥